جوهر الإسلام

الاخراج الفنى والغلاف : **محمد قطب**

جوهر الإسلام

د. عبد الحليم حفنى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

كل ما تعنيه دلالة العنوان وهو (جوهر الاسلام) أن الكتاب ينصب بصفة أصلية على العناية بأصول الاسلام وأحكامه التى لا يدور حولها كبير خلاف ، بمعنى أن الكتاب يحاول أن يقدم صورة للاسلام فى جوهره وتكامله ، دون التركيز على الجوانب الكمالية التى لا يختل الاسلام بتركها ، ولم تكن هذه الوجهة مقصودة لذاتها فى حقيقة الأمر ، وانما دعت اليها بعض الملابسات وأهم هذه الملابسات أمران :

أحدهما أن الدافع الى كتابة هذا الكتاب لا يخلو من طرافة أو غرابة ، فقد جمعتنى ظروف العمل فى جامعات احدى الدول العربية بزميل كريم مسيحى ، مصرى الأصل ، ولكنه حمل الجنسية الأمريكية ، وأصبح أستاذا فى جامعات الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد طلبت منه احدى الهيئات الدولية التى تعمل فى مجال التعليم الخاص أن يقترح عليها دراسة عن الاسلام ، لتكون هذه الدراسة مقررة على الطلاب فى هذا المجال الدولى ، سواء فى الدول العربية وغيرها ·

ولجأ هذا الزميل الكريم الى مستعينا بى ، وكان ذلك قبيل انتهاء مدة اعارتى الى هذه الجامعة العربية ، فاتفقنا على أن أكتب هذه الدراسة الاسلامية باللغة العربية ، ثم يترجمها هو الى اللغة الانجليزية ، ثم تقدم هذه الدراسة باللغتين معا ، لينشرا فى كتاب واحد ان أمكن ·

وقد اقتضى هذا منى أن أضع فى اعتبارى مخاطبة غير المسلمين ، الذين لا تعنيهم تفاصيل التشريع الاسلامى لذاتها ، وانما تعنيهم فى الدرجة الأولى النظرة الكلية الى الاسلام وجوهره ·

ثم رأيت بعد أن قطعت فى الكتابة شوطا أن كثيرا من المسلمين ، وخصوصا مثقفيهم أصبحوا فى حاجة الى التعريف بالتشريع الاسلامى

بصورة لا تختلف كثيرا عن غير المسلمين ، وعلى وجه أخص أولئك الذين تعلموا فى مدارس أجنبيـــة ، وأن نشر الكتـــاب باللغة العربية وحدها ـ سواء نشر باللغتين أو لم ينشر ـ قد لا يقل فائدة عن نشره باللغتين ٠

ورغم أن هذا التغيير فى النظرة قد اقتضى اضافة بعض الشىء الى منهج الكتابة الا أن الأساس العام الذى بدأت به الكتاب لم يتغير كثيرا ٠

والأمر الثانى الذى حدد منهج الكتاب فى الاعتماد على أصـــول الاسلام وجوهره دون التفاصيل أننى أردت من خلال الكتاب القاء نظرة على كل جوانب التشريع الاسلامى ، وهذا يحتم الاقتصـــار على جوهر الاسلام وأصوله بقدر المستطاع ، لان الدخول فى التفاصـــيل يحتاج الى مجلدات ليس من اليسير أن يحيط بها الحصر ، فضلا عن أن هـذه المجلدات موجودة فعلا فى كل فروع التشريع الاسلامى ، ولكن غير المتاح بالصورة التى أتخيلها هو ما يسير على نمط المنهج الكلى ٠

وأهم ما روعى فى منهج هذا الكتاب :

أولا :

الاعتماد على القرآن الكريم ، سواء فى الاستشهاد به وفى الاستنباط منه ، على أساس أن القرآن هو دستور الاسلام وتشريعه الذى لا يمكن الاختلاف حوله ، فكل المسلمين على اختلاف مذاهبهم يدينـــون للقرآن بوصفه كلام الله سبحانه ، ولا مجال لأحد منهم قط أن يجتهد فى شىء ورد صريحا فى القرآن ، ومن باب أولى لا يملك أحد أن يأتى برأى مخالف لصريح القرآن ، فان مثل هذا خروج واضح عن دائرة الاسلام ، وكان هذا أساس مراعاة الاعتماد على القرآن ، والاكتفاء به فى كل ما ورد مفصلا من أحكام التشريع فى القرآن ٠

ثانيا :

محاولة تحاشى الخلافات المذهبية بين مذاهب أهل السنة ، والاقتصار على المشهور من الأحكام ، على أساس أن الهدف من الكتاب هو التعريف بالحد الأدنى أو الضرورى من أحكام التشريع الاسلامى ٠

ثالثا :

عرض الأحكام مصحوبة بشىء من التعليل ، وخصوصا القضايا التى لا يفهمها غير المسلمين ، أو تصل الى آذانهم مشوهة ، مع مراعاة الايجاز

قدر الامكان فى التعليل ، حتى يتمشى مع منهج الكتاب فى الاختصار والايجاز ٠

رابعا :

راعيت فى الكتاب ابراز الجانب الاجتماعى فى التشريع الاسلامى ، فهذا الجانب موجود ومعروف فى أحكام الاسلام ، ولكن بعضه كفروض الكفاية منبث متفرق فى ثنايا الأحكام ، ولم ينل حظه من الدراسة ، مع أنه الجانب الذى يمثل الحضارة الاسلامية ، ويقوم عليه الكيان الحضارى للاسلام بكل جوانبه الخلقية والعلمية والحضارية بصفة عامة ، ولست أزعم أننى وفيت هذا الجانب حقه أو بعضا كبيرا من حقه ، وانما كان الحديث عنه أشبه بالاشارة أو لفت الأنظار اليه ، عسى أن تتضافر جهود من الدارسين لابرازه وتحديده من جهة ، ولابراز ارتباطه بالحضارة الاسلامية من جهة أخرى ٠

خامسا :

فى بعض موضوعات الكتاب كالجهاد والحروب الاسلامية كان الحديث يبدو وكأنه مبتور أو شديد القصور لخلوه تقريبا من تفاصيل الأحكام والأخبار والأحداث ، لأن الهدف لم يكن سرد أحداث أو أحكام ، وانما ربط الحياة الاسلامية وأحداثها بالدين والعقيدة الاسلامية ٠

سادسا :

كان من الأهداف العامة فى الكتاب محاولة الالمام بأكبر قدر من أبواب التشريع الاسلامى وأحكامه فى أوجز قدر ممكن من الكلمات ، وهذا ما آمل أن يكون من نواحى الجدة فى الكتاب ، فما أكثر الكتب المتخصصة فى كل فرع من فروع التشريع الاسلامى ، ولكن ما أقل الكتب التى يستطيع القارىء من خلالها أن يلقى نظرة شاملة أو قريبة من الشمول على الاسلام كله دون حاجة الى كبير وقت أو جهد ٠

وأرجو أن يكون الكتاب قد حقق شيئا مما أريد ، وأن ينال شيئا من رضا الله قبل أن ينال رضا الناس ٠

وما توفيقى الا بالله

د٠ عبد الحليم حفنى

أهداف الاسلام

يهدف الاسلام الى هدفين واضحين :

الهدف الأول :

تصحيح العلاقة بين الفرد وربه ، وتتمثل هذه العلاقة فى العقيدة الروحية ، وفى العبادات كالصلاة والصوم ، وعلامة صحة هذه العلاقة تأثيرها فى السلوك ، بمعنى أن يستطيع الفرد توجيه سلوكه ورغباته وغرائزه حسب شريعة الله ٠

الهدف الثانى :

اصلاح علاقة الفرد بالمجتمع ، وتتمثل هذه العلاقة فى الأحكام الاسلامية التى توجب تجنب الاضرار بالغير ، فى النفس أو العرض أو المال ، أو الاضرار بالمجتمع ، وتختص بهذا الجانب أحكام القصاص والحدود والمعاملات والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك ٠

وعلامة صلاح علاقة الأفراد بالمجتمع وجود المجتمع الصالح الذى يصوغ علاقاته حسب شريعة الله ٠

ويكتمل اسلام الفرد بالجمع بين الأساسين السابقين ، ولذلك يكثر فى القرآن اقتران الايمان بالعمل الصالح فى سياق أن اجتماعهما هو كمال الاسلام ، مثل (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (١) ٠

---

(١) ١٠٧ سورة الكهف ٠

والايمان عنوان للهدف الأول ، وعمـــل الصالحات عنـوان للهدف الثانى .

والغاية الأخيرة للاسلام اجتماع الهدفين ، بوجـــود مجتمع تحكمه المبادىء . ويلتزم أفراده هذه المبادىء بدافع من الايمان النفسى ، ويجعل الاسلام جيل النبى صلى الله عليه وسلم الذى التزم مبادئه مثالا تطبيقيا لهذه الغاية الأخيرة ، حيث يقول القرآن مشيرا الى الهدفين (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(١) والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر اشارة الى الهدف الاجتماعى ، والايمان بالله عنوان للهدف الروحى الفردى .

---

(١) ١١٠ سورة آل عمران .

العقيدة الاسلامية

تتميز العقيدة الاسلامية بوضوحها وسهولة فهمها ، ولا يدور حولها خلاف بين طوائف المسلمين ، وتنحصر فى أن يشهد الشخص هذه الشهادة (لا اله الا الله ، محمد رسول الله) ·

فكل من أقر بأن الله واحد لا شريك له ، وأن محمدا أرسله الله ليبلغ الى الناس شريعة الاسلام ، ولا ينكر هذه الشريعة ، فهو مسلم ، وبدونها لا يكتسب الشخص صفة المسلم ·

مقدسات الاسلام

القداسة فى الاسلام أصلا لله ، وحين تكون لغيره فليست لذات هذا الغير ، وانما لكونه يستمدها من الله ، فقداسة الرسول ليست لذاته ، وانما لصفته ، وهى كونه مرسلا من الله ، وقداسة القرآن لكونه كلام الله ·

الله :

لابد لمن يؤمن بالله فى الاسلام أن يعتقد أن الله واحد لا شريك له قط فى الألوهية ، له كل صفات الكمال المطلق ، ولا يمكن أن يتصور حقيقة ذاته عقل أو خيال ، لأنه لا يوجد شىء قط يشبهه ·

وعن وحدانية الله يسوق القرآن دليلا من واقع الحياة ، وهو أنه لو كان هناك اله أو آلهة غير الله فى السموات والأرض لحدث بين الآلهة

تنافس وتنازع كما يحدث بين الناس ، فتفسد السموات والأرض ، ولكن نظام الكون لم يفسد منذ بدء الخليقة ، فهذا دليل على وجود اله واحد ، ففى القرآن (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) (١) ٠

وعن عدم تصور حقيقة ذات الله يقـــول القرآن (ليس كمثـــله شيء) (٢) ٠

والقرآن يخصص سورة قصيرة تلخص العقيدة الاسلامية فيما يتعلق بذات الله ، هى سورة الاخلاص (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) (٣) ٠

الرسول صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، من قبيلة قريش ، نشأ بمكة التى كانت بمثابة العاصمة الدينية للعرب قبل الاسلام لاشـــتمالها على الكعبة التى كانت موضع تعظيم العرب ، يحجون اليها من كل أنحاء الجزيرة العربية ، وظل معروفا بالاستقامة والخلق المثالى حتى بلغ سن الأربعين ، فنزل عليه الوحى من الله ليكون رسولا الى الناس كافة ، فقضى فى مكة حينئذ ثلاث عشرة سنة ، ثم هاجر الى المدينة فقضى فيها عشر ســـنين ، وتوفى بالمدينة المنورة وعمره ثلاث وستون ســـنة ، وكان أميـــا لا يقرأ ولا يكتب ، وتتركز منزلة الرسول فى صفته ، وهى كونه رسولا من الله ٠

تزوج وهو فى سن الخامسة والعشرين من زوجه خديجة التى كانت حينئذ فى سن الأربعين ، وظل معها حتى ماتت وهى فى سن الخامســـة والستين لم يتزوج سواها ، وبعد موتها وهو فى سن الخمســـين تزوج بأخريات بعضهن كان زواجه بهن لأسباب انسانية ٠

وأهم ما يجب اعتقاده فيما يتعلق به :

١ ــ أنه بشر لا يختلف فى بشريته عن غيره الا فى أنه يتلقى الوحى من الله ليبلغه الى الناس ، ويؤكد القرآن هذه الصفة فى قوله (قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد) (٤) ٠

٢ ــ أن رسالته من الله الى البشر عامة الى يوم القيامة ، دون تفريق بين الأجناس أو الأماكن أو الأزمان ، وفى القرآن (وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا) (٥) ٠

---

(١) ٢٢ سورة الأنبياء ٠ (٢) ١١ سورة الشورى ٠

(٣) سورة الصمد ، أحد : واحد ٠ الصمد : المقصود عند الحاجة ٠ الكفو : النظير ٠

(٤) آخر سورة الكهف ٠ (٥) ٢٨ سورة سبأ ٠

القرآن :

هو كلام الله الذى أوحاه الى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأمره بتبليغه الى الناس ، ويتضمن الأسس العامة للاسلام فى كل جوانبه ، العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات والصلات الاجتماعية وغير ذلك ، وتلاوة المسلم للقرآن نوع من العبادة ·

بدأ نزوله على النبى محمد وهو فى سن الأربعين ، وظل يتنزل عليه فى أجزاء حتى آخر حياته ، وكان كلما نزل عليه بعض منه بادر بكتابته عن طريق أحد الكتاب فور تلقيه اياه ، وحين توفى النبى صلى الله عليه وسلم كان القرآن كله مكتوبا فى صحائف ·

وقد سجل القرآن وعدا من الله بحفظ هذا القرآن ، فى قوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (١) ، ولذلك لم يحدث فيه أى تغيير أو تحريف عن الصورة التى تركه عليها النبى ·

وقد سجل القرآن أيضا أن الله يتحدى العرب ، بل والانس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، أو بمثل سورة منه ، فيقول (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا لقرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) (٢) ، ويقول (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (٣) ، ولم يستطع أحد أن ينقض هذا التحدى حتى اليوم ، ومن مقتضى قداسة القرآن الايمان اليقينى بأنه كلام الله ، والايمان بكل ما أمر به أو نهى عنه من واجبات أو محرمات ، وبكل ما أخبر به كالبعث والجنة والنار والملائكة والأنبياء السابقين وكتبهم السماوية ·

---

(١) ٩ سورة الحجر ·
(٢) ٨٨ سورة الاسراء ·
(٣) ٣٨ سورة يونس ·

مصادر التشريع الاسلامى

المصادر التى تؤخذ منها الأحكام الاسلامية أربعة :

١ ـ القرآن :

هو المصدر الأول للتشريع فى الاسلام بصفته صادرا عن الله ، وكل نص صريح فى القرآن ملزم لكل مسلم ، وكل حكم يتعارض مع القرآن فهو باطل ، والقرآن بمثابة الدستور فى الاسلام ، يهتم بأسس الأحكام ، ويترك التفاصيل ليبينها النبى صلى الله عليه وسلم ·

٢ ـ السنة :

هى ما صدر عن النبى صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير ، فالقول ان يأمر بشىء ، والفعل أن يفعل شيئا أمام أحد ، والتقرير أن يقر شيئا يراه أو يسمعه ·

وليس كل ما صدر عن النبى ملزما للمسلمين ، بل بعضه ملزم واجب ، كبعض التفاصيل فى العبادات ، مثل عدد الركعات فى الصلوات ، والنصاب الواجب فى الزكاة ، ونحو ذلك ، وبعضه غير ملزم ، بل يكون للترغيب كالعبادات الزائدة عن الفرائض ·

وأشهر كتب السنة التى تحوى الأحاديث النبوية كتابا صحيح البخارى ، وصحيح مسلم ·

وأشهر من جمع الأحاديث النبوية ودونها محمد بن اسماعيل المشهور بالبخارى ، ولد سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤ هـ) ، ومات عن اثنين

وستين سنة ، ويوصف كتابه (الجامع الصحيح) بأنه التالى للقرآن فى الأهمية ، وقد التزم فيه عدم تدوين الحديث الا بعـــد ثبوت عدالة كل رواته ، ومنذ بدأ تدوين الحديث نشأ علم نقد الحديث المعروف بعلم (الجرح والتعديل) الذى يتضمن دراسة شخصية كل راو فى سلسلة الرواة حتى النبى ، ولا يوصف الحديث بالصحة الا اذا ثبتت عدالة كل رواته ، فاذا جرحت عدالة راو من سلسلة الرواة لا يوصف الحديث بالصحة ٠

٣ ـ الاجمـاع :

هو أن يحدث من مستجدات الحياة شىء وليس له حكم فى القرآن أو السنة ، فيجمع علماء المسلمين على حكم له ، فيصبح هذا الاجماع ملزما للمسلمين ، وقد حدث هذا فى أمور قليلة جدا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، منها تحريم الزواج بامرأة فى أثناء عدة أختها ٠

٤ ـ القياس :

هو أن يحدث شىء من المستجدات فى حياة المسلمين ليس له حكم ، ولكن له نظير ، وهذا النظير له حكم فى الاسلام ، فهذا المستحدث يقاس على النظير ويأخذ حكمه ، كالخمر ، فانها محرمة فى الاسلام بنص القرآن ، وسبب تحريمها الأسكار ، فاذا وجد شىء مسكر غير الخمر فانه يقـــاس عليها ويصبح محرما ٠

التشريع الاسلامى
الجانب الفردى

تتلخص أهداف التشريع الفردى فى اصلاح الفرد من الجانب الروحى والجانب الاجتماعى معا ، أو بالتعبير الدينى أن يكون صالحا للدنيا والآخرة ٠

وأهم هذه التشريعات :

العبادات

وهى الأمور التى فرضها الله على الأفراد من عبـــاده ، والعبادات الواجبة فى الاسلام يجمعها الحديث النبوى المشهور (بنى الاســـلام على خمس : شهادة ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليـه سـبيلا) ومن

المشهور أيضا أن رجلا جاء الى النبى يسأله عن الاسلام ، فذكر له النبى هذه الأمور الخمسة فقال ، الرجل : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص ، فقال النبى (أفلح ان صدق) ٠

الصلاة

الصلاة فى أصلها عبادة روحية بين الفرد وربه ، ولكن الاسلام يدعو الى اكسابها الطابع الاجتماعى ، فيحث على أن تكون الصلاة فى جماعة ، جاعلا الصلاة فى جماعة أفضل من صلاة الفرد وحده بسبع وعشرين درجة ، ويجعل صلاة الجمعة من كل أسبوع فى جماعة أمرا واجبا ، وذلك ليستفيد المسلم من الصلاة فى الجانبين الروحى والاجتماعى٠

وقد أمر القرآن بالصلاة ، وبأنها فى أوقات محددة (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) (١) ، ثم فصل النبى كيفيتها وأوقاتها ، فهى خمس صلوات واجبة فى اليوم ، صلاة الصبح ، وهى بعد طلوع الفجر ، وصلاة الظهر وهى فى منتصف النهار ، وصلاة العصر وهى مابين منتصف النهار وغروب الشمس ، وصلاة المغرب وهى عقب غروب الشمس ، وصلاة العشاء وهى بعد الغروب بنحو ساعة ونصف ٠

وهناك صلوات زائدة عن هذه الواجبات لزيادة الصلة الروحية بالله كان النبى يؤديها ويحث عليها ، وتسمى (سنة) ولكنها ليست ضرورية ٠

والصلاة الاسلامية تتكون من وحدات متكررة ، كل وحدة تسمى ركعة ، والركعة تبدأ بأن يقف المصلى فى خشوع متمثلا أنه واقف بين يدى الله متجها الى الجهة التى فيها الكعبة بمكة ، ويقول (الله أكبر) ثم يتلو سورة الفاتحة وأى شىء ولو كان قصيرا من القرآن بعدها ، ثم يركع بأن ينحنى الى الأمام معتمدا بيديه على ركبتيه ، ويستقر فى هذا الوضع ولو لحظة ، ويستحسن حينئذ أن يقول (سبحان الله) وهى كلمة تعنى تمجيد الله وتنزيهه عما لا يليق ، يقولها بضع مرات ، ثم ينصب قامته ، وبعد أن يستقر فى وقوفه ولو لحظة ينزل الى السجود على الأرض ، فيعتمد بيديه وركبتيه على الأرض ، واضعا وجهه على الأرض بحيث تلامس جبهته وأنفه الأرض ، اعلانا عن خضوعه لله (ولا يجوز للمسلم بأى حال أن يؤدى هذا الركوع أو السجود لأحد قط غير الله) ويستقر المصلى فى هذا

---

(١) ١٠٣ سورة النساء ٠

الوضع ولو لحظة ، ويستحسن أيضا أن يقول سبحان الله بضع مرات ، ثم يجلس ، ثم يعاود السجود على الأرض بهذه الصورة مرة أخرى ، ثم يجلس ، ويقول مع كل حركة الى أسفل أو أعلى (الله أكبر) وهذا القدر يسمى ركعة ، فاذا أراد ركعة أخرى وقف دون أن يغير اتجاهه الى الكعبة ، وأعاد العمل نفسه كما فى الركعة الأولى ٠

وبعد الركعة الثانية دائما يجلس المصلى قليلا ، يقول أى كلمات عن تعظيم الله والثناء على الرسول ، ويستحسن أن تكون صيغتها (التحيات لله والطيبات والصلوات ، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أشهد ألا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) وهذا يسمى التشهد ، فاذا أراد انهاء الصلاة حول وجهه عن جهة الكعبة بأى حركة أو عمل ، ويستحن أن يحول وجهه الى اليمين ثم الى اليسار قائلا (السلام عليكم) ٠

واذا كانت الصلاة أكثر من ركعتين يقف بعد التشهد دون أن يحول وجهه عن جهة الكعبة ويواصل الصلاة ، ولكن يقرأ الفاتحة فقط فى كل ركعة بعد ذلك ٠

وصلاة الصبح ركعتان ، وصلاة الظهر والعصر والعشاء كل منها أربع ركعات ، أما صلاة المغرب فثلاث ٠

والركعتان الأوليان فى الصبح والمغرب والعشاء تكون قراءة القرآن فيهما بصوت مسموع جوازا للمصلى المفرد ، ووجوبا لصلاة الجماعة ، والباقى بصوت خفى ٠

وهناك نوافل كثيرة يحث الاسلام عليها زيادة فى التقرب الى الله ، وأهمها ركعتان قبل صلاة الصبح ، وثلاث ركعات بعد صلاة العشاء ٠

وصلاة الجماعة فى الاسلام فيها صورة القيادة وطاعة النظام ، فجماعة المصلين يقف أمامهم الامام ، وهو الذى يؤدى أعمال الصلاة ، وعليهم جميعا أن يتابعوه فى كل حركة من حركات الصلاة ، فاذا نزل نزلوا ، واذا وقف وقفوا ، وهكذا ٠

ومن المعروف فى الاسلام أن النبى كان أكثر المسلمين صلاة زيادة عن الصلوات المفروضة ، حيث كان يقضى كل ليلة شطرا كبيرا من الليل فى بيته فى الصلاة ، وكان هو الامام الذى يؤم المسلمين فى المسجد فى كل الصلوات المفروضة ٠

وأى مسلم يحسن الصلاة يمكن أن يؤم المصلين فى صلاة الجماعة ·

ولكى تؤدى الصلاة الغرض منها لابد من خشوع المصلى واحساسه بأنه ماثل بين يدى الله ، وعلامة بلوغ الصلاة هدفها استقامة سلوك المصلى ، وفى القرآن (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) ·

ولابد للصلاة أن يكون المصلى على طهارة ، والطهارة نوعان هما : الغسل والوضوء كما سيأتى ·

الغسل والوضوء

ويكونان بالماء الطاهر الذى لم تخالطه نجاسة كالدم أو البول أو البراز ·

الغسل :

هو غسل الجسد كله بالماء ، ويجب الغسل على المسلم والمسلمة بمزاولة الصلة الجنسية ، ونزول المنى بشهوة سواء فى اليقظة أو الاحتلام فى النوم ، ويجب الغسل على المرأة بعد انقطاع الدم فى الحيض والولادة ·

ووجوب الغسل يكون لثلاثة أشياء ، الصلاة ، وتلاوة القرآن ، ودخول المسجد ، وفى القرآن الكريم (وان كنتم جنبا فاطهروا) (٢) ·

الوضوء :

لا يجوز للمسلم الصلاة الا بعد الوضوء ، وهو غسل أطراف الجسم ، حيث يعطى احساسا نفسيا بالتهيؤ لشىء مهم هو الوقوف بين يدى الله ، وله تفاصيل معروفة فى الفقه الاسلامى ، والقدر الواجب منه ما أمر به القرآن ، وهو غسل الوجه ، وغسل اليدين الى المرفقين (مفصلى منتصف الذراعين) والمسح بالرأس ، وهو مجرد امرار اليد وهى مبللة بالماء على الرأس أو على جزء كبير منها ، وغسل الرجلين الى الكعبين (مفصلى القدمين) وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم الى الكعبين) (٣) ، ومراعاة لتعبير القرآن بالمسح فى الرجلين أجاز جمهور الفقهاء المسح على ظاهر الجورب أو الخف اذا كان الشخص قد لبسه وهو

(١) ٤٥ سورة العنكبوت ·
(٢) ٦ سورة المائدة ·
(٣) ٦ سورة المائدة ·

متوضىء ، وتضاف الى ذلك أمور كمالية للوضوء توصف بأنها سنة لأن النبى كان يؤديها ، وتتضح فيها الناحية الصحية ، وأهمها غسل الفم من الداخل (للمضمضة) وغسل الأنف من الداخل باستنشاق الماء فيها ، وتنظيف الأسنان بالسواك الذى حث النبى كثيرا على استعماله ، ومن ذلك قوله (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة) · ويكون ذلك فى بداية الوضوء ·

ويمكن للمسلم أن يؤدى بالضوء الواحد عدة صلوات فى اليوم ما لم ينتقض الوضوء بخروج أى شىء من مخارج الجسم كالبول والبراز ، وصورة الوضوء كاملة أن يغسل كفيه أولا ، ثم الفم من الداخل مستخدما السواك ان أمكن ، ثم استنشق الماء الى داخل الأنف ، ثم غسل الوجه ، ثم غسل اليدين الى المرفقين ، ثم مسح شعر الرأس أو قدر منه ، ثم مسح الأذنين من الداخل مسحا ، ثم غسل الرجلين الى الكعبين ، والأفضل أن يكون الغسل لكل عضو ثلاث مرات ·

التيمم :

فى حالة عدم وجود الماء ، أو عدم القدرة على استعماله ففى الاسلام استخدام صورة رمزية للطهارة تعرف بالتيمم ، وهى أن يضع الشخص كفيه على أرض طاهرة ، ثم يمر بهما على وجهه ، ثم على ظاهر ذراعيه ، ولا يقصد منه وصول شىء من الأرض الى الجسم ، وانما هو مجرد رمز للتطهر ، وفى القرآن (وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) (١) ، والصعيد الطيب هو الأرض الطاهرة ·

الصوم

عبادة روحية بحتة حضت عليها كل الأديان بصور مختلفة ، وأوضح أهدافه تعويد الفرد على السيطرة على غرائزه ، واخضاع نفسه لطاعة الله ، فان التحكم فى الغرائز من الخصائص التى تميز الانسان عن سائر الحيوان ·

---

(١) ٦ سورة المائدة ·

والاسلام يوجب صيام شهر كامل كل عام ، هو شهر رمضان ، والصوم الاسلامى هو الامتناع عن ادخال أى شىء الى الجوف ، وعن مزاولة الشهوة الجنسية ، من طلوع الفجر الى غروب الشمس فقط ، ثم يزاول الحياة العادية كاملة الى طلوع الفجر ٠

واذا عرض للمسلم عارض كالسفر أو المرض يمكن أن يفطر ثم يصوم الأيام التى أفطرها بعد ذلك ، فان كان العذر المانع من الصوم مستمرا كالشيخوخة المضعفة أو المرض الدائم فعليه أن يطعم فقيرا مقابل كل يوم يفطره ، أو يدفع اليه قيمة طعامه ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ٠ أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ٠٠) (١) ٠

وشهر رمضان فقط هو الذى يجب على المسلم صومه ، ولكن الاسلام يحث المسلم على عدم الانقطاع عن الصوم بين وقت وآخر فى خلال العام حتى يحتفظ الفرد بلياقته الروحية فى قوة الارادة والقدرة على مقاومة غرائزه وشهواته ، واخضاعها للتشريع ٠

الزكاة

قدر معين يجب على المسلم أن يخرجه من ماله كلما حال عليه الحول ٠

والزكاة أساس من أسس الاسلام ، وقد تكرر الأمر بها فى القرآن كثيرا ٠

والاسلام يرى الزكاة حقا للمحتاجين من المجتمع ، وليست تفضلا من صاحب المال عليهم ، لأن المجتمع فى الحقيقة سبب أصلى فى وجود المال أو نموه ، ولا يتصور مال يوجد أو ينمو دون أن يكون المجتمع طرفا فى وجوده أو نموه ، فالتاجر تجارته أيا كانت تقوم على التعامل مع المجتمع ،

---

(١) ١٨٣ ـ ١٨٥ سورة البقرة ٠

والزارع فائدة محصوله أن يتعامل فيه مع المجتمع بالبيع أو التبادل ، كما أنه لا يستغنى فى زراعته عن عمال من المجتمع يعاونونه ، وهكذا فى كل نشاط اقتصادى على الاطلاق لابد أن يكون المجتمع طرفا فيه ، فمن حقه أن يكون له جزء منه ، والقرآن يستخدم تعبير الحق فى أكثر من موضع ، حيث يقول (والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم) (١) ، ويقول (وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) (٢) ، وفى هذا مراعاة لمشاعر الفقراء الذين يأخذون الزكاة ، حيث يشعرون بأن هذا حق لهم ، وليس تفضلا من الأغنياء عليهم ، فاذا لم يوجد الفقير المحتاج فان السلطة هى الممثلة للمجتمع فى توجيه الزكاة للمصلحة العامة ·

وقد حدد القرآن عدة مصارف للزكاة توضع فى أى منها ·

ونلمح فى القرآن الجمع بين الهدفين الفردى والاجتماعى فى عبادة انفاق المال ، فالهدف الفردى أن يتخذ المسلم من انفاق المال فى سبيل الله عبادة روحية يتقرب بها الى الله ، ونجد فى القرآن آيات كثيرة تحض على الانفاق فى سبيل الله دون التقيد بقدر معين ، مثل (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٣) ، والنبى كان يدعو كثيرا الى ذلك ، وكان هو قدوة عملية فى هذا ، فمن المعروف أنه رغم الأموال الكثيرة التى كانت تحت تصرفه فى أخريات حياته الا أنه مات ولم يترك دينارا ولا درهما ·

وهذا النوع من الانفاق عبادة اختيارية غير واجبة ·

وأما الهدف الاجتماعى للزكاة فهو فى القدر المحدد الواجب ، وهو المعروف بالزكاة ، والمشار اليه فى الآيتين السابقتين بأنه حق معلوم ، وأنه حق للسائل والمحروم ، فهو تشريع اجتماعى واجب الأداء ·

والاسلام يراعى أساسين لا تجب الزكاة الا بتوافرهما فى المال :

١ ـ أحدهما أن يكون لدى الشخص المزكى قدر من المال يجعله غنيا ولو نسبيا بالقياس الى الفقير ، لأن الأصل فى الزكاة أنها تؤخذ من الأغنياء ، ولذلك حدد التشريع الاسلامى قدرا فى كل الأموال التى تجب فيها الزكاة يسمى (النصاب) لا تجب الزكاة الا بملكيته ، وهو الحد الأدنى لوجوب الزكاة ·

---

(١) ٢٤ وما بعدها سورة المعارج · (٢) ١٩ سورة الذاريات ·
(٣) ٢٧٤ سورة البقرة ·

٢ ـ ثانيهما أن يظل هذا القدر (النصـــاب) لدى الشخص حولا كاملا ، ليكون هذا دليلا على استغنائه عنه ، وليكون غالبا قد استفاد منه فى أثناء هذه المدة ٠

الأنواع التى تجب فيها الزكاة :

يراعى الاسلام أنه لا تجب الزكاة الا فى المال القـــابل للاستثمار والنمو ، فكل مال قابل لذلك تجب فيه الزكاة ، سواء استثمره صاحبه أو ادخره بدون استثمار ، أما المال الذى لا يوجه عادة للاستثمار فلا تجب فيه الزكاة ، كالسكن مهما بلغت قيمته ، أو الحلى الذى تقتنيه المرأة للزينة مهما بلغت قيمته ، فلا تجب فيه الزكاة ٠

ومن هذا يفهم أن الاسلام يدعو ضمنا الى استثمار المال وتنميته ٠ ليتحاشى صاحب المال نقصانه بالزكاة ٠

ويحصر التشريع الاسلامى أهم أوجه النشاط الاقتصادى المألوف لدى الأفراد فى البيئات المختلفة فى الأنواع الآتية :

١ ـ التعامل بالنقد ، ويجعل مدار تقويمه الذهب والفضة ٠
٢ ـ تربية الماشية ، وتشمل الغنم والبقر والابل ٠
٣ ـ التجارة فى أى سلعة غير محرمة ٠
٤ ـ الزراعة ٠

ويجعل الاسلام الزكاة فى هذه الأنواع كما يلى :

النقـــد :

الأصل فى النقد الذهب والفضة ، ثم ما يقدر بهما أو بواحد منهما كأوراق البنكنوت ٠ ولا تجب الزكاة فى النقد الا بشرطين :

١ ـ أن يبلغ ما يملكه الشخص مقدار عشرين مثقالا من الذهب ، تقدر اليوم بسبعة وثمانين جراما ، فاذا كان يملك هذا القدر أو قيمته من العملة المتداولة ، وجبت عليه زكاتها ، وهى تعادل اليوم نحو ألف دولار أمريكى ، وكذلك اذا بلغ ما يملكه من الفضة مائتى درهم أو ما يعادلها من العملة المتداولة ، فاذا كان ما يملكه أقل من تلك القيمة لم تجب عليه زكاة ٠

٢ ـ الشرط الثانى أن يحول الحول على هذا المال وهو فى ملكه ٠

فاذا توافر الشرطان وجبت عليه الزكاة ، وهى ربع العشر (٢½) من المال كله .

الماشية :

فى بيئات كثيرة تعتمد موارد الأفراد على تربية الماشـــية ، فتجب حينئذ الزكاة على الأوجه الآتية :

الغنم :

لا تجب الزكاة فى الغنم الا اذا بلغت أربعين نعجة ، فاذا بلغت هذا العدد كانت زكاتها نعجة واحدة ، فاذا زادت عن مائة وعشرين كانت زكاتها نعجتين ، فاذا زادت عن مائتين فزكاتها ثلاث نعاج ، ثم فى كل مائة نعجة نعجة .

البقر :

لا تجب الزكاة فى البقر الا اذا بلغ عددها ثلاثين بقرة ، فاذا بلغتها وجب اخراج أحد أولادها مما يبلغ سنة من عمره ، فاذا بلغ عدد البقر أربعين كانت زكاتها بقرة بلغت سنتين من عمرها ، وكل ما زاد على ذلك اذا بلغ ثلاثين ففيه مولود فى سن سنة ، واذا بلغ أربعين ففيه بقرة ذات سنتين من عمرها .

الابل :

لا تجب الزكاة فى الابل الا اذا بلغ عددها خمسا ، فاذا بلغتها وجب اخراج نعجة من الغنم ، ثم فى كل خمس تالية نعجة ، فاذا بلغ عدد الابل خمسا وعشرين وجب اخراج ناقة عمرها سنة واحدة ، فاذا بلغت ســـتا وثلاثين وجب اخراج ناقة عمرها سنتان ، وهكذا فى كل زيادة معينة يزيد عمر الناقة التى يزكى بها ، فاذا بلغ عدد الابل ستا وسبعين وجب اخراج ناقتين ، فاذا بلغت احدى وتسعين وجب اخراج ناقة عمرها ثلاث سنوات ، فاذا بلغت مائة واحدى وعشرين فأكثر وجب فى كل أربعين منها ناقة عمرها سنتان .

زكاة التجارة :

مهما كانت أنواع السلع التى يزاول فيها التاجر تجارته تجب فيها الزكاة بشرطين :

١ ـ أحدهما أن تبلغ قيمة هذه السلع القدر الذى تجب فيه الزكاة ، وهو القدر الذى سبق بيانه فى الذهب والفضة ، والذى يعادل اليوم فى الذهب نحو ألف دولار أمريكى ، وما دونه لا زكاة فيه ٠

٢ ـ ثانيهما أن يحول على هذه التجارة الحول ٠

وكيفية اخراج زكاتها أن تقوم هذه السلع كل عام بالقيمة النقدية ، فاذا بلغت القـــدر الذى تجب فيه الزكاة فأكثر وجب اخراج ربع العشر (٢½٪) زكاة عنها ٠

زكاة الزراعة :

تجب الزكاة فى الزراعة عند جمع المحصول ، ففى القرآن (وآتوا حقه يوم حصاده) (١) ، وقد فصلت السنة مقـــدار الزكاة الذى يجب اخراجه ، ففرقت بين الأرض التى تزرع على الأمطار دون جهد فى السقى من صاحبها ، وبين الأرض التى تسقى بالآلات ، فأما الأرض التى تسقى بالمطر فزكاتها عشر المحصول (١٠٪) وأما التى تسقى بالآلات فزكاتها نصف العشر (٥٪) ففى الحديث النبوى (ما سقت السماء ففيه العشر وما سقى غرب (دلو) أو دالية (ساقية) ففيه نصف العشر) ٠

وكذلك ما يخرج من الأرض وله عائد مالى كالمعادن تجب فيه الزكاة كالزراعة ٠

مصارف الزكاة :

حدد القرآن ثمانية أوجه تسمى مصارف يجب على المزكى أن يضع زكاته فيها أو فى واحد منها ، وهى فى هذه الآية (انما الصـــدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) (٢) ٠

والمراد بالصدقات فى الآية الزكاة المفروضة (والفقير أو المسكين) هو الذى لا يملك القدر الذى تجب فيه الزكاة ، أو يملكه ولكنه يظل فى حاجة ضرورية الى العون لكثرة عياله أو أعبائه الضرورية كالعلاج ونحوه ، وفى تعريف الفقير والمسكين اختلاف ، ولكن استخدام القرآن يوحى بأن الفقير هو المحتاج الذى لا تظهر عليه الحاجة ، والمســـكين هو البادى عليه الاحتياج ، (والعامل على الزكاة) هو الذى يتولى مهمة جمع الزكاة ، فله

---

(١) ١٤١ سورة الأنعام ٠ (٢) ٦٠ سورة التوبة ٠

أن يأخذ أجره منها ، (والمؤلفة قلوبهم) هم الذين تدفع اليهم أموال لاتقاء شرهم على الدين أو جلب خيرهم له ، (والرقاب) هم العبيد الراغبون فى الحرية ، فان الاسلام فتح لهم بابا من الزكاة ليساعدهم على التحرر من الرق ، حيث يتفق العبد مع سيده على أن يحرره مقابل مبلغ معين يدفعه العبد ، فيجوز للمسلم أن يدفع زكاته لهذا العبد ليساعده على التحرر (والغارمون) هم المدينون العاجزون عن الوفاء بدينهم ، فيجوز للمسلم أن يدفع الى المدين ما يسدد به دينه ، (وفى سبيل الله) هو كل عمل من شأنه الاسهام فى اعلاء كلمة الله أو تبليغ رسالته الى الناس أو كل عمل يراد به وجه الله وليس فيه للمزكى مصلحة ، (وابن السبيل) هو المسافر أو الغريب الذى نفد ماله وهو فى حاجة الى نفقة أو مساعدة ·

والقرآن يجعل الزكاة المفروضة هى الحد الأدنى لسخاء المؤمن وانفاقه فى سبيل الله ، ولذلك هو يدعو المؤمنين كثيرا الى الانفاق دون التقيد بمقدار الزكاة ، ويسوق ذلك بأساليب كثيرة تغرى بالانفاق ، مثل (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) (١) بمعنى أن ما تملكونه هو فى الحقيقة ملك لله ، ولكنه جعلكم خلفاء له فى ملكيته ، ومثل (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) (٢) فهو يضمن لهم أن أى شىء ينفقونه لا بد أن يعوضهم عنه ، والمؤمن واثق بصدق القرآن ، فهو موقن بأن الله سيعوضه عما ينفقه بأى صورة من التعويض المادى أو المعنوى ، ومثل (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) (٣) فهو يجعل الصدقة قرضا يقدم الى الله ، والله ملتزم أن يرده مضاعفا ، ومن هذا يتبين مدى ما يحققه هذا الجانب من التضامن الاجتماعى ·

ولكى يكون هذا التضامن مبنيا على الخلق الحسن وعلى الود النفسى يدعو القرآن الأغنياء الى احترام مشاعر الفقراء عند اعطائهم الصدقة ، كقوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ، يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) (٤) فهو يوضح أن الكلمة الطيبة الرقيقة خير من الصدقة التى يترتب عليها ايذاء للمشاعر ، ويوضح أن المن على المحتاج وايذاء مشاعره يفسد الصدقة ، هذا فضلا عن القاعدة العامة فى الاسلام وهى أن أى عمل لا يعد خيرا ولا مقبولا عند الله الا اذا قصد به وجه الله ، وقصد وجه الله يمنع المتصدق من ايذاء مشاعر المحتاج ·

---

(١) ٧ سورة الحديد ·
(٢) ٣٩ سورة سبأ ·
(٣) ٢٤٥ سورة البقرة ·
(٤) ٢٦٤ سورة البقرة ·

يجب أداؤه مرة واحدة فى العمر لمقادر عليه ٠

وهو الركن الخامس فى الاسلام بعد شهادة (لا اله الا الله محمد رسول الله) والصلاة والزكاة والصوم ، ولكنه فى أدائه يتضمن كل الأركان الأخرى ، ففيه مضمون الشهادة السابقة من حيث طاعة الله ورسوله ، وفيه جوهر الصلاة من حيث الصلة الروحية بالله ، وفيه معنى الزكاة ، من حيث التضحية بالمال ، وفيه أهداف الصوم ، من حيث منع النفس من مزاولة أشياء معينة فى أثناء الحج ٠

كما أن الحج يحقق معنيين يدعو اليهما الدين كثيرا :

١ ـ أحدهما روحى ، وهو عدم التشبث الشديد بالدنيا ومظاهرها ، فقد تكرر فى القرآن عن الدنيا (وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) (١) ، وفى الحج مثال عملى للتخفف من مظاهر الدنيا ومشاغلها ، فان من أهم أعمال الحج التى يبدأ الحاج هو التجرد من ثيابه ولبس ملابس الاحرام التى تشبه كفن الميت ، وفى هذا تذكير بالموت وترك الدنيا ، فضلا عن أن الحاج يترك مشاغله ومصالحه الدنيوية حين يرحل الى الحج ٠

٢ ـ والمعنى الثانى اجتماعى ، وهو تحقيق التعارف والترابط والاخاء بين المؤمنين ، فان القرآن ينظر الى المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم أو أماكنهم على أنهم أسرة واحدة تجمعهم أقوى الروابط ، حيث يقول (انما المؤمنون اخوة) ، وفى الحج مثال عملى لهذا حيث يجتمع مؤمنون من مختلف الأجناس والأماكن فى الحج فى وقت واحد ، ومكان واحد ٠

والفكرة العامة فى أماكن الحج أنها رموز لمعان دينية ، فالكعبة التى يحج اليها المسلمون تسمى (بيت الله) وهى رمز لاتجاه المؤمن الى الله ، كما يتجه الانسان لزيارة شخص عزيز أو عظيم فى بيته أو مقره ٠

والحج كان موجودا عند العرب قبل الاسلام ، ومن خلال قصة النبى ابراهيم التى وردت فى القرآن يفهم أن مناسك الحج التى كانت قبل الاسلام ثم جعلها الاسلام عبادة مفروضة هى استعادة لقصة ابراهيم الذى كان أول من أسس مدينة مكة التى كانت أرضا فضاء مجدبة فترك فيها زوجه ومعها طفلها اسماعيل جد العرب كما أمره الله ، ودعا ابراهيم ربه أن يعمر لهما هذا المكان بالناس ، ثم انصرف ، فاشتد العطش بالطفل فأخذت أمه تهرول

(١) ٢٠ سورة الحديد ٠ (٢) ١٠ سورة الحجرات ٠

بين هضبتى الصفا والمروة لعلها ترى ماء أو أحدا يدلها على ماء فلم تجد ، فعادت الى الطفل فوجدت بئر زمزم قد نبعت من الأرض عند قدميه ، والماء فى الصحراء لندرته يجذب الناس ، فبدأ تكوين مكة حول هذه البئر ، ثم عاد النبى ابراهيم وبنى الكعبة مع ابنه اسماعيل ، ثم أراد أن يمتحنه امتحانا عسيرا ، فرأى فى المنام أن الله يأمره أن يذبح ابنه اسماعيل بيده ، فعزم على التنفيذ ، ورحب ابنه بتنفيذ أمر الله ، وعند التنفيذ أوحى الله اليه أنه بعزمه على التنفيذ قد لبى ما أراده الله من اختباره ·

ودعوة ابراهيم المشار اليها هى (ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات) (١) وهى تتضمن أمنيته أن يتوافد الناس على هذا المكان ، فكان حج الناس الى هذا المكان حتى قبل الاسلام استجابة من الله لدعاء ابراهيم ، وحين يذهبون الى هناك يستعيدون أهم مشاهد قصة آل ابراهيم ، كتعظيم بيت الله الذى بناه ابراهيم واسماعيل (واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم) (٢) ، وكالسعى بين الصفا والمروة كما فعلت أم اسماعيل ، وكنحر ذبيحة اشارة الى فداء اسماعيل من الذبح ·

ولكن يجب أن يكون واضحا أن الاسلام يجعل أداء الحج عبادة تمثل طاعة الله وحده ، ولا ارتباط بينها وبين قصة ابراهيم ، بمعنى أن المسلم يجب أن يتمثل فى نفسه عند الحج أنه يؤدى أعمال الحج طاعة لله وتقربا اليه ، دون النظر الى أى معنى تاريخى أو غيره ، فهى مناسك أمر الله بها ، وبين النبى كيفية أدائها عمليا حين حج ، فعلى المسلم أداؤها بهذا التوجه ·

زمن الحج :

هناك يوم واحد معين هو التاسع من شهر ذى الحجة لابد أن يتواجد فيه الحجاج فى عرفة ، فالوقوف بعرفة لابد أن يكون فى هذا اليوم ، وما عدا ذلك من أعمال الحج لا يرتبط بيوم ، وأعمال الحج تكون فى شهور شوال وذى القعدة وذى الحجة من كل عام ·

أركان الحج :

والأعمال الأسس التى يجب على الحاج أن يؤديها فى الحج أربعة :

---

(١) ٣٧ سورة ابراهيم ·

(٢) ١٢٧ سورة البقرة ·

١ ـ الاحرام ٠
٢ ـ الطواف حول الكعبة ٠
٣ ـ السعى بين الصفا والمروة ٠
٤ ـ الوجود بعرفة ٠ .

وهذا تعريف موجز بأهم ما تتطلبه هذه الأركان :

الاحرام :

هو نية البدء فى الحج ، فاذا اتجه المسلم الى الحج من أى مكان فى العالم فهناك أماكن معينـــة حول مكة تبعد عنهـا بضـــع عشرات من الكيلومترات ، كل منهـــا يسمى (الميقـــات) وعلى كل قادم الى الحج ألا يتجاوز الميقات الذى من جهته الا وهو محرم ، ولو كان فى طائرة أحرم وهو فيها ، وهذه الأماكن هى للقادم من مصر والشام والمغرب كله قرية الجحفة ، بين مكة والمدينة ، سواء مر بهـا برا أو حاذاها بحرا ، وللعراق وما وراءه من المشرق قرية ذات عرق ، ولأهل المدينة ذو الحليفة ، ولأهل اليمن والهند وما وراءهما يلملم ، ولأهل نجد جبل قرن ، وأهم ما يجب أن يفعله الرجل حينئذ أن يتجرد من كل ثياب فيهـا خياطة ، ويكتفى بوشاحين يفضل فيهما اللون الأبيض يلف أحدهما حول نصفه الأسفل ، ويتشح بالآخر على كتفيه أو أحدهما (والمرأة تظل بملابسها المعتـادة كاملة) ، ويظل هكذا حتى يدخل مكة فيطوف بالكعبة ويسعى بين الصفا والمروة وهما قرب الكعبة ، ويمكن بعـــد ذلك أن يتحلل من لبـــاس الاحرام ٠

والمحرم يجب أن يمتنع عن مزاولة الصلة الجنسية فى أثناء الاحرام ، وكذلك الدخول فى خصومة ، وأيضا الصيد البرى ، واستعمال الطيب ، والملابس المخيطة ، وفى القرآن (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) (١) ، والأشهر المعلومات هى شوال وذو القعدة وذو الحجة ، والرفث التمتع بالنساء ، والفســوق كل معصية لله ، والجدال الخصومة ٠

الطواف :

هو السعى حول الكعبة دورة كاملة ســـبع مرات ، والطواف هو تحية الكعبة بوصفها رمزا لبيت الله ، وحقيقته أنه طاعة لأمر الله ، وعلى

(١) ١٩٧ سورة البقرة ٠

المؤمن أن يؤديه ولو لم يفهم حكمته ، كما يطيع الجندى أمر قائده ولو لم يعرف فائدته ، وفى القرآن (وليطوفوا بالبيت العتيق) (١) . وأهم أنواع الطواف فى الحج الطواف المعروف بطواف الافاضة ، وهو الذى يبدأ وقته من طلوع الفجر يوم العاشر من ذى الحجة .

السعى بين الصفا والمروة .

الصفا والمروة هضبتان صغيرتان ملحقتان بالمسجد الحرام الذى تتوسطه الكعبة ، ومن أركان الحج أن يسعى الحاج بينهما سبع مرات ، ولابد أن يسبقه الطواف حول الكعبة ، وفى القرآن (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) (٢) ، ومعنى (اعتمر) أراد العمرة ، وهى الطواف حول الكعبة ثم السعى بين الصفا والمروة مع الاحرام كالحج ، والفارق بينها وبين الحج أن الحج مرتبط بوقت معين أما العمرة فيمكن أداؤها فى أى وقت من السنة .

الوجود فى عرفة :

أهم مناسك الحج وجود الحاج على أرض عرفة – قرب مكة – ولو لحظة يوم التاسع من ذى الحجة ، فالأركان الأخرى يمكن أن تؤدى فى أى وقت خلال أشهر الحج ، أما الوجود فى عرفة فلابد أن يكون فى هذا اليوم ، ويترتب على ذلك أن يوجد جميع الحجاج فى ذلك اليوم فى هذا المكان .

وهناك واجبات أخرى من المناسك على الحاج أن يؤديها ، ولكنها أقل أهمية من الأركان السابقة ، واذا قصر فى أداء أحدها يمكن أن يذبح ذبيحة يتصدق بها فتغنى عنه ، وهذه الواجبات ثلاثة ، رمى الحصى ، والمبيت بمنى ، والوجود بمزدلفة ، بالصورة والتفاصيل المعروفة فى الحج .

ومنى ومزدلفة مكانان من ضواحى مكة ، وأما رمى الحصى ويسمى أيضا برمى الجمرات فهو أن يرمى الحاج سبع حصيات صغيرة كل يوم لمدة أربعة أيام تبدأ من يوم العيد الذى هو يوم العاشر من ذى الحجة ، يقذف كلا منها فى المكان المخصص للرمى قرب مكة ، ورغم أن هذا العمل وغيره من مناسك الحج عبادات يطلب من المسلم أداؤها طاعة لله كما أمر ، ولو لم تتضح له الحكمة فيها ، الا أن الروايات المأثورة تروى أن رمى الحصى هو استعادة لقصة النبى ابراهيم حين أمره الله بذبح ابنه ، فأخذ

---

(١) ٢٩ سورة الحج .

(٢) ١٥٨ سورة البقرة .

الشيطان يستثير فيه عاطفة الأبوة ليصده عن تنفيذ أمر الله ، ويحاول أيضا مع الابن وأمه ، فيرجمه ابراهيم بالحجارة ، فيعود فى اليوم التالى للمحاولة نفسها فيرجمه ، وهكذا ، ولهذا كان الشائع بين عامة المسلمين عن رمى الحصى فى الحج أنه رجم ابليس .

وفى النظرة الى أعمال الحج بصفة عامة تبرز نتيجة ذات أهمية من الناحيتين الروحية والاجتماعية ، وهى أن أهم ثمرات الحج أن المسلم من بدء مناسك الحج عند الاحرام حتى نهاية الحج يتمثل بقدر الامكان انسلاخه من الدنيا ، وأنه يعيش كل وقته فى رحاب الله ، طائعا لله ، منصرفا عن أى لهو ، أو أى شىء يقطع عليه اتصاله الروحى بربه ، وحينئذ ستصغر الدنيا ومظاهرها فى عينيه ، وحين يستعرض ماضى حياته وهو فى هذا الانغماس الروحى المتواصل سيندم على كل ما صدر منه من عصيان أو تقصير ، وهذا الشعور نفسه توبة الى الله ، ولذلك جاء فى الحديث النبوى (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) .

هذا من الجانب الروحى ، وأما الجانب الاجتماعى فان الحج يحفل فيه بفوائد كثيرة لمن يؤديه على وجهه الصحيح ، ومن ذلك تدريب النفس على التحلى بفضائل الخلق الاجتماعى ، ومنه الصبر على الأذى ، واحسان العشرة مع الغير بتجنب كل ما يثير الخلاف والشقاق ، ولذلك كان الجدال فى الحج ممنوعا ، كما فى القرآن (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج) (١) والحج يلتقى فى هذا الهدف مع الصوم ، فمن الأحاديث النبوية عن الصوم فى هذا (الصيام جنة فلا يرفث ولا يفسق ، وان خاصمه أحد أو شاتمه فليقل انى صائم) (٢) .

ومن هذا يتضح أن الحج الصحيح يجمع كل العبادات ، فالحج يشبه الصلاة بما فيه من صلة روحية بالله ، ويشبه الزكاة بما فيه من تضحية مالية وانفاق فى سبيل الله أدناه وجوب ذبح ذبيحة يطعمها الفقراء ، ويشبه الصوم بما فيه من سيطرة على النفس وكبح لشهواتها وانفعالاتها .

---

(١) ١٩٧ سورة البقرة .

(١) الجنة بضم الجيم : الدرع التى يلبسها المقاتل لتحميه من الطعنات ، والرفث : التمتع بالنساء ، والفسوق : العصيان .

الجانب الاجتماعى

المجتمع فى الاسلام ثلاث حلقات متداخلة ، هى :

١ ـ الأسرة ٠

٢ ـ المجتمع المحلى الذى يتعامل معه الفرد مباشرة ٠

٣ ـ الأمة ، وهى تشمل المجتمع الاسلامى كله بوصفه أمة وليس أفرادا ٠

وكل حلقة من هذه الحلقات الثلاث رغم تشابكها مع الحلقتين الأخريين لها تشريع خاص فى الاسلام ٠

الأسرة

تتكون الأسرة فى أحوالها العادية من الزوجين وأولادهما ، ويركز الاسلام كما فى كل الأديان على أن تكون العلاقة بين أفراد الأسرة فى أحسن صورها العاطفية والخلقية ، فيجعل العلاقة بين الزوجين تقوم على المودة والحب ، ففى القرآن الكريم (ومن آياته أن خلق لكل من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمـــة) (١) ويجعل علاقة الأولاد بالوالدين فى أسمى صور الوفاء والبر ، حتى يجعل البر بالوالدين تاليا لعبادة الله ، فيتكرر فى القرآن مثل (وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا) (٢) والوالدان لا يحتاجان الى توصية بأولادهما ، ولكن القرآن يشير الى أن الأب ينبغى أن يكون موجها ومرشدا معلمـا لأولاده ، ويضرب فى ذلك مثالا بلقمان الذى أوصى ابنه وصية جامعة لكل الجوانب الدينية والخلقية والاجتماعية (٣) كما أن فى الأحاديث النبوية

---

(١) ٢١ سورة الروم ٠ (٢) ٢٣ سورة الاسراء ٠

(٣) سورة لقمان الآية ١٣ وما بعدها ٠

حثا للآباء على العدل بين الأولاد ، كما فى حديث النعمان بن بشير الأنصارى الذى جاء أبوه الى النبى (ص) ليشهده على أنه خص النعمان بوصية دون باقى أولاده ، فرفض النبى قائلا (لا أشهد) وفى رواية (لا أشهد على ظلم) ٠

الزواج

هو اللبنة الأولى فى تكوين الأسرة ، والخطوة الأولى فى الزواج هى التأكد من عدم وجود مانع شرعى يمنع هذا الزواج ، وموانع الزواج فى الاسلام نوعان ، نوع دائم التحريم ، ونوع مؤقت التحريم ٠

التحريم الدائم

هناك أنواع من النساء يحرم زواجهن حرمة دائمة ٠ اما بسبب قرابة النسب ، واما بسبب قرابة المصاهرة ، واما بسبب الرضاع ٠

المحرمات من النسب :

١ ـ يحرم على الرجل أن يتزوج بامرأة من أصله أو فرعه فى القرابة ، فلا يجوز أن يتزوج أمه أو ابنته ٠

٢ ـ كذلك فروع الأبوين وما يتفرع عن فروعهما ، وهن الأخوات وبناتهن ، فلا يجوز زواج الأخت أو ابنة الأخت ، سواء أكانت أختا شقيقة ، أم أختا لأب فقط ، أو أم فقط ٠

٣ ـ كذلك فروع الأجداد والجدات ، وهن العمات والخالات ، فلا يجوز للرجل أن يتزوج عمته أو خالته ٠

المحرمات من المصاهرة :

١ ـ زوجة الأب ، فلا يجوز زواج امرأة الأب اطلاقا ، سواء طلقها الأب أو مات عنها ، لأنها تصبح بمثابة الأم ٠

٢ ـ زوجة الابن ، لأنها بمثابة البنت ٠

٣ ـ أم الزوجة ، لأنها بمثابة الأم ٠

٤ ـ بنت الزوجة ، لأنها بمنزلة البنت ٠

المحرمات من الرضاع :

يحرم فى الاسلام الزواج بسبب الرضاع كما يحرم بسبب النسب، بمعنى أن الطفل حين يرضع من امرأة غير أمه ولو يضع رضعات تصبح هذه المرضعة أيا كانت كأنها أم حقيقية ، فلا يجوز أن يتزوجها هى أو أصولها أو فروعها أو غير ذلك مما يحرم من جهة أمه الحقيقية ، فابنة المرضعة تصبح أختا من الرضاع ، وأختها تصبح خالة من الرضاع ، وهكذا ٠

التحريم المؤقت

وهناك تحريم ليس لذاته ، وانما لسبب ، فاذا زال السبب زالت الحرمة ، فيحرم على الرجل من هذا القبيل :

١ ــ الجمع بين الأختين ، فاذا طلق الأخت جاز له زواج أختها بعد انقضاء العدة ، فالمحرم الجمع بينهما ، وكذلك يحرم الجمع بين كل امرأتين لو كانت احداهما رجلا لا يجوز له زواج الأخرى ، فيحرم الجمع بين البنت وعمتها أو خالتها ، لأن البنت لو كانت رجلا لا تحل له عمته أو خالته ، وكذلك العكس ، وهكذا ٠

٢ ــ يحرم زواج المسلم من المشركة ، وهى التى ليس لها دين سماوى . ويجوز له الزواج باليهودية والنصرانية ، لأن الاسلام لا يعترف الا بالدين اليهودى والدين المسيحى ، وأما المرأة المسلمة فلا يجوز لها الزواج بغير المسلم ، لأن الزوج له ولاية على الزوجة ، وولاية غير المسلم عليها فيها خوف على اسلامها واسلام أولادها ، وليس كذلك زواج المسلم من اليهودية أو النصرانية ، لأنها ليست لها ولاية عليه ، وقد رضيت هى بهذا الزواج ٠

والقرآن الكريم يجمع المحرمات فى قوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفورا رحيما ، والمحصنات من النساء) (١) وعن تحريم الزواج بالمشركة (ولا تنكحوا

---

(١) ٢٢ ما وبعدها سورة النساء ٠

المشركات حتى يؤمن) (١) لأن الشرك عدو للاسلام ولكل دين سماوى ، فالمشركة عدو ، فهى غير مأمونة الجانب لا على زوجها المؤمن ، ولا على أولاده ٠

شروط الزواج

أهم الشروط التى لابد منها فى الزواج فى الاسلام :

١ ــ الاتفاق بين الطرفين بالموافقة الصريحة على الزواج ٠

٢ ــ العلانية بأن يكون هناك شهود على هذا الزواج بالشهادة الشرعية ، لأن الزواج صلة اجتماعية علنية ، والسرية من طبيعة العلاقات غير المشروعة ٠

٣ ــ وجود المهر ، وهو قدر من المال غير محدد يدفعه الزوج ، وهذا المال ليس مهما فى ذاته أو فى حجمه ، وانما المهم أنه تكريم للمرأة ، واشارة الى أنها مرغوب فيها ، وأن الرجل لم يحصل عليها الا بعد أن ضحى بمقابل ٠

العلاقة الزوجية

العلاقة الصحيحة بين الزوجين تقوم على المودة والألفة ، فكل منهما يكمل حاجة نفسية وجسدية للآخر ، وفى تعبير القرآن (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) (٢) وفى دقة هذا التعبير اشارة الى أنه رغم اشتراكهما فى ايجاد ما يحقق حسن الصلة بينهما الا أن التودد ينبغى أن يكون واضحا من جانب الزوج ، والرحمة التى هى عنوان العاطفة والحنان ينبغى أن تكون واضحة من جانب الزوجة ، ليتناسب هذا مع الترتيب بين كلمة أنفسكم التى تقابلها فى الآية المودة ، وكلمة أزواجا التى تقابلها الرحمة ٠

ولكن الزواج عقد بين طرفين يشتركان فى الحياة الزوجية ، وهذا العقد يتضمن حقوقا وواجبات تجاه الطرفين ٠

---

(١) ٢٢١ سورة البقرة ٠ (٢) ٢١ سورة الروم ٠

حقوق الزوج

أهم حقوق الزوج فى الاسلام :

١ ـ الولاية على الأسرة ، ولا يقصد بالولاية مفهوم السلطة ، وانما يقصد به مفهوم الادارة ، فالأسرة مجتمع صغير ، بل هى صورة مصغرة للمجتمع الكبير ، وتحتاج فى ادارتها ما يحتاجه المجتمع من سياسة واقتصاد وتخطيط وتعليم وتشريع تنظيمى وغير ذلك ، وقد قيل ان من يستطيع أن يقود أسرة يستطيع أن يقود أمة ، فلابد للأسرة كأى شركة أو عمل من (مدير) مسئول ، ومن المعروف أن الرجل على المستوى العام أقدر على الادارة من المرأة ، فالوضع الطبعى أن يكون للأسرة مسئول يديرها ، وأن يكون المدير هو الرجل ، وهذا معنى ولاية الزوج على الأسرة بما فيها الزوجة ، وهذه الولاية ليست تشريفا للرجل ، وانما تحميله مسئولية تثقل على المرأة ، وهى مسئولية الانفاق على الأسرة ، حيث يترتب على ولاية الرجل مسئوليته الكاملة عن الانفاق على الأسرة ورعايتها ، فالزوجة مهما كانت تملك من المال فليست مسئولة اطلاقا عن الانفاق على نفسها أو على الأسرة ، وانما المسئولية على الزوج وحده ، فولاية الرجل على الأسرة تنبع من سببين ، كونه بطبيعته أصلح للادارة ، وكونه أقدر على تحمل عبء الانفاق والرعاية ، والقرآن يجمع السببين فى قوله (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) (١) .

٢ ـ تعدد الزوجات :

فمن حق الرجل فى الاسلام أن يجمع فى عصمته أكثر من زوجة ، بحد أقصى أربع زوجات ، وقد يبدو هذا التشريع لبعض الناس فى ظاهره غريبا ، ولكن النظرة الى واقع الأمر تكشف فيما تكشف عما يأتى :

(أ) بعض الرجال لا يكتفى الواحد منهم بزوجته ، فيميل الى معاشرة غيرها ، والزنا فاحشة كبرى فى كل الأديان ، والاسلام فى كل تشريعه يهدف الى عدم كبت الغرائز والنزعات البشرية الطبعية ، وانما يوجد لها ، متنفسا مشروعا ، فكان تشريع تعدد الزوجات هو المتنفس للنزعات غير العادية لدى بعض الرجال .

(ب) اذا كان الزواج الثانى للرجل يترتب عليه بعض الايذاء النفسى للزوجة الأولى فلا شك أن فيه منفعة لامرأة أخرى هى الزوجة الثانية ، فقد تكون فى حاجة الى رجل يحميها معيشيا أو جنسيا أو اجتماعيا

---

(١) ٣٤ سورة النساء .

أو نفسيا ، ولولا هذا ما قبلت الزواج برضاها من رجل متزوج ، وهـذا أيضا دليل على أن طبيعة المرأة لا تتعارض مع تعدد الزوجات .

(جـ) من المشاهد التى قد تتكرر فى كل العصور حدوث خلل فى بعض المجتمعات فى التوازن العددى بين الذكور والاناث ، كآثار الحروب ، حيث يقل الرجال ويزيد عدد النساء عنهم ، وهذه الأعداد الزائدة من النساء فى حاجة طبعية معيشيا ونفسيا الى رجال ، فاذا لم يوجد تشريع تعدد الزوجات فان بعض النساء سيضطررن اما الى حياة الحرمان أو الذل أو الفساد ، وبما أن التشريع الاسلامى عام لكل الأزمان والمجتمعات فلابد أن يتضمن حلا لهذا الواقع ، فكان الحل هو اباحة تعدد الزوجات .

(د) للمحافظة على حق الزوجة الأولى يؤكد القرآن الزام الزوج أن يعدل ، والعدل يقتضى حقها فى المعاشرة الزوجية الجنسية ، وفى الانفاق عليها ، بالاضافة الى الحق الأصلى وهو حسن العشرة خلقيا ومعيشيا ، فان ظلمها الزوج فى أحد هذه الحقوق فلها أن تلجأ الى القضاء لالزام الزوج أن يوفيها حقوقها أو يطلقها .

وفى القرآن الكريم (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة) (١) .

٣ ـ الطـلاق :

فمن حق الرجل طلاق زوجته ، وتشريع الطلاق أثر من آثار منهج الاسلام فى أنه لا يكبت الغرائز والنزعات البشرية الطبعية وانما يوجد لها متنفسا مشروعا ، فالحب والكراهية من المشاعر البشرية التى تتسلط على الانسان وتوجه سلوكه فى كثير من الأحيان ، وحين تستحكم الكراهية بين زوجين يكون من الضرر البليغ بكل منهما أن يعيشا معا تحت سقف واحد ، بل فى فراش واحد ، والمتنفس المشروع حينئذ هو الطلاق ، ولكن الطلاق رغم اباحته فى الاسلام محاط بملابسات عديدة منها :

(أ) التنفير الشديد من اللجوء اليه الا حينما تفشل كل محاولات التوفيق بينهما ، ومن المشهور فى الاسلام (أبغض الحلال الى الله الطلاق) ويشير القرآن الى أن الرجل يخطىء عندما يكره زوجته فيعتقد خلوها من المزايا ، فلا يخلو انسان عادة من مزية ، والكراهية دليل على عدم التوافق وليست دليلا على فقدان المزايا ، ففى القرآن (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) (٢) وكثيرا

---

(١) ٣ سورة النساء .

(٢) ١٩ سورة النساء .

ما تسعد المطلقة مع زوج آخر يجد فيها مزايا لم يشعر بها الزوج الأول ، وكذلك العكس فى كراهية المرأة لزوجها ٠

(ب) يلجأ التشريع الاسلامى الى أكثر من وسيلة لمحاولة التوفيق بين الزوجين تفاديا للطلاق ، ومن ذلك أن القرآن يشرع مرحلة تسبق الطلاق وهى التحكيم بين الزوجين ، بأن يختار كل منهما حكما يرتضيه ، فيعمل الحكمان على معالجة الخلاف ، ففى القرآن (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكمـــا من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصـــلاحا يوفق الله بينهما) (١) ومن هذه الوسائل أن الاسلام ينفر من الطلاق المفاجىء ، فهو بغيض فى الاسلام ، لأنه كثيرا ما يكون وليد غضب أو انفعال وقتى يمكن أن يزول فيما بعد ، والطلاق المفاجىء يسمى طلاق البدعة لأنه مخالف للسنة ، أما الطلاق المرضى عنه ويسمى طلاق السنة فهو أن الرجل حينما يعزم على الطلاق بعد استنفاد الوسائل الودية فعليه أن يطلقهـــا ثلاث طلقات فى ثلاثة أشهر متواليات ، كل شهر طلقـــة ، دون أن يعاشرها معاشرة الأزواج فى أثناء هذه الأشهر ، ليكون هذا دليلا على عدم امكان عودة الود بينهما ، فان عاشرها جنسيا خلال هذه المدة كان هذا من حقه وتعود الزوجية بينهما ، والا فعند الطلقة الثالثة تحرم عليه ٠

(ج) حق الطلاق ليس مقصورا على الرجل ، بل من حق المرأة أن تشترط عند عقد الزواج أن تكون العصمة بيدها ، فاذا قبل الزوج ذلك كان من حقها أن تطلق زوجها متى شاءت ٠

حقوق الزوجة

وللزوجة أيضا حقوق محددة فى التشريع الاسلامى ، أهمها :

١ ــ حرية الرأى فى الزواج ، فاذا أكرهت على الزواج ، أو على شخص ترفض الزواج به فالزواج باطل ، ومعنى ذلك أنها متساوية مع الزوج فى الاختيار ، من حيث ان كلا منهمـــا وافق على الزواج بالآخر باختياره ٠

٢ ــ استقلال ملكيتها ، فكل ما تملكه الزوجة من ملكية خاصة بها هو حق يخصها وحدها ، وليس من حق الزوج أن يأخذ منه أو يتصرف فى شىء منه قط الا برضاها ، ومن ملكيتها الخاصة المهر الذى يدفعه اليها الزوج عند الزواج ، فيصبح ملكا خاصا بها ، وفى القرآن (٠٠ وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا واثما مبينا) (٢)

(١) ٣٥ سورة النساء ٠ (٢) ٢٠ سورة النساء ٠

ولا تطالب الزوجة بالانفاق على نفسها أو على الأسرة من ملكهـــا مهما بلغ ، لأن الانفاق مطلوب من الزوج ·

٣ ــ حسن المعاشرة ، فمن حقها على زوجهـــا أن يعاشرها معاشرة حسنة ، وفى القرآن الكريم (وعاشروهن بالمعروف) (١) والمعروف معناه العشرة المرضية حسب العرف السائد فى المجتمع ، وحسن المعاشرة يتضمن حقوقا محددة للزوجة أهمها :

(أ) أن يعاملها الزوج معاملة حسنة بخلق مقبول ·

(ب) أن يعاشرها معاشرة الأزواج ، ولا يهجرها هجرا مطلقـــا من الناحية الجنسية ·

٤ ــ أن ينفق عليها الزوج بتهيئة السكن والمعيشة المناسبة لمقدرته هو ، بصرف النظر عن أن يكون لها مال أو لا ، وفى القرآن (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) (٢) ·

٥ ــ اذا أخل الزوج بأى حق من حقوقها السابقة كلها ، وتضررت هى بذلك فلها أن تلجأ الى القضاء لتطلب الطلاق ، وعلى القاضى اذا اقتنع بتضررها ولم يمكن اصلاح مصدر التضرر أن يحكم لها بالطلاق ·

الميراث

الذين يدخلون فى نطاق التوارث فى الأحوال العـــادية هم أفراد الأسرة ، وحيث كان الميراث حقا للوارث يستفيد به فقد جعل له الاسلام مقابلا هو النفقة ، بمعنى أن الابن مثلا من حقه أن يرث أباه اذا مات ، وفى مقابل هذا يجب أن ينفق على أبيه فى حياته اذا احتاج ، وكذلك كل من له حق الميراث منهم ·

وقد وضع الاسلام تشريعا كاملا للميراث يشمل كل الحالات المحتملة ، وذلك فى نظام ثابت محدد ، وفيما يتعلق بالأسرة التى هى مدار هـــذا الحديث نجد القواعد الآتية :

١ ــ يشجع الاسلام الشخص على أن يترك لأسرته ميراثا يغنيها عن الحاجة الى الناس ، ولذلك حينما يريد شخص أن يوصى بماله ليصرف فى وجوه الخير بعد موته لا يجيز له الاسلام أن يوصى الا بثلث ماله على الأكثر ، ليبقى الثلثان حقا للورثة ·

---

(١) ١٩ سورة النساء ·

(٢) ٦ سورة الطلاق ·

٢ ـ من القواعد العامة فى الميراث أن الأنثى لها نصف الذكر ، وليس هذا ظلما لها ، بل ان النصف الذى تحصل عليه قد يكون فى أغلب الأحيان خيرا من النصيب الكامل للذكر ، لأن الاسلام رفع عن كاهل الأنثى فى كل أحوالها أعباء المعيشة والاحتياج ، لأنها قبل الزواج تكون نفقتها واجبة على أبيها مهما كبرت ، لأنه ولى أمرها ، والولاية ميزة معنوية ، فكانت فى مقابلها مسئولية النفقة على الولى ، فان مات أبوها ولم يترك لها مالا يكفيها تجب نفقتها على أقرب الرجال اليها قرابة ، كالأخ ثم العم حتى تتزوج أو تموت ، لأن الولاية انتقلت اليه ، فتنتقل معها مسئولية النفقة ٠

وهذا بخلاف الابن ، فانه لا تجب نفقته على أحد حين يبلغ سن الرشد ويكون قادرا على الكسب ٠

وحين تتزوج البنت تنتقل الولاية الى زوجها فتنتقل معها مسئولية النفقة ، فمهما كانت هى غنية وهو فقير فنفقتها واجبة عليه فى حدود حالته المالية ، فان أسهمت عن طيب نفس فهذا تطوع منها ٠

ومن هذا يتضح أن حصولها على النصف فى الميراث دون أعباء ليس انتقاصا من حقها ، لأنها سواء قبل الزواج وبعده لا تحمل عبء معيشتها ٠

٣ ـ اذا ماتت الزوجة ولم يكن لها أولاد فان الزوج يرث النصف مما تترك ، فان كان لها أى أولاد فللزوج الربع مما تترك ، واذا مات الزوج ولم يكن له أولاد فان الزوجة ترث ربع تركته ، فان كان له أى أولاد ترث الثمن ، وهذه الأنصبة من الأنصبة الثابتة فى الميراث وتسمى الفروض ٠

٤ ـ الأولاد يقتسمون فيما بينهم ما يبقى بعد الفروض السابقة وغيرها بحيث يكون للذكر منهم ضعف الأنثى ٠

المجتمع المحلى

والمراد به المجتمع المحيط بالفرد ، والذى يتعامل معه مباشرة ، وطبيعة العلاقات بين هذا المجتمع كما يدعو اليها الاسلام تقوم على أسس واضحة من أهمها :

أسس التضامن الاجتماعى ·

أولا : ينبغى أن تقوم العلاقات بين أفراد المجتمع من الناحية الاجتماعية على رابطة نفسية عميقة وثابتة ، هى رابطة الايمان ، والعلاقات المعروفة نوعان ، علاقة دائمة ، وهى علاقة النسب ، وعلاقة عارضة ، وهى علاقة المصالح والظروف الطارئة ، فالدين يجعل علاقة الايمان من النوع الدائم ، لأن الرابطة وهى العقيدة يفترض فيها أنها دائمة ، فهى تشبه علاقة النسب ، وفى القرآن (انما المؤمنون اخوة) (١) ويجعل القرآن هذه العلاقة أساسا يترتب عليه ما يترتب على علاقة أخوة النسب ، فالأخوة لذاتها ليست هدفا ، لأنها لا فائدة منها اذا لم يظهر أثرها فى التعامل ، بل قد تتحول الأخوة الى عداوة ··

ثانيا : يجب التعاون بين أفراد المجتمع فى كل ما تتطلبه مصلحة المجتمع ، كما يحرم التعاون فيما ينتج عنه ضرر ، وفى القرآن (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٢) فوجوب التعاون على ما فيه مصلحة ، وتحريم عكسه ، يتحقق سواء أكان الأمر يتعلق بالمجتمع كله أم ببعضه ·

---

(١) ١٠ سورة الحجرات ·

(٢) ٢ سورة المائدة

ثالثا : مراعاة الخلق الاسلامى فى التعامل وفى الصلة بين أفراد المجتمع ، وهى جوانب كثيرة فى كل مجالات التعامل والصلة ، ومنهـا الآداب العامة ، التى تتضمن على سبيل المثال وجوب رد التحية عنـد اللقاء ، وفى القرآن الكريم (وإذا حييتم بتحيـة فحيوا بأحسن منهـا أو ردوها) (١) ومن أمثلتها وجوب الاستئذان عند دخول أى بيت للغير ، وفى القرآن (٠٠ لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (٢) وحتى فى الطعام ، من آداب الأكل مع الغير كما فى الحديث النبوى (سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك) ٠

رابعا : يخص الاسلام نوعين من أفراد المجتمع يجعل حسن الصلة بهما حقا لهما وليس تفضلا عليهما ، وهما قرابة الأرحام ، والجيران ، لأنهما يمثلان الصلة الملاصقة ، وفى القرآن (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسـانا وبذى القربى واليتـامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل) (٣) وفى كثير من الأحاديث النبوية بيان لحقوق هذين النوعين ٠

أسس التضامن الأمنى :

الحاجات الضرورية لأفراد أى مجتمع تنحصر فى أمرين ، أحدهما الأمن النفسى ، والآخر الأمن المعيشى ، فالأمن النفسى أن يشعر الفرد بالأمن على نفسه وعرضه وماله ، والأمن المعيشى أن يشعر بالأمن على وسائل معيشته وأهمها الطعام ، والقرآن الكريم يجمع الأمرين فى سياق المن على قريش ، فى قوله (أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٤) ٠

والاسلام يضع تشريعا مفصلا وأحـكاما محددة كأحكام العقوبـات فيما يتعلق بالأمن النفسى ، وأحكام الزكاة فيما يتعـلق بالأمن المعيشى لتحقيق هذه الغاية فى المجتمع ، ولكنه يدعو الى أن يعمل أفراد المجتمع أنفسهم على تحقيق هذه الغـاية بوازع دينى وليس بوازع قانونى ، لأن الوازع الدينى أدوم وأعم وأشد اخلاصا فى التطبيق ٠

١ ـ فأما عن التضامن المعيشى بين أفراد المجتمع فان من جوانبه أن الزكاة وهى ركن من أركان الاسلام تؤدى معنى التضامن الاجتماعى ، والقرآن يكرر أنها ليست تفضلا من المزكى ، وانما هى حق للمحتاجين من أفراد المجتمع ، كقوله تعالى (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل

(١) ٨٦ سورة النساء ٠ (٢) ٢٧ سورة النور ٠
(٣) ٣٦ سورة النساء ٠ (٤) سورة قريش ٠

والمحروم) (١) ، وبالاضافة الى ذلك نجد فى الاسلام دعوة صريحة وواضحة الى التضامن المعيشى بين الأفراد فى كثير من الأحاديث النبوية مثل (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ومثل (أيما أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله) ومثل (لا يشبع الرجل دون جاره) .

وقد طبق المسلمون الأوائل هذا التضامن كما حدث فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عند الهجرة ، فلم يكن المهاجرون الوافدون الى المدينة يملكون شيئا ، فضم كل أنصارى شخصا من المهاجرين وقاسمه كل ما يملك ، ولذلك نجد فى الاسلام دعوة ملحة الى الانفاق فى سبيل الله زيادة عن الزكاة المفروضة ، وقد وردت فى ذلك أحاديث نبوية كثيرة مشهورة .

٢ ـ وأما عن التضامن فى الأمن النفسى فان الاسلام يجعل كل فرد فى المجتمع مسئولا عن حماية هذا الأمن ، ومطالبا ببذل كل جهده المستطاع لمنع أى شىء يخل بهذا الأمن ، بل بمنع أى انحراف عن السلوك المشروع من أى شخص مهما يكن وضعه فى المجتمع ، لأن أى انحراف لابد أن يكون فيه اضرار بالغير ، أو تهديد لأمن الغير على نفسه أو عرضه أو ماله ، والمنحرف بطبيعته غير مأمون الضرر ، ووجود منحرفين فى المجتمع يتضمن تهديدا لأمن أفراد المجتمع على أنفسهم أو على ما يتعلق بهم ، والانحراف عن السلوك المشروع يوصف بأنه (منكر) والمنكر كل أمر محرم ، بمعنى أن التشريع ينكره .

ومقاومة المنكر والنهى عنه مسئولية كل أفراد المجتمع الذين يستطيعون مقاومته ، كما يؤكد ذلك القرآن والأحاديث النبوية ، ففى القرآن الكريم (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) وأيضا (أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) (٣) وفى الحديث الشريف المشهور (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) .

ولو أن تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر طبق تطبيقا صحيحا لتحقق المجتمع المثالى الذى تحلم به البشرية ، لأن الأمر بالمعروف يتضمن

---

(١) ٢٤ وما بعدها سورة المعارج . (٢) ١٠٤ سورة آل عمران .
(٣) ١٧ سورة لقمان .

الأمن المعيشى ، والنهى عن المنكر يتضمن الأمن النفسى ، وقد استطاع الجيل الأول من المسلمين الذين تتلمذوا على يد النبى صلى الله عليه وسلم أن يطبقوه ، فكونوا مجتمعا يشهد له التاريخ بسيطرة الفضائل الخلقية على سلوكه ، ونلحظ أن القرآن حينما شهد لهم بأنهم خير أمة حدد سببا واحدا غير العقيدة ، وجعله سابقا لها ، وهو التزامهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حيث يقول (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١) وتقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى الآية اشارة الى أن النهى عن المنكر مع الأمر بالمعروف أجدى فى اصلاح المجتمع من الايمان السلبى ، من باب الحكمة الاسلامية المأثورة ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

واذا نظرنا الى الحديث النبوى السابق عن النهى عن المنكر ، وأخذنا أضعف وسيلة فيه وهى النهى بالقلب ، نجد أنها كافية لتحقيق الأمن النفسى فى المجتمع وحمايته من وسائل الانحراف ، وان كانت بطيئة الأثر أحيانا ، وذلك أن التطبيق الصحيح للنهى بالقلب هو معاملة مرتكب المنكر معاملة انفعالية ظاهرة ، لأن القلب رمز للحب وللكراهية ، ومؤدى النهى عن المنكر بالقلب أن يشعر مرتكب المنكر بكراهية أفراد المجتمع له ونفورهم منه ، وأن تظل هذه المشاعر من الجميع واضحة نحوه ، ولا يستطيع شخص فى العادة أن يتحمل بصفة دائمة الشعور بأنه مكروه ومنبوذ من المجتمع كله ، فحينئذ اما أن يقلع عن المنكر ، واما أن يغادر هذا المجتمع ، وفى كلا الحالين صلاح للمجتمع .

وهذا ما يهدف اليه الاسلام من تشريع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأما أمن أفراد المجتمع على أعراضهم وكرامتهم وسمعتهم فقد فرض الاسلام لحمايته عقوبات صارمة تعرف بالحدود ، كحد الزنا ، وحد القذف ، وكذلك شرع ما يعرف بالتعزير ، وهو العقوبة التى يحددها ولى الأمر أو القاضى فيما لم ترد فيه عقوبة محددة فى التشريع ، وسيأتى حديث خاص بالعقوبات .

ومن هذا يتبين أن الاسلام يجعل التضامن الأمنى والمعيشى بين الأفراد فى المجتمع ليس خلقا كماليا اختياريا ، وانما هو واجب اجتماعى مما يعرف فى التشريع الاسلامى بفرض الكفاية الذى يجب على المجتمع

---

(١) ١١٠ سورة آل عمران .

كله أن يؤديه ، ولكن اذا آداه البعض سقط عن الكل ، فاذا لم يؤده البعض أثم الجميع ، وفوق هذا اذا قصر أفراد المجتمع فى أداء هذا الواجب فان الاسلام يبيح لمن بيده السلطة أن يفرضه فرضا حسبما يقتضى الحال ، ومن المأثور عن عمر بن الخطاب فى خلافته قوله : لو استقبلت من عمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فجعلتها للفقراء ، والفضول الزائدة عن الحاجة ٠

وهذه الأسس التى يضعها التشريع الاسلامى ليبنى عليها المجتمع تكفل للمجتمع الذى يقام عليها ـ فضلا عن أمنه واستقراره ـ أن يظل متمتعا بقوة البنيان وصلابة التماسك طالما تمسك بهذه الأسس ، حيث نلحظ فى هذه الأسس الطابع الاجتماعى الاصلاحى والحضارى قبل الطابع الدينى ، بعكس الفرد ، فالفرد والمجتمع كلاهما فى حاجة الى العنصرين ، الايمان النفسى ، واستقامة السلوك وتنظيمه ، ولكن الفرق بينهما فى الترتيب ، فالفرد أحوج الى الايمان والقيم أولا ، ثم السلوك لأنه يتأثر بالعامل الأول ، أما المجتمع فهو أحوج أولا الى استقامة السلوك وتنظيمه ، ثم الاهتمام بالقيم النفسية والروحية ، ولعل من أوضح أسباب هذا الافتراض الواقعى بأن جانب التخلى عن المبادىء والقيم فى المجتمعات يكون عادة أقوى من التمسك بها ، ونلمح هذا الفرق فى الترتيب بين الفرد والمجتمع فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فهو مثلا حينما يتحدث عن الفرد يقدم الجانب الروحى فيقول (٠٠ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) (١) وحينما يتكلم عن المجتمع والأمة يقدم جانب السلوك فيقول (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٢) ٠

أسس التضامن الاقتصادى :

يدور التشريع الاقتصادى فى الاسلام حول عاملين محددين ، أحدهما التشجيع على العمل والاستثمار ، والآخر المحافظة على روح الأخوة بحيث لا يطغى عليها حب المال ، والنتيجة ايجاد توازن بين الدعوة الى الانتاج والاستثمار ، والدعوة الى روح الاخاء والتعاون فى المجتمع ٠

ففى مجال الدعوة الى العمل نجد القرآن يكرر كثيرا نحو قوله تعالى (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلو من رزقه) (٣) والمراد بالمشى فى مناكب الأرض السعى فى أوجه العمل

(١) ١٧ سورة لقمان ٠
(٢) ١١٠ سورة آل عمران ٠
(٣) ١٥ سورة الملك ٠

والرزق ، وكذلك فى الحديث النبوى نجد كثيرا نحو (من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له) .

وفى مجال الدعوة الى الاستثمار نجد الاسلام يبيح كل الوسائل التى لا تخل بروح الأخوة والخلق القويم ، وهذه الوسائل تكاد تنحصر فى أمرين يحققان استثمار كل ما يمكن استثماره عادة ، وهما :

١ ـ أن يستثمر الانسان ما يملكه بنفسه ، فان كان يملك الشىء الذى يصلح للتجارة مثلا استثمره فى التجارة ونحوها من المشروعات ، وان كان يملك ما يصلح للزراعة استثمره فى الزراعة ، وان كان يملك ما يصلح للرعى كالماشية استثمره بالرعى ، وهكذا .

٢ ـ الوسيلة الأخرى أن يكون مالكا للشىء الذى يصلح للاستثمار ، ولكنه لا يحسن الاستثمار أو لا يستطيعه ، فالاسلام يبيح له الاستعانة بغيره فى استغلال ما يملكه ، فان كان يملك مالا نقديا يجوز له أن يستعين بغيره فى استغلال ماله ، بأن يتفق مع شخص أو جهة على استثمار ماله ، هو عليه رأس المال ، والطرف الآخر عليه العمل والاستثمار ، والربح شركة بينهما حسبما يشترطان فى نصيب كل منهما ، أما الخسارة فعلى المالك وحده ، لأن المفروض أن الطرف الثانى معاون للمالك ، وهذا فى ذاته عمل خير ، فلا ينبغى أن يلحقه ضرر من جراء هذا العمل ، وهذا التشريع يسمى فى الاسلام المضاربة ، وهو الذى يقوم عليه نظام المصارف (البنوك) الاسلامية ، فالمصارف العادية تستثمر المال ، ولكنها تصطدم مع التشريع الاسلامى فى أنها تحدد مقدما ربحا معينا لرأس المال ، فى حين أن الاسلام يفترض كما هو الواقع أن هذا الاستثمار قد يربح وقد لا يربح ، فالمصارف الاسلامية حسب نظامها المعلن تسير على نظرة التشريع الاسلامى فى أنها لا تحدد ربحا ثابتا ، وانما تحسب الربح من الواقع الفعلى بعد تحققه .

وان كان المالك يملك أرضا زراعية أو ذات أشجار أو حدائق ، فله أن يسلمها الى شخص يتولى زراعتها أو سقيها مقابل نسبة معينة من الغلة يتفقان عليها ، وهذا يسمى فى التشريع الاسلامى المزارعة أو المساقاة ، لمن يتولى الزراعة أو السقى ، وكذلك له أن يؤجرها .

وكل هذا له بحوث واسعة مستفيضة فى الفقه الاسلامى ، ولكنه جميعا يتجه من روح الدعوة الى العمل والانتاج والاستثمار ، سواء بالنفس ، أو بمعاونة الغير .

وأما العامل الثاني مما يدور حوله تشريع الاقتصاد فى الاسلام فهو المحافظة على روح الأخوة والخلق القويم فى التعامل بين أفراد المجتمع ، فالخلق القويم الذى تدعو اليه كل الأديان ينافى الغش والخداع فى التعامل ، وكل تعامل بهما فى الاسلام باطل ، سواء تعامل بهما المسلم مع مسلم أو غير مسلم أيا كان ، فاذا غش البائع المشترى وخدعه فالبيع باطل ولو بعد دفع الثمن ، وفى الحديث النبوى المشهور فى التنفير من الغش (من غشنا فليس منا) وكل ما لا يتفق مع الخلق القويم فهو محرم .

وكذلك فان الاسلام يدعو الى روح الأخوة بين أفراد المجتمع ، ويأمرهم بالتعاون فيما بينهم ، وهذا ينافى استغلال الظروف السيئة التى قد يتعرض لها المجتمع ، أو يتعرض لها بعض الأفراد ، ومن الظروف السيئة التى قد تعرض فى المجتمع نقص سلعة أو اختفاؤها ، فان الاسلام حينئذ ينفر من توجد لديه هذه السلعة تنفيرا شديدا من أن يحتكرها مستغلا حاجة الناس اليها ، ويجعل هذا السلوك مما ينافى الخلق القويم ، ويتعارض مع دعوة القرآن الى التعاون بين أفراد المجتمع ، مثل (وتعاونوا على البر والتقوى) (١) فضلا عن الأحاديث النبوية التى تنهى عن الاحتكار .

ومن الظروف السيئة التى قد يتعرض لها بعض الأفراد الحاجة الملحة الى المال مع عدم وجوده ، فان الاسلام يحرم استغلال هذا الموقف بمحاولة الاستفادة منه ماديا ، فاذا اقترض شخص من آخر مبلغا من المال فلا يجوز للمقرض أن يشترط رده زائدا عن المبلغ المقترض ، كأن يقرضه مائة دينار ويشترط أن يردها اليه مائة وعشرين دينارا ، فهذا محرم فى الاسلام ويسمى ربا ، والتحريم منصب على أن يكون الشىء الذى يرد هو من ذات القرض كالنقود ، فان اختلفا بأن اقترض نقودا واشترط أن يردها سلعة أخرى غير النقود بأى قدر زائد أو ناقص فهذا جائز ، ومن صور الربا أن يجعل للسلعة ثمنين أحدهما عاجل ، والآخر أكثر منه آجلا ، كأن يقول للشارى ثمن هذا الشىء مائة دينار اذا دفعتها الآن ، وثمنه مائة وعشرون اذا دفعت الثمن بالتقسيط أو بعد مدة .

ومن واقعية التشريع الاسلامى أنه يبيح عند الضرورة نوعا من التعامل يعرف بالسلم ـ بفتح السين واللام ـ وهو شراء شىء مؤجل بثمن عاجل ، مثل أن يبيع طنا من القمح أو أى سلعة ليست موجودة عنده فى الحال ، على أن يسلمها الى المشترى بعد مدة يتفقان عليها مقابل

---

(١) ٢ سورة المائدة .

أن يأخذ الثمن فى الحال ، فهذه الصـورة فى حقيقتهـا مخالفة لقواعد التشريع الاسلامى ، لأنه لا يجوز بيع شىء غير موجود ، ولكنها أبيحت مراعاة لافتراض أن البائع محتاج الى المال بصفة عاجلة ، ولم يجد فى المجتمع من يساعده بقرض عادى ، فله أن يلجأ الى هذه الوسيلة ، وبدل أن يرد الى المقرض قرضه مع زيادة لا يجيزها الإسلام لأنها ربا ، يرد اليه القرض فى صورة سلعة تجارية ، وحينئذ لا مانع من اختلاف القيمة ، لأن الأمر انتقل من القرض الى التجارة .

والربا محرم فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، مثل (وأحل الله البيع وحرم الربا) (١) وأما بيع السلم فقد ورد جوازه فى الحديث الشريف (من أسلف فى شىء فليسلف فى كيل معلوم ، ووزن معلوم ، الى أجل معلوم) وقد أجمع علماء المسلمين على جوازه ، وحمل عليه من القرآن الكريم (يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسـمى فاكتبوه) (٢) .

---

(١) ٢٧٥ سورة البقرة .

(٢) ٢٨٢ سورة البقرة .

المجتمع العام (الأمة)

والمراد به الوحدة السياسية والاجتماعية التى توصف بالأمة أو الدولة ، والمسلمون الذين يقيمون على أرض اسلامية جميعهم فى التشريع الاسلامى أمة ووحدة سياسية واحدة ، ومن المعروف أن الاسلام يتميز عن سائر الأديان بأنه لا ينحصر فى نطاق الفرد ، ولا يقتصر على المجال الروحى ، وانما يقوم على الشمول ، فهو يخاطب الفرد ، والمجتمع فى كل صوره ، ومنها صورة الأمة والدولة ، وبالتالى فهو يضع فى تشريعه من الأساس كما رأينا ما يحتاجه الفرد للصلاح الروحى والدنيوى معا ، وفيه من الأساس أيضا ما يحتاجه صلاح المجتمع فى المجالين ٠

ولكن الملحوظ أن الاسلام فى مخاطبته الفرد يركز على التوجيه الروحى قبل السلوك ، لأنه اذا صلح المجال الروحى صلح السلوك ، بينما فى مخاطبته المجتمع يقدم الاهتمام بالسلوك والعمل على الناحية المعنوية ، وذلك لاعتبارين ، أحدهما افتراض أن المجتمع يتكون من أفراد صالحين روحيا وخلقيا ، والآخران فساد المجتمع ينبع بصورة مباشرة من فساد السلوك ، فضلا عما فى فساد السلوك من اضرار بالغير ، ونتيجة لذلك نجد التشريعات الاجتماعية كالزكاة والعقوبات تحاسب على الأعمال الظاهرة ، وتترك النوايا لحساب الله ، ومن آثار ذلك أيضا كما سبق أننا نجد القرآن حينما يتكلم عن الأفراد يقدم عادة صفة الايمان على العمل الصالح ، مثل (ان الذين آمنوا وعلموا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (١) ولكنه حينما يتحدث عن المجتمع يكون العكس ، مثل (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٢) فيقدم العمل على الجانب الروحى ، مع أنه بيان لسبب

(١) ١٠٧ سورة الكهف ٠ (٢) ١١٠ سورة آل عمران ٠

تفضيلهم ، فكان العمل الصالح قبل الايمان فى ترتيب أسباب خيريتهم بوصفهم أمة ، وقد تابع بعض فقهاء التفسير هذا المعنى فحملوا عليه قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعـــد الذكر أن الأرض يرثها عبـادى الصالحون) (١) على أساس أن المراد بالصلاح فى الآية الصلاح لعمارة الأرض وليس الصلاح الدينى ، وهـــذا ما يتفق مع روح القرآن حينما يخاطب المجتمع ، فضلا عن اتفاقه مع الواقع ، ومع نظرة الدين الى الحياة الدنيا بصفة عامة ٠

ومن أهم الأسس التى يبرزها الاسلام فى التشريع للأمة :

السـلطة :

تبدو القيمة الحضارية للتشريع الاسلامى بصورة أوضح حينما ننظر الى الوضع العالمى عند مجىء الاسلام فيما يتعلق بالسلطة ، وذلك من جانبين :

(أ) السلطة التشريعية :

حينما جاء الاسلام لم يكن فى العالم تشريع مكتوب أو محدد يلزم صاحب السلطة أن يتقيد به ، وانما كان أصحاب السلطة سواء من الملوك ومن رؤساء القبائل يستمدون مزاولة سلطتهم من السلطة نفسها بمقدار قوتها ، دون التقيد بتشريع ، فالملوك لرسوخ سلطتهم يتصرفون ويحكمون كما يشاءون ، ورؤساء القبائل لضعف سلطتهم يتذبذبون بين العرف ووسائل الترغيب والترهيب ، ولكن فى كل الأحوال لا يوجد تشريع محدد يتيح للمجتمع أن يعرف منهج الحكم ٠

ومن أبرز مظاهر الحضارة اليوم فى أى شعب أن يكون القانون هو السلطة الحقيقية فى الدولة ، وأن يكون الحاكم منفذا للقانون ليس غير ، وهذا ما حققه الاسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية ، فلم يجعل أسلوب الحكم أسلوب الملوك ، ولا أسلوب رؤساء القبائل ، وانما جعل السلطة الحقيقية للتشريع ، وجعل الحاكم لا يعدو أن يكون منفـــذا للتشريع ، موضحا أن الحاكم اذا خالف التشريع فلا تجوز طاعته فى هذه المخالفة ، لأن الطاعة الحقيقية سواء من الحاكم نفســه أو من المحكومين أنما تكون للتشريع ، وهذا الوضع وهو أن يكون القانون هو السلطة العليا هو أسمى ما يعتز أى مجتمع اليوم بأنه بلغه ٠

---

(١) ١٠٥ سورة الأنبياء ٠

فالاسلام بدون شك هو الذى وضع للبشرية بصورة عملية محددة أن تكون كل السلطات مستمدة من التشريع ومحكومة بقانونه ، ومع أن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى الذى تتجمع فيه كل السلطات التشريعية والتنفيذية ، ومع أن القرآن يجعل طاعته طاعة لله حيث يقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (١) الا أن القرآن يصرح فى مواضع كثيرة بأن سلطته التشريعية والتنفيذية محصورة فى شريعة الله ، كقوله (فاحكم بينهم بما أنزل الله) (٢) كما أن القرآن يجعل مبايعته على الطاعة مبايعة لله ذاته حيث يقول (ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله) (٣) ومن الواضح أن هذا المنهج يمثل اشارة الى منهج الاسلام بصفة عامة لمن يأتى بعد الرسول من الحكام ، بمعنى أن أى سلطة تشريعية أو تنفيذية للحاكم يجب أن تستمد من شريعة الله ، فاذا انفصلت أى سلطة عن شريعة الله فقدت الانتماء الى الاسلام ، وبالتالى تفقد حماية الاسلام لها ، وقد كان هذا الفهم واضحا فى نفوس أصحاب النبى ولذلك يقول الخليفة الأول أبو بكر فى خطبة توليه السلطة (أطيعونى ما أطعت الله فان عصيت فلا طاعة لى عليكم) ويقول الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (أطيعونى ما أطعت الله ، فان رأيتم فى اعوجاجا فقومونى) .

ومما تعتز به أى أمة اليوم أنها تستطيع بتشريعها أى تحاسب أى مسئول ولو كان رئيس الدولة اذا خالف القانون ، ولكن هذا فى الاسلام ليس جديدا ، وانما كان من أسس التشريع الاجتماعى فى الاسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا ، وقد استطاع بعض الخلفاء مثل عمر بن الخطاب أن يطبقوه على أنفسهم وعلى كل ولاتهم تطبيقا صارما .

السلطة التنفيذية :

يجعل الاسلام السلطة التنفيذية منوطة بالشخص الذى يولى امارة المسلمين ، وكل من يستعين بهم فهم نواب عنه سواء فى امامة الصلاة الجامعة وهى المهمة الأولى له ، أو القضاء ، أو سائر مطلوبات السلطة دينيا أو دنيويا .

وأولى الخطوات الحضارية للاسلام فى هذا المجال أنه يوجب أن يكون المسلمين أمير مسئول ، وتبدو قيمة هذه الخطوة حين ننظر الى حال بعض المجتمعات حينما جاء الاسلام ، فقد كانت حينئذ مجتمعات كثيرة كالجزيرة العربية تعيش حياة بدائية قبلية بدون حاكم حقيقى مسئول ، ولكن الاسلام يوجب على كل مجتمع مهما صغر أن يكون له أمير ، محققا

(١) ٨٠ سورة النساء .
(٢) ٤٨ سورة المائدة .
(٣) ١٠ سورة الفتح .

بذلك وجوب مبدأ التنظيم الادارى ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم (اذا كنتم ثلاثة فأمروا عليكم واحدا منكم) ولا يجعل الاسلام من يتولى الامارة رمزا أدبيا كما كان رئيس القبيلة ، وانما يجعل له سلطة واجبة الطاعة ، ففى القرآن (أطيعوا الله وأطيعوا الرســـول وأولى الأمر منكم) (١) .

ولم يحدد الاسلام طريقة معينة لاختيار من يتولى السلطة ، لأن من طبيعة التشريع الاسلامى عدم التحديد ولا التضييق فى الأمور المتجددة ، والاسلام عام للمجتمعات على اختلافها ، وللعصور على تنوع أحوالها . وتولى السلطة أمر متجدد متكرر كثيرا ، فلو وضع الاسلام نظاما محددا فقد لا يلائم هذا النظام بعض المجتمعات أو بعض العصور ، ومع ذلك يضع الاسلام قاعدة عامة لمعالجة كل الأمور العامة فى المجتمع الاسلامى وهى الشورى ، ففى القرآن من صفات المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) (٢) بل يجعلها أمرا واجبا يطالب به حتى الرسول نفسه ففى القرآن هذا الأمر من الله (وشاورهم فى الأمر) (٣) واختيار من يتولى السلطة من أهم الأمور العامة ، ومعنى ذلك أن الأصل فى اختياره أن يكون عن طريق الشورى .

العلاقات الدينية :

موقف الاسلام من كل ما يعالجه يقوم على أسس عامة ثابتة ، ومن ذلك موقفه من الأديان ، فالاسلام فى كل تشريعه يؤكد أن الرسل جميعا وما جاءوا به من الكتب السماوية كل ذلك من مصدر واحد هو الله ، وكل ما أتى به الرسل من شرائع فهو من الله ، وبالتالى فهو دين سماوى ، وكل ما لم يأت عن طريق رسول من الله فليس من الأديان ، وبناء على ذلك تنقسم الأوضاع الدينية فى نظر الاسلام قسمين :

(أ) أحدهما يعترف به الاسلام ، ويوجب على المسلمين أن ينظروا الى أصحابه نظرة تخلو من العداء ، وهى أصحاب الديانات السابقة ، وقد ورد فى القرآن ذكر خمسة وعشرين رسولا كلهم يجب الايمان به بوصفه نبيا ورسولا من الله ، والطعن فى أى منهم أو انكار نبوته ورسالته كفر صريح فى نظر الاسلام ، وفى القرآن (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) (٤) والنبى فى اصطلاح الدراسات الاسلامية أعم من الرسول .

---

(١) ٥٩ سورة النساء .
(٢) ٣٨ سورة الشورى .
(٣) ١٥٩ سورة آل عمران .
(٤) الآية قبل الأخيرة من سورة البقرة .

فالنبى من يتلقى وحيا من الله ، سواء أرسله الله برسالة الى الناس أم لم يرسله ، أما الرسول فهو من يتلقى وحيا من الله ويحمل رسالته الى الناس ، ويصف القرآن بعض الرسل بأنهم كانوا فى صبرهم وجهدهم أصحاب عزم أقوى من غيرهم من الرسل ، حيث يقول الله (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (١) وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، ولكن الرسل جميعا قبل الاسلام انتهت دياناتهم الى ديانتين ، اليهودية ديانة موسى ، وكتابها التوراة ، والمسيحية ديانة عيسى ، وكتابها الانجيل ، ويسمى أبناء الديانتين فى الاسلام أهل الكتاب ، أى الكتاب السماوى ، واذا كانوا يعيشون داخل الدولة الاسلامية يسمون أهل الذمة ، بمعنى أنهم يعيشون فى ذمة المسلمين ، وكأنهم أمانة لدى المسلمين ينبغى أن يحافظوا عليها ٠

والاسلام يؤكد أن بعض رجال الدين فى الديانتين السابقتين غيروا وبدلوا وخالفوا كثيرا فى أصول دينهم ، وأن الديانتين الحاليتين ليستا كما أنزلهما الله ، وفى القرآن فى سياق الحديث عن أهل الكتاب (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (٢) ومع ذلك يطلب الاسلام من المسلمين عدم التعرض للديانتين الا بالحوار السلمى والدعوة الى الاسلام بالحسنى ، على أساس أن تغييرهم فى الدين حسابه على الله وليس على المسلمين ٠

ويحدد الاسلام فى وضوح أسلوب التعامل مع أهل الكتاب فى احتمالين :

١ ـ ان كانوا يعيشون داخل المجتمع الاسلامى يصبحون من حيث الحقوق والواجبات العامة فى حكم المسلمين ، والشعار الاسلامى فى هذا هو (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وهذا أقصى ما تحلم به اليوم أى أقلية تعيش فى كنف دين آخر أو عنصر آخر ، ولكن الواقع يحول دون تحقيق هذا الحلم فى أغلب مناطق العالم ، بينما يشهد التاريخ ويشهد الواقع الحالى أيضا أن المجتمع الاسلامى أحسن المجتمعات تعاملا مع الأقليات واحتراما لها ، وليس الفضل فى هذا للمسلمين ، بل لعل بعض المسلمين على قلة حاول الخروج على هذا المبدأ ، وانما الفضل كله للتشريع الاسلامى نفسه ٠

ومن آثار ذلك أن الاسلام يجعل لأهل الذمة ضمانا اجتماعيا كما حدث فى معاهدة خالد بن الوليد مع أهل الحيرة النصارى ، والتى جاء

(١) ٣٥ سورة الأحقاف ٠ (٢) ٧٨ سورة آل عمران ٠

فيها (وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله) فالفقراء والعجزة يضمن لهم راتبا يعولهم من بيت المال ، زيادة على رفع الجزية (الضريبة) عنهم ·

٢ ـ أما التعامل مع دول أهل الكتاب مما يأخذ صورة العلاقات الدولية ، فالاسلام أيضا تحكمه مبادىء عامة ، ومن هذه المبادىء أنه مادام الاسلام يعترف بالديانتين اليهودية والنصرانية فانه يخص أبناءهما بمعاملة متميزة بروح السلم وحسن التعامل ، ولا يبيح معاملتهم بروح العداء الا اذا بدأوا هم باظهار العداوة فى صورة عملية كالتحفز للقتال والحرب فى أى صورة من صورها ، فان التزموا المسالمة وجب على المسلمين مسالمتهم ، وفى القرآن الكريم (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (١) بل ان الاسلام فى حال المسالمة من جانبهم لا يكتفى بمعاملتهم بالمثل فحسب ، وانما يدعو الى معاملتهم بروح المودة والبر ، وفى القرآن (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) (٢) ومن آثار روح الود التى يدعو القرآن المسلمين أن يعاملوا بها أهل الكتاب اليهود والنصارى اباحة طعامهم للمسلمين ، وكذلك اباحة الزواج بنسائهم للمسلمين ، بينما لا يجوز للمسلم أن يأكل من ذبيحة المشرك ، وهو من ليس له دين سماوى ، ولا أن يتزوج المشركة ، أما أهل الكتاب فيقول الله فى القرآن فى شأنهم (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهم محصنين غير مسافحين) ·

٣ ـ فكل طعام أهل الكتاب حل للمسلمين الا ما نص الاسلام على تحريمه من الطعام كالميتة والدم ولحم الخنزير ·

ويخص الاسلام النصارى بدرجة أكبر من الود ، ويثنى القرآن على الذين اتبعوا المسيح بصدق ثناء كثيرا ، كقوله (وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) (٣) ونجد تعبير القرآن يظهر فارقا كبيرا بين ما تحمله نفوس النصارى من سماحة ومودة نحو المؤمنين ، وبين ما تحمله نفوس اليهود

---

(١) ٦١ سورة الأنفال ·
(٢) ٨ ، ٩ سورة الممتحنة ·
(٣) ٥ سورة المائدة ·
(٤) ٢٧ سورة الحديد ·

من روح الحقد والعداوة نحو المؤمنين . وفى القرآن (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبـــانا وأنهم لا يستكبرون) (١) وتعبير القرآن يوحى بأن نزعة الحقد والعدوان فى اليهود ليست ضد المسلمين فقط ، وانما ضـــد كل من يعتنقون عقيدة الايمان ، وكأنهم يعادون الايمان نفسه ، وكذلك العكس فى حال النصارى من حيث موقفهم الودى من الايمان لذاته ، ولكن مع كل ما تحدث به القرآن عن طبيعة اليهود ، وما تحمل من رفض لمبدأ الايمان بلغ حد قتل الأنبياء ، وما تحمل من غدر ومن عنصرية بغيضة بلغت حد استباحتهم كل ما لغيرهم ، رغم هذا كله فان القرآن لم يغير المبدأ العام وهو التعامل الحسن مع أهل الكتاب .

(ب) القسم الثانى

والقسم الثانى من الأوضاع الدينية هو كل من عدا أهل الكتاب ، سواء أكانوا وثنيين يعبدون الها غير الله ، أم كانوا ملحدين ينكرون وجود الله ، فهذا النوع هو العدو الحقيقى فى نظر الاسلام ، من زاوية أن الاسلام والأديان السماوية جميعا يفترض أنها تشترك فى أساس الايمان وهو الاعتقـاد فى وجود اله واحـد هو الخالق المتصرف فى الكون وحـده ، واذا وجد هذا الأساس فكل ما يترتب عليه من الفروع الدينيـــة أمره أيسر ، وهذا معنى الحديث النبوى (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا اله الا الله) فالمسلمون وأهل الكتاب اليهود والنصارى يفترض أنهم يشتركون فى هذا الأساس ، أما غيرهم فهو خارج هذا النطاق ، واذن فالخلاف المبدئى ، والصدام الفـكرى والعقدى بالقياس الى الاسلام انما هو مع هذا القسم المشرك والملحد ، ولذلك كان موقف الاسلام من هـذا النوع هو الموقف العدائى من الناحية الدينية ، ولكن العداوة الدينيـــة لا تعنى أنهم فى حالة حرب مع المسلمين ، فموقف الاسلام من الحرب ثابت وواضح ، وهو موقف الدفاع وليس الهجوم ، وشعاره فى القرآن (وان جنحـوا للســـلم فاجنح لها) (٢) وانما يعنى الموقف العدائى فى أهم ما يترتب عليه من الناحية المعيشية أمرين :

١ ـ أحدهما عدم جواز أكل ذبائحهم ، لأن الاسلام يشترط لجواز أكل الذبيحة أن يذكر اسم الله عليهـــا عند الذبح حقيقـــة أو حكما ، فالتسمية حقيقة هى نطق التسمية عند الذبح ، والتسمية حكما أن يكون

---

(١) ٨٢ سورة التوبة .

(٢) ٦١ سورة الأنفال .

الذابح مؤمنا بالله ، فاذا نسى التسمية أو جهل حكمها فيكفي أن لديه استعدادا لها ، واباحة طعام أهل الكتاب من هذا القبيل باعتبار أنهم أصحاب دين سماوى ، أما المشرك والملحد فهو غير مؤمن بالله بالصفة الدينية ، ولذلك فهو بداهة لا يذكر اسم الله لا حقيقة ولا حكما لأنه لا يعترف به أصلا ، وفى القرآن (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) (١) ٠

٢ ـ لا يجوز للمسلم أن يتزوج بالمشركة ، ومن باب أولى لا يجوز للمسلمة أن تتزوج بالمشرك ، لأنه لا يوجد حينئذ أى قدر من الرابطة الدينية بين الزوجين ، فضلا عما يترتب على هذا التناقض بالقياس الى أولادهما ، وفى القرآن (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) (٢) ٠

الموقف العام للاسلام من الدين :

من المعروف فى أحكام الاسلام أن الدعوة الى الاسلام بالحسنى واجبة ، ولا يجوز اكراه أحد على الدخول فى الاسلام ، وفى القرآن (لا اكراه فى الدين) (٣) وليس هذا حكما جزئيا فى الاسلام ، وانما هو من مقتضيات الأحكام الكلية والمبادىء العامة ، فمن المبادىء العامة أن الاسلام ينظر الى مهمة الرسول وسائر الرسل على أنها ليست تحويل الناس من كافرين الى مؤمنين ، وانما تنحصر مهمتهم جميعا فى معنى واحد ، هو أن يبلغوا رسالة الله الى الناس ، وهى الدعوة الى الايمان الصحيح ، وارشادهم الى الطريق الدنيوى الصحيح ، وحين يبلغون هذه الرسالة يكونون قد أدوا واجبهم ، حتى لا يحتج الناس عند الله بأنهم لم تبلغهم رسالته ، ثم حسابهم بعد ذلك على الله وليس على الرسل أو المؤمنين ، وفى القرآن (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٤) وفى القرآن أيضا (ان حسابهم الا على ربى) (٥) وكلمة (رسول) واضحة الدلالة فى أن أى نبى مرسل من الله برسالة مهمته تنحصر فى تبليغ الرسالة التى يحملها ، وهذا المعنى واضح فى القرآن ، كقول الحق سبحانه (ما على الرسول الا البلاغ) (٦) فمهمة الرسول فى الاسلام ، وورثته وهم العلماء وجوب الدعوة الى الاسلام بالحسنى ، وهى معنى التبليغ ٠

---

(١) ١٢١ سورة الأنعام ٠
(٢) ٢٢١ سورة البقرة ٠
(٣) ٢٥٦ سورة البقرة ٠
(٤) ١٦٥ سورة المائدة ٠
(٥) ١١٣ سورة الشعراء ٠
(٦) ٩٩ سورة المائدة ٠

فهذا المنهج أساس من أسس الاسلام ، ويتلخص فى وجوب استمرار الدعوة الى الاسلام بالحسنى ، مع عدم اكراه أحد على الدخول فى الاسلام ، لأن السبيل التى حددها القرآن للرسول هى (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) (١) ورسالة رسول الاسلام مستمرة الى يوم القيامة ، وهذا يقتضى استمرار أداء المسلمين لهذه الرسالة وهى الدعوة الى الاسلام بالحسنى الى يوم القيامة ، وهو من باب فرض الكفاية الذى أداه البعض سقط عن الكل ، واذا لم يؤده البعض كان الجميع آثمين ·

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن النبى صلى الله عليه وسلم رغم كل صراعه مع أعداء دينه الا أنه لم يثبت أنه أكره أحدا قط على الدخول فى الاسلام ، واستمرار الدعوة الاسلامية اقتضى أمرين ، أحدهما نظرى ، والآخر تطبيقى :

١ ـ فأما النظرى فهو الحاجة الى مصدر ثابت للدعوة الاسلامية يظل بمثابة الدستور الدائم دوام الدعوة الاسلامية ، وكان هذا المصدر هو ذات القرآن الكريم ، وقد تكفل الله بحفظه ليظل مصدرا ثابتا وواضحا لدعوة الاسلام ، ومهمته هى مهمة الرسول ، أن يكون حجة على الناس فى أن دعوة الله قد بلغتهم بصورة واضحة لا لبس فيها ولا تناقض ·

٢ ـ وأما الجانب التطبيقى فهو أن الاسلام غايته ايجاد الفرد الصالح باطنا وظاهرا ، وايجاد الأمة الصالحة ظاهرا وباطنا ، وصلاح الفرد باطنا أن يحمل عقيدة الايمان الصحيح فى داخله ، وصلاحه ظاهرا أن يكون عمله الظاهر كله فى دينه ودنياه متفقا مع شريعة الله ·

وصلاح الأمة فى الاسلام له مقاييس تختلف عن صلاح الفرد . لأن المفروض أن المقياس الفردى متحقق فى أفراد هذه الأمة ، أما الأمة نفسها فصلاحها يعتمد أصلا على اقامة شريعة الله كاملة فى داخلها ، وأما فى خارجها فالهدف الأكبر أن تكون الأمة الاسلامية نموذجا تطبيقيا عمليا يؤكد أن اعتناق شريعة الله وتطبيقها يحقق النجاح الدينى والدنيوى معا ·

وكما أن الله فى الجانب النظرى قد أوجد نموذجا ثابتا هو ذات القرآن ، فان الله أيضا فى الجانب التطبيقى قد أوجد نموذجا عمليا للأمة المثالية ، وكان هذا النموذج هو جيل النبى صلى الله عليه وسلم الذى يشهد له التاريخ بأنه استطاع أن يبلغ القمة فى الجمع بين المجالين ، مجال الدين ومبادئه ومجال الدنيا بمجدها وقوتها ، وقد شهد لهم الله فى القرآن بهذه الشهادة (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (٢) ·

---

(١) ١٢٥ سورة النحل ·

(٢) ١١٠ سورة آل عمران ·

وكما أن من آثار حفظ الله للقرآن أن يكون حجة على الناس فى أن دعوة الله موجودة أمامهم ، فان الناحية التطبيقية أيضا من آثارها أن تكون حجة على الناس ، سواء فى الأمة الصالحة ، وفى الفرد الصالح ·

فأما الأمة الصالحة فان كثيرا من دعاة الاصلاح والفلاسفة نادوا قبل الاسلام بايجاد المجتمع الفاضل كما تخيلوه على اختلافهم ، ولكن ذلك كان أشبه بأحلام اليقظة التى تثير سخرية الكثيرين على أساس أن تحقيقه ضرب من الخيال أو المستحيل ، فجاء الاسلام وأوجد الله هذا المجتمع ، بين الأمة الفاضلة ، ليكون امكان وجودها عمليا أمرا واقعا ، وبالتالى يكون هذا حجة على الناس فى أن هذا واقع وليس خيالا ولا مستحيلا ·

كذلك المثال التطبيقى للفرد ، فقد يكون بلوغ الفرد القمة فى الجمع بين الدين والدنيا ضربا من الخيال أو المستحيل فى تصور الكثيرين ، وحينما جاء الاسلام ضرب الله مثلا تطبيقيا بشخص محمد صلى الله عليه وسلم الذى جمع بين القمة الدينية بوصفه نبيا ورسولا ، والقمة الدنيوية بوصفه قائدا وزعيما أعلى فى كل مجالات السلطة التشريعية والسياسية والعسكرية ·

وقد حدد القرآن أن بلوغ الأمة الاسلامية هذه الدرجة ليكون شهادة وحجة على سائر الناس والأمم هذا ممكن وواقع ، ليقتدوا بهذا المنهج ، ولا يدعوا أن هذا غير ممكن ، كما حدد القرآن لأفراد الأمة الاسلامية أن بلوغ الفرد هذه الدرجة ممكن وواقع ، ليقتدوا به ولا يدعوا أنه ليس بمستطاع ، ففى القرآن (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) (١) ومعنى شهداء على الناس أنكم حجة على الناس جميعا بوصفكم أمة بالصورة التى أنتم عليها ، وكذلك لفظ (شهيد) بمعنى أن شخص الرسول مثال للاقتداء به ، واذن فهو من الناحية التطبيقية حجة وشهادة ، وأما كلمة (وسطا) فهى تعنى الفضيلة ، حيث يعرف الفلاسفة الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين ، كالجود وسط بين التبذير والبخل ، فالمعنى أن الله جعلهم أمة الفضائل الدينية والدنيوية ليكونوا فى وجودهم العملى والواقعى حجة على سائر الأمم ·

وقد كان واجب المسلمين بداهة حماية هذا المثال الرائع ، ليظل نموذجا واقعيا مشرقا ، ولكنهم قصروا تقصيرا شديدا ، بل حولوا هذا المثال المشرق الجذاب الى مثال سيء منفر ·

---

(١) ١٤٣ سورة البقره ·

العلاقات السياسية :

وضع الاسلام تشريعا لأسس العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم من الأمم ، سواء فى السلم وفى الحرب ·

فى السلم :

من أهم الأسس الواضحة فى التشريع الاســـلامى فيما يتعـلق بالعلاقات الدولية فى حالة السلم ·

١ ـ جواز التعامل مع الأمم الأخرى فى كل صور التعامل العادى كالتجارة وتبادل المنافع والعلوم ، الا فيما نص الاســـلام على تحريمه كالخمر ·

٢ ـ احترام المعاهدات الدولية والوفاء بها ، فالاسلام يولى الوفاء بالعهد اهتماما كبيرا ، وقد تكرر هذا فى القرآن كثيرا ، مثل (وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا) (١) وقد جعل النبى من صفات المنافق (اذا عاهد غدر) فاذا وجد المسلمون فى معاهدتهم مع أمة أخرى ضررا أو خافوا غدرهم لم يجز للمسلمين نقض المعاهدة الا بعد اعلان هذا النقض للطرف الآخر ، حتى لا يؤخذ الآخرون على غرة ، وفى القرآن (واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين) (٢) ·

٣ ـ التزام المبادىء والخلق القويم فى التعامل مع الآخرين بصرف النظر عن موقف الآخرين ، بمعنى أنه مهما بلغت عداوة المسلمين للآخرين فلا يجوز أن تدفعهم مشاعر الكراهيـــة الى مجافاة الخـــلق القويم فى التعامل ، وكذلك مهما كانت مساوىء الآخرين ، ولذلك يدعو القرآن الى التزام العدل بمعناه العـــام فى تعاملهم مع غيرهم مهما كانت مشاعرهم نحوهم ، ففى القرآن (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٣) فاذا خافوا الخيانة أو الغدر من الطرف الآخر فعليهم أن يتخذوا منهم موقفا معلنا ، ولا يجوز أن يبادلوهم سوء الخلق ·

٤ ـ التزام المسالمة طالما كان هذا موقف الطرف الآخر ، فاذا تأكد المسلمون أن موقف أمة أخرى هو المسالمة ، ولم يخشوا منهم لجوءا الى الحرب أو اضرارا بهم لم يجز لهم أن يلجأوا الى الحرب ، بل عليهم التزام المسالمة ، وفى القرآن (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (٤) ·

---

(١) ٣٤ سورة الاسراء ·
(٢) ٥٨ سورة الأنفال ·
(٣) ٨ سورة المائدة والشنآن الكراهية ·
(٤) ٦١ سورة الأنفال ·

فى الحرب :

لما كان ايجاد الأمة الاسلامية هدفا جوهريا من أهداف الاسلام كان لابد أن يكون فى التشريع الاسلامى ما يحتاج اليه بناء الأمة من جهة ، وما تحتاج اليه المحافظة على كيان هذه الأمة من جهة أخرى ، وأهم ما يتسم به موقف الاسلام أنه يجعل كل مسالكه سواء فى السلم وفى الحرب قائمة على مبادىء واضحة وثابتة ، واذا كانت فى العالم اليوم قوانين للحروب كعدم تعريض المدنيين لأخطار الحرب ، وكنظام معاملة الأسرى ، فلا شك أن الاسلام كان أول واضع فى التاريخ لتشريع محدد فيما يتعلق بالحروب ، ومن أبرز ما يتعلق بالحرب فى التشريع الاسلامى :

١ ـ ينظر الاسلام الى الحرب على أنها استثناء لا يلجأ اليه الا للضرورة عند الحاجة الى حماية الدين أو الدفاع عن متعلقات الدين ، ومتعلقات الدين تتجمع فى أمرين ، الأرض والأتباع ، فعندما يكون الدين أو أرضه أو أتباعه أو مصالحه فى حاجة الى الدفاع أو الحماية ، فالحرب واجبة على كل قادر على الاسهام فيها ، وتسمى حينئذ جهادا فى سبيل الله ، بمعنى أنها لاعلاء كلمة الله وليس لمصلحة دنيوية ٠

٢ ـ اذا تأملنا أهداف الاسلام فى صلته بالقوة والحرب نجد أنها فى جوهرها وفى أهم جوانبها تنحصر فى هدفين ينتهيان الى هدف واحد كما يلى :

(أ) الهدف الأول أن تبقى الدعوة النظرية للاسلام واضحة لا لبس فيها ، لتكون حجة على الناس يوم القيامة ، حتى لا يدعى أحد أن الدين الصحيح أو الفهم الصحيح للدين لم يبلغه ، وتمثل هذا فى ذات القرآن بوصفه نصا من عند الله مباشرة ، وتكفل الله بحفظه الى يوم القيامة ، لئلا يقول أحد اننى بحثت عن الحق فلم أجده ٠

(ب) كل حق يحتاج الى قوة تحميه ، وكل حق بدون قوة ضائع ، فدعوة الاسلام تحتاج الى قوة تحميها ، ولن تكون هذه القوة الا فى أمة قوية ، دائمة القوة ، ودائمة الاستعداد بقوتها لحماية الدعوة الاسلامية ، ومن قبيل هذا فى القرآن (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) (١) ولن تكون كلمة الله عليا فى الأرض الا بقوة تحميها ، ويشير القرآن الى حدود هذه القوة فيجعل غايتها وحدودها أن تحقق

---

(١) ٤٠ سورة التوبة ٠

للأمة (العزة) التى تذود عنها المطامع ، وتجعل كلمة الله ودعوته قوية مسموعة ، ففى القرآن (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (١) ٠

وهذان الهدفان ينتهيان الى غاية واحدة ، هى أن كل وسائل القوة والحرب فى الاسلام تتعلق بالدين وحمايته ، وتمهيد الطريق له ليبلغ مسامع الناس وعقولهم ، وكذلك حماية متعلقات الدين كالأتباع والأرض والمصالح ، وكل ما عدا ذلك من حروب المطـــامع ، وصراعات الأغراض الدنيوية لا يقرها الاسلام ولا يرضى عنها ٠

٢ ــ اذا حدث عدوان من جانب عدو غير مسلم على أرض اسلامية وجب على المسلمين جميعا الدفاع ، فكل قادر على القتال ولو من النساء والأطفال ، أو قادر على عمل أى شىء يسهم به فى الدفاع وجب عليـه الاسهام بما يستطيع اذا احتيج اليه ٠

٣ ــ كل اسهام فى حرب يقصد بها حماية الاسلام وحرماته أو رفعة شأنه ، سواء أكان اسهاما بالنفس أو بالمال أو بغيرهما يسمى حينئذ جهادا فى ســـبيل الله ، وقد تكرر فى القرآن كثيرا وعد الله المجاهدين بأن يمنحهم الجنة ، وأن يميزهم بمنزلة خاصة يوم القيامة ، ومن ذلك (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا) (٢) ٠

وصفة (المجاهد) لا تنطبق الا على من يكون قصـــده وجه الله ، بحيث تنتفى فى نفسه كل رغبة دنيوية أو أهداف شخصية ، ولذلك يقترن الجهاد بأنه (فى سبيل الله) والأحاديث النبوية الكثيرة تزيد هذا المعنى وضوحا وتفصيلا ، والمجاهد الذى يقتل فى سبيل الله يؤكد القرآن وكذلك الأحاديث النبوية أن له منزلة فى الآخرة لا تعـــلوها الا منزلة الأنبياء والصديقين (القديسين) ، وله أحكام خاصة فى اعداده للدفن ، منها أنه لا يغسل ولا يلبس ملابس الكفن ، بل يدفن بدمه وملابسه ، ويسمى (شهيدا) بمعنى أنه مشهود له بالجنـــة ، ويؤكد القرآن أن الشهداء لهم عند الله نوع من الحياة الخاصة يختلفون بها عن سائر الموتى ، وفى القرآن (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحيـاء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) (٣) ٠

٤ ــ فى حال القتال يوجب الاسلام على المسلمين ــ مهما بلغوا من القوة ــ أن يلتزموا مبادىء معينة ، أهمها :

---

(١) ٨ سورة المنافقون ٠ (٢) ١١١ سورة التوبة ٠

(٣) ١٦٩ سورة آل عمران ٠

(أ) أن يكون هدفهم تثبيت دعائم الاسلام وحمايته ، فاذا تحقق هذا وجب أن يمتنعوا عن القتال ، ويتحقق هذا بأحد أمرين ، اما أن يعلن العدو دخوله فى الاسلام ، واما أن يعلن استسلامه ، ففى كلا الحالين تتحقق (العزة) التى هى الهدف ، ويجب الكف عن القتال ، ولذلك تجب دعوة العدو الى الأمرين السابقين قبل القتال ، وفى القرآن (فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) (١) كما أن القرآن لام بعض المسلمين حين قاتلوا فى هذه الحالة ، وجعلوا الغنيمة هدفا ، فى قوله تعالى (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) (٢) ٠

(ب) لا يجوز للمسلمين أن يقتلوا من لا يخشى منه حمل السلاح للقتال كالنساء والأطفال والعجزة الا اذا قاتلوا ، ولا أن يلجأوا الى التخريب والتدمير فى حياة غير المقاتلين ، كاتلاف الزراعة وحرق الأشجار ، والأحاديث النبوية فى ذلك كثيرة ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للمتوجهين الى الجهاد (انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا صغيرا ولا امرأة) وفى القرآن (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) (٣) ومن وصايا النبى لأحد قواده (لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا الا لأكله ولا تحرقن نخلا) ٠

(ج) لا يجوز تعذيب الأسرى بدنيا أو نفسيا ، بل يجب حسن معاملتهم ، وفى الحديث النبوى (استوصوا بالأسارى خيرا) وقد جعل القرآن من صفات المؤمنين وحسناتهم ايثار الأسرى على أنفسهم بالطعام ولو كانوا فى حاجة اليه ، حيث يقول (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) (٤) وقد كان المسلمون الأوائل يطبقون هذا الايثار ، حتى ان أحد أسرى المشركين من مكة يوم بدر يروى أنه كان يخجل من تكرار ايثار آسره الأنصارى اياه بكسرة خبز لا يملك غيرها ، فيردها الأسير اليه حياء ، فيأبى الذى أسره ، ويصر على ايثار الأسير بالطعام ٠

---

(١) ٩٠ سورة النساء ٠
(٢) ٩٤ سورة الانسان ٠
(٣) ١٩٠ سورة البقرة ٠
(٤) ٩ سورة الدهر ٠

من النتائج المنطقية لاستهداف الاسلام تكوين المجتمع والأمة أن يتضمن من التشريعات ما ينظم حياة المجتمع والأمة فضلا عن الحياة الفردية ، ولكن الاسلام لا يكتفى بمحض وجود مجتمع اسلامى أو أمة اسلامية ، وانما يحمل المسلمين مسئولية أن يكون مجتمعهم وأن تكون أمتهم نموذجا ومثلا أعلى ، والمتأمل فى هذا النموذج وفى واقع حال المسلمين يدرك مدى الجرم الذى ارتكبه المسلمون فى بعدهم الشديد عن هذا النموذج نتيجة لاهمالهم تطبيق التشريع الاسلامى ، وخصوصا الجانب الاجتماعى فيه ، فان هذا الجانب يضمن لهم القمة التى بلغوها يوما ما ، والتى وصفها القرآن من الناحية الدينية والعامة بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (١) ومن ناحية المجد الدنيوى يشير اليها بشعار (كلمة الله هى العليا) (٢) ومن الواضح أن أى أمة لا يتاح لها هذا الوضع الا اذا توافرت لها مقومات الحضارة بمفهومها الدنيوى ، وأن السمو الدينى وحده مهما يبلغ فلن يكفى لبلوغها هذه القمة ، ولا لمنافستها للأمم الأخرى .

وقد تضمن التشريع الاسلامى جانبا مهما يتحقق بتطبيقه النموذج الاجتماعى الأمثل ، وتتحقق أيضا المحافظة على هذا النمودج لو طبق ، وهذا الجانب يعرف بفروض الكفاية ، وهو من خصائص التشريع الاسلامى ومزاياه .

وفرض الكفاية هو الواجب الذى اذا أداه البعض سقط عن الكل ، واذا لم يؤده أحد أثم الجميع ، وهو موجود فى كل المجالات الدينية

---

(١) ١١٠ سورة آل عمران . (٢) ٤٠ سورة التوبة .

والخلقية والاجتماعية فى التشريع الاسلامى ، ويعتمد فى جوهره على أنه تكليف واجب الأداء ، ولكن لا يطالب به الأفراد ، وانما تطالب به الجماعة كلها . لأن الهدف هو أداء هذا الواجب بصرف النظر عمن يؤديه ، بخلاف العبادات كالصلاة والصوم وكذلك الواجبات الأخرى فالهدف مرتبط بالأفراد أنفسهم فردا فردا ٠

ومما يلفت النظر أن هذا الجانب الحضارى على أهميته الكبيرة من الناحية الحضارية الاجتماعية لم ينل من علماء الاسلام الاهتمام الكافى بتجميع أحكامه وتبويبها وتحديد أهدافها كما فعلوا فى الأحكام الفردية ، ومن المستبعد أن يكون عدم المقدرة هو السبب فى انصرافهم عن هذا الجهد ، فانهم أظهروا فى كل التشريعات الأخرى مقدرة علمية وعقلية كبيرة . ولعل الظروف السياسية كانت من أهم الأسباب فى ضعف جهدهم فى هذا الجانب ، فان وضع تشريع اجتماعى للأمة من حيث هى يعنى أن صاحب السلطة هو المسئول عن تنفيذ هذا التشريع ، وهو المخاطب به ، واتجاه العلماء بصورة جماعية الى الهدف قد يعنى فى تصور البعض أنه تحد للسلطة ، أو اثارة للناس ضدها بتحديد مسئولياتها ، أو نحو ذلك، ولهذا ظلت جهود العلماء فى هذا المجال فردية ومتناثرة ٠

ومن أمثلة فروض الكفاية المشهورة صلاة الجنازة على الميت ، فكل مسلم يموت تجب اقامة صلاة عليه ، ولكن هذا الواجب لا يطالب به فرد أو أفراد معينون ، مع أن هذا ممكن نظريا ، فقد كان يمكن أن يطالب بهذا الواجب أقارب الميت أو ورثته ، أو أمام أقرب مسجد اليه أو نحو ذلك ، ولكن التشريع الاسلامى يجعله واجبا على المجتمع كله بصورة الكفاية ، بمعنى أنه اذا أدى الصلاة بعض المسلمين ولو واحدا سقطت المسئولية عن الجميع ، فاذا لم يؤدها أحد كان كل من يستطيع أداءها ولم يؤدها آثما ٠

وكذلك رد تحية اللقاء وهى السلام ، فاذا لقى شخص جماعة وألقى اليهم تحية السلام وجب عليهم مجتمعين رد هذه التحية ، فاذا رد أى شخص منهم التحية سقط الواجب عن الجميع ، لأن الهدف هو رد التحية وليس تكليف الأفراد اياها ٠

فمن الواضح اذن أن (فرض الكفاية) أو واجب الكفاية يقصد به أداء الشىء المطلوب بصرف النظر عمن يؤديه ، وهذا المعنى هو أبرز سمات الحضارة فى أى أمة ، فحين نجد لدى شعب ما نهضة وتفوقا فى مجال معين كالصناعات لا نقول ان فلانا وفلانا أو هذه الهيئة أو تلك هى صاحبة هذه النهضة ، وانما نتحدث عادة عن الأمة نفسها ، فنقول مثلا ان الشعب

الألمانى متفوق فى كذا ، والشعب اليابانى فى كذا وهكذا ، وكذلك فى حال النصر أو الهزيمة ، لا نقول ان القائد الفلانى أو الجيش الفلانى انتصر أو انهزم أو لا يهمنا الحديث حينئـــذ عن قائد أو جيش لذاته ، وانما لانتسابه الى أمته ، فهى صاحبة النتيجة النهائية ، فنقول مثلا ان الجيش الفرنسى انتصر فى موقعة كذا ، وكل ما نعنيه أن فرنسا نفسها هى التى انتصرت ٠

وكذلك حين يتحدث التاريخ عن أى نهضـــة أو تفوق أو فســاد أو انهيار أو ضعف فى أى أمة لا يعنيه فى الحصيلة النهائية من الذى فعل هذا أو كان سببا فيه وانما تعنيه نسبة هذا الشىء الى الأمة نفسها ٠

وهذا المعنى يصوغه الاسلام فى تشريع هو فروض الكفـــاية التى يخاطب بها المجتمع والأمة ، وليس الأفراد ٠

وأهداف فروض الكفاية أبعد وأكبر من أن تكون محض أهـداف خلقية مثل كثير من التشريعات ، انها تكشف عن المقومات الحضارية التى اذا توافرت لأمة رسمت لها طريقين :

١ ــ طريق الحضارة بمفهومها الدنيوى فضلا عن المفهوم الدينى ٠

٢ ــ طريق المحافظة على هذه الحضارة واســـتمرارها ، وقد تكون المحافظة على الشىء أهم وأصعب من الحصول عليه ٠

وقبل أن نلقى نظرة على أهم جوانب هذا النوع من التشريع ينبغى أن يكون واضحا أن المفترض أن الاسلام قد بنى فعلا هذا المجتمع الذى يخاطبه بهذا التشريع ، وأن بناء هذا المجتمع قوى صلب ، لأنه يتكون من أفراد يفترض أيضا أنهم متمسكون بدينهم عقيدة وسلوكا ، ومادامو متمسكين به فلابد أن يكونوا نماذج صالحة ، وسيكون المجتمع الذى يتكون منهم مجتمعا صالحا للدين والدنيا معا ، فان هـــذا هو الهدف الحقيقى للاسلام ٠

وأما أهم جوانب هذا التشريع الحضارى فى الاسلام فهى :

١ صيانة الكيان الاجتماعى من الفساد :

فمن المعروف أن من أهم أسباب انهيار حضـارة أى أمة انتشـار الفساد الخلقى فيها ، وتبلغ هذه الظاهرة درجة الخطورة حينما يصـــبح الفساد عرفا شائعا فى المجتمع ، لا يجد انكارا عليه ٠

والفساد هو كل انحراف عن قيم المجتمع ، سواء أكانت دينية أم خلقية أم اجتماعية ، كالعادات التى تمثل أخلاق المجتمع وتقاليده المرضية ٠

والاسلام يضع تشريعا لحماية مجتمعه من هذه الظاهرة ، فيما يعرف بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو من أشهر فروض الكفاية فى الاسلام ، حيث يجب بمقتضاه على كل فرد رأى منكرا ـ وهو كل مخالفة للتشريع ـ أن ينهى عن هذا المنكر حتى يتغير ، فاذا أدى هذا الواجب أى أحد وزال المنكر سقطت المسئولية عن الجميع ، فاذا لم يؤد هذا الواجب أحد كان الجميع آثمين ، وفى القرآن (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠٠) (١) وفى الحديث النبوى (من رأى منكم منكرا فليغيره ، بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقبله ، وذلك أضعف الايمان) وينعى القرآن على بعض السابقين شيوع المنكر بينهم دون أن ينكروه ، فيقول عنهم (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (١) ٠

وقمة الصلاح الاجتماعى أن يتحول الأفراد الى سلطة اجتماعية يخشاها كل من يفكر فى مزاولة منكر ٠

ولا شك فى أن تفريط المسلمين فى أداء هذا الواجب كان من أسباب ضعفهم ٠

٢ ـ العلم :

ومن الواضح أن العلم جوهر الحضارة ، وأن أى نهضة فى أى مجال فكرى أو تجريبى أو فنى أو اقتصادى أو عسكرى أو غير ذلك لا تعد عنصرا حضاريا ولا بقاء لها اذا لم تقم على علم ٠

والاسلام يولى العلم اهتماما لا يوليه لشىء قط بعد الايمان بالله ، بل يجعل العلم أقرب الطرق الى الايمان ، ويجعل العلماء أشد الناس احساسا بعظمة الله ، لأن العلم يجعلهم يؤمنون بالله عن معرفة ، ويكتشفون من قدرته ما لا يكتشفه غيرهم ، وفى القرآن (انما يخشى الله من عباده العلماء) وكأنه يقول ان المؤمنين بالله كثيرون ، ولكن العلماء وحدهم هم الذين يخشون الله ، لأن العلم يجعلهم يعرفون صفاته على حقيقتها ٠

---

(١) ١٠٤ سورة آل عمران ٠ (٣) ٧٩ سورة المائدة ٠

والقرآن بطبيعة هدفه يجعل المؤمنين بالله فى الدرجة العليا ، ولكننا نجده يقرن بهم طائفة واحدة ، هى طائفة العلماء ، فيقـــول (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) (٢) وفى حديث القرآن عن العلم نجد النظرة العلمية الحقيقية فى أن العلم لا حـــدود له ، فيقول (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (٣) وبأن العالم الحقيقى مهما يبلغ فشعاره الاستزادة من العلم ، فيقول (وقل رب زدنى علما) (٤) وكثير جدا غير ذلك فى القرآن عن العلم وتمجيده ، ولكن الأمثـــلة السابقة تتضـــمن أسس الاتجاه العلمى المثمر ، ومن أبرز ما فيها اثارة اهتمام الأمة بالعلم والعلماء ، وأن يكون البحث العلمى متواصلا شعاره الاستزادة الدائمة ، وأن ما لديها من العلم مهما يبلغ فهو قليل بالقياس الى ما تطمح اليه ، وأن يكون هدف العلماء بناء ، وخصوصا فى بناء المبادىء وليس هدمها ٠

ومزاولة العلم الذى تحتاج اليه الأمة فى معيشتها وحضارتها بصفة عامة هو من فروض الكفاية ٠

٣ ـ العمـل :

الاسلام ينظر الى العمل على أنه جزء من الدين نفســـه ، ومزاولة الشخص لكل ما يتعلق بالحياة والمعيشة وبقاء النوع على الوجه المشروع فهو نوع من العبادة ، ومهما تفرغ المسلم للعبادة الروحية بدون عمـل دنيوى فأداؤه للدين غير كامل ، ولذلك يقترن الايمان فى القرآن عادة بعمل الصالحات ، وهـــذا كثير جدا ، مثل (الذين آمنـوا وعمـــلوا الصالحات) (١) وعمل الصالحات يعنى كل عمل مشروع ، ولذلك ورد فى الأحاديث النبوية أن السعى على الرزق عبادة ، واعالة الأسرة عبادة ، واعطاء الزوجة حقها جسديا عبادة ، وأن الجهد فى العمل مما يـــكفر السيئات ، من مثل (من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفورا له) وفى القرآن حث للناس على أن يلتمسوا الرزق فى كل وجوه الأرض ، لقوله تعالى (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه) (٢) بمعنى أن الله سخر الأرض كلها للناس ، وجعـل فى برها وبحرها وسمائها رزقا للناس فى أنواع لا تحصى من الرزق ، فيأمر الله

---

(١) ٨٥ سورة الاسراء ٠
(٢) ١١ سورة المجادلة ٠
(٣) ١١٤ سورة طه ٠
(٤) ٩٦ سورة مريم ونحو ستين موضعا آخر فى القرآن ٠
(٥) ١٥ سورة الملك ٠

الناس بأن يبحثوا عن أنواع هذا الرزق فى كل وجوه الأرض ومسالكها وأغوارها .

واهتمام الاسلام بالعمل نابع من كونه لا يقتصر فى تشريعه على العبادات الروحية ، وانما يهدف الى الجمع بين الدين والدنيا ، أى الجانب الروحى والجانب المادى ، ودرجة المؤمن تقاس فى الاسلام بمقدرته على الجمع بينهما مع التزام مبادىء التشريع فيهما ، والتقصير فى أحدهما نقص فى الدين ، كما أن المبالغة فى أحدهما على حساب الآخر أيضا نقص فى الدين ، وفى الحديث النبوى المشهور أن النبى صلى الله عليه وسلم لام ثلاثة من أصحابه من هذا النوع ، أحدهم ألزم نفسه أن يصلى طول الليل لا ينام فيه أبدا ، والثانى ألزم نفسه أن يصوم حياته كلها لا يفطر ، والثالث ألزم نفسه ألا يقرب النساء تفرغا للعبادة ، وكان مما قاله لهم (انى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وآتى النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى) وفى التعبير الأخير تنفير شديد من الافراط فى العبادة الروحيـــة ، لأنه ولا شك سيكون على حساب العبادة المعيشية .

ومجال فرض الكفاية هنا ليس العمل الخاص بالأفراد ، فهذا المجال وان كان يعـود على المجتمع والأمة الا أنه يعـــود بطريق غير مباشر ، أما فرض الكفاية فهو العمل الذى تحتاجه الأمة بطريق مباشر كالمشروعات والمرافق العامة ، وكالعمل فى الموارد العامة للأمة مثل استخراج النفط والمعادن واستثمار الأملاك العامة ونحو ذلك .

فأى مجال يمكن استثماره ، وتقتضـــيه مصـلحة الأمة ، كمورد اقتصادى أو اختراع مفيد أو أى مجال نافع اقتصاديا أو علميا أو عمرانيا أو طبيا أو غير ذلك من مجالات الحضارة والمصلحة العامة وجب على الأمة فى مجموعها أن تنجزه ، فاذا أداه البعض سقطت المسئولية عن الكل ، واذا لم يؤده أحد أذنب كل قادر على الاسهام فى انجازه ولو بالدعوة الى ذلك .

٤ ـ الوحدة والتضامن :

من الواضح اليوم أن العالم كله يتجه الى التجمع والترابط فى كتل وأحلاف ، سواء أكانت قائمة على مصـــــلحة اقتصادية أو بيئيـة جغرافية ، أو مذهب سياسى أو دينى أو فكرى ، لأن صراع المصالح والقوى فى العـــالم ينتهى بهم الى هذه الوســـيلة وهى الاتحاد والتجمع الذى لا تختلف العقول فى أنه من أبرز صور القوة وأنجحها .

والاسلام يؤكد هذا الهدف فى كيان الأمة الاسلامية ووحدتهـــا ويجعله تشريعا ، بل يتحدث القرآن عن هذا على أنه حقيقة موجودة فيقول (ان هذه أمتكم أمة واحدة) (١) ويترتب على هذا أنه حين يحدث تصدع فى هذه الوحدة فالمسلمون محاسبون ومسئولون عنه ، على أساس أنهم صدعوا كيانا الأصل فيه الوحدة والترابط والتضامن ، ويحذرهم القرآن من صدع هذه الوحدة مبينا لهم أن نتيجة تصدع الوحدة سيكون الفشل فيقول (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (٢) ٠

ومن آثار أن وحدة الأمة الاسلامية هدف جوهرى فى الاسلام أن لها تشريعا يعالج الأحوال الواقعية التى تعرض للشعوب والأمم ، ومن أهمها التصارع فى داخلها حول المصالح والأهواء أحيانا حتى يصل الى درجة الحروب ، فاذا حدث هذا نجد علاجه فى فرض من فروض الكفاية ، وهو وجوب المصالحة بين الفريقين المتخاصمين ، فاذا تمادى أحد الفريقين فى بغيه يجب على المسلمين قتاله ، وكل هذا ، سواء المحافظة على وحدة الأمة ، والاصلح بين المتخاصمين ، وقتال الباغين ، واجب على المســلمين جميعا بطريق فرض الكفاية ، فاذا أداه البعض بحيث تتحقق به النتيجة المطلوبة سقطت المسئولية عن الجميع ، واذا لم يؤده أحد أثم كل قادر على الاسهام فيه من المسلمين ، وفى القرآن (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله) (١) ٠

٥ ـ التعاون والتكامل :

المجتمعات كما يقول ابن خلدون ، وكما هو الواقع ، صورة مكبرة من الأفراد ، وسنن الحياة التى تجرى على الأفراد تجرى على المجتمعـــات والشعوب ، وكما أن الفرد لابد أن تقوم حياته على التعاون والتفاعل مع المجتمعات ، كذلك المجتمعـــات لا تنتظم حياتهـــا ولا تنمو حضارتها الا بالتعاون والتفاعل مع المجتمعات الأخرى ٠

والاسلام لا يقبل ما يشيع فى التعامل الدولى من حرص كل دولة على مصلحتها ولو كان فى هذا اضرار متعمد بالدولة الأخرى ، فكل تعامل وتعاون سواء أكان بين المجتمعات الاسلامية بعضها بعضا ، أم بينها وبين

---

(١) ٩٢ سورة الأنبياء ٠

(٢) ٤٦ سورة الأنفال ، وريحكم : قوتكم ٠

(٣) ٩ سورة الحجرات ٠

مجتمعات أخرى لابد أن يكون محكوما بالتشريع والخلق ومن ذلك فى القرآن (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٢) والنهى عن التعاون الضار مصوغ فى القـــاعدة الاســـلامية (لا ضرر ولا ضرار) فكما أن من حق الانسان رفض الضرر الموجه اليه من غيره ، فعليه أن يتجنب الاضرار بغيره ٠

والأمر بالتعاون فرض من فروض الكفاية ، فحيث يوجد أى عمل أو مشروع تقتضيه مصلحة الجماعة أو الأمة فالتعاون على تحقيقه واجب على كل قادر على الاسهام فيه ، ولكن اذا تولى البعض هذا الهدف بالصورة الكافية سقطت المسئولية عن الجميع ، فاذا لم يؤده أحـــد كان الجميع مذنبين ٠

ولو أن الأمة الاسلامية طبقت هذا الواجب الاســـلامى لحلت كل مشاكلها ، بل لبلغت قمة القوة فى كل مجالاتها ، وعلى سبيل المثـال نجد بعض الشعوب الاسلامية يتعرض لمجاعات قاتلة مع أن لديه مساحات شاسعة من الأرض الصالحة للزراعة أكثر من حاجته ، ولكن تنقصه امكانات القدرة على تمويل مشروعات الزراعة وآلاتها ، وأحيانا الأيدى الخبيرة فى الزراعة ، بينما هذه الامكانات الاقتصادية موجودة فى شعوب اسلامية أخرى لا تجد مجالا لاستثمارها ، وكذلك توجد الخبرة الفنية الفائضة لدى شعوب اسلامية أخرى ٠

ولو أن هذه الشعوب طبقت واجب التعاون ونسقت امكاناتها لكان لها شأن غير شأنها ٠

٦ ـ القـــوة :

كل تاريخ البشرية يؤكد أن القوة محور الحياة المعيشية ، وأن الحق بدون قوة كسير الجناح ، وأن الحضارة بدون قوة تحميها مهددة بالدمار ٠

ومن واقعية التشريع الاسلامى أنه يدعو الى القوة لحماية مبادئه ، ولحماية حضارته ٠ فالفرد محتاج الى القوة للمحافظة على خلقه ومبادئه ، لأن الضعيف قد يضطر الى التخلى عن مبادئه وخلقه فى بعض المواقف ، ولذلك جاء فى الحديث النبوى (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير) ٠

---

(١) ٢ سورة المائدة ٠

والأمة محتاجة الى القوة لحماية كيانها وحقوقهـــا ، ولذلك أوجب القرآن على المسلمين ايجاد قوة تحمى كيان أمتهم حيث يقول الله سبحانه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (١) وبعض الناس يفهم أن مضمون هذه الآية دعوة الى استخدام القوة والعنف ، مع أن ألفاظها حين نتأملها نجدها واضحة الدلالة على المعنى الحضارى للقوة فى أحدث وأدق ما يعرفه الناس للقوة ، وذلك كما يلى :

(أ) الآية تدعو الى اعداد كل جوانب القوة المستطاعة (ما استطعتم من قوة) والقوة تشمل كل المقومات الحضارية فى الأمة من علم واقتصاد وعمران وتنظيم لكل شئون الحياة ، والقوة العسكرية ليست الا عنصرا فى قوة الأمة ، غاية الأمر أنه عنصر بارز ، وهذا واضح فى تعبير القرآن ، وكأنه يقول : أعدوا لهم كل مقومات القوة وخصوصا القوة العســكرية (ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) ولن تكون أى أمة قوية بجيشها وحده ، بل باقتصادها ومواردها وحضارتها فى مختلف الجوانب ٠

(ب) الهدف الواضح فى الآية أن اعداد القوة ليس لاستخدامها ، وانما لحماية الأمة من مطامع الأعداء ، فحينمـــا تكون للأمة قوة يرهبها الأعداء فلن يطمعوا فيها ، وهذا صريح لفظ الآية ، فان الهدف (ترهبون به عدو الله وعدوكم) وهو ما يعرف بالحرب النفسية أو الباردة ، وكون القوة العسكرية فى الاسلام هدفها الأصلى ليس القتال وانما كف مطامع الأعداء هذا واضح فى منهج القرآن كله ، ومن ذلك قوله تعالى (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) (١) فالله يأمر الرسول بالقتال فى ســبيل الله ، وبأن يحرض المؤمنين على القتال ، ولكن الهدف ليس القتال لذاته ، وانما كف مطامع العدو وعدوانه ، ومعنى ذلك بوضوح أنه اذا كف العدو عدوانه فلا حاجة للقتال ، من باب قوله تعالى فى موضع آخر يمن على المسلمين أن جنبهم شر القتال (ورد الله الذين كفروا لم ينـــالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال) (٢) ٠

(جـ) مما يؤكد أن هدف القرآن من الأمر بالقوة انما هو حماية الأمة الاسلامية حيث تكون مرهوبة الجانب من أعدائها أن القرآن يلفت نظر المسلمين الى أن اعداد كل مقومات القوة التى يجب أن تكون موجودة لديهم

---

(١) ٦٠ سورة الأنفال ٠ (٢) ٨٤ سورة النساء ٠

(٣) ٢٥ سورة الأحزاب ٠

بصفة دائمة ليست لاثارة الرهبة فى نفوس الأعداء الظاهرين فقط ، وانما لكل من تراوده نفسه بالطمع فى الأمة الاسلامية من أعدائها غير الظاهرين ، وهذا واضح فى تعبير الآية السابقة (ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم) .

والنتيجة الأخيرة أنه يجب على المسلمين اعداد كل مقومات القوة فى مدلولها العام من علوم واقتصاد وموارد وغير ذلك ، وفى مدلولها الخاص وهو القوة العسكرية ، وأن يكون هذا الاعداد له صـــفة الدوام والتهيؤ والاستعداد ، وهذا كله من فروض الكفاية من حيث انه واجب عام على المسلمين جميعا ، ولكن اذا أدى هذا الواجب بصورة كافية بعض المسلمين سقطت المسئولية عن الجميع ، فاذا لم يؤده أحد بالصـــورة التى تحقق الغرض المنشود كان الجميع مذنبين .

ولو أننا درسنا هذا الجانب من التشريع الاجتماعى فى الاسلام وهو جانب فروض الكفاية فسنجد فيه تشريعا حضاريا متكاملا لبناء المجتمعات والدول ، يقوم على أساس ثابت ، ويحقق فى الوقت نفسه أقوى صور الحضارة والعمران .

العقوبات

يمكن الالمام بأهم ما يتعلق بالعقوبات فى الاسلام كما يلى :

النوع

من حيث النوع تقوم العقوبات فى الاسلام أساسا على ثلاثة أنواع :

١ ـ أحدها القصاص ، وهو العقوبة المحددة للجناية على الغير ، فى النفس أو فى أحد الأعضاء ٠

٢ ـ وثانيها الحدود ، وهى عقوبات محددة لجرائم معينة ، هى الزنا والسرقة والقذف وشرب الخمر والافساد فى الأرض ٠

٣ ـ وثالثها التعزير ، وهو عقوبة يفوض الحاكم أو من ينوب عنه كالقضاء فى تقديرها على من يرتكب جرما لا يدخل فى نطاق القصاص أو الحدود ، فيقدرها بما يحقق الغرض من العقاب ، سواء بالسجن أو الضرب أو اللوم أو الغرم المالى أو غير ذلك ٠

وقوانين العقوبات المعمول بها حاليا والتى تتعلق بكل ما ليس من باب القصاص أو الحدود تعد من قبيل التعزير ٠

الحقوق :

ومن حيث ملكية الحق فى العقاب تنقسم العقوبات فى الاسلام ثلاثة أقسام :

(أ) قسم هو حق لله ، بمعنى أن الله هو صاحب الحق فى العقاب ، ويترتب على ذلك أنه لا يملك أحد العفو عن الجانى اذا ثبتت عليه الجناية فى هذا النوع ، وتسمى عقوبات هذا النوع الحدود ، وهى خمسة حدود :

١ ـ حد الزنا

٢ ـ حد السرقة

٣ ـ حد القذف

٤ ـ حد شرب الخمر

٥ ـ حد الافساد فى الأرض ، ويسمى أيضا حد الحرابة ، وحد قطع الطريق ، وفى كل حال فالتسمية فى هذا الحد مأخوذة من صفة الجريمة ، فقد وصفها القرآن بأنها افساد فى الأرض ، وبأنها محاربة لله ورسوله ، ومن الناحية الواقعية هى قطع الطريق ، وهذا الحد كما سيأتى له عقوبة واجبة ، ولكن تحديدها متروك الى الحاكم أو من ينوب عنه كالقضاء ، لأن جرائم قطع الطريق مختلفة ، فقد تتضمن القتل أو السرقة أو الاغتصاب ، فالعقاب متروك للحاكم يقدره حسب نوع الجريمة ، وحسب الوسيلة التى يراها أجدى فى تحقيق الأمن للمجتمع ، ولكون الحاكم مفوضا فى هذا النوع ، لذلك فان بعض فقهاء الاسلام يعده من باب التعزير ، وليس من باب الحدود ، بينما الفقهاء الذين يعدونه من الحدود ينظرون الى أن مبدأ العقاب فيه واجب ، ولا يجوز العفو عنه اذا ثبتت الجريمة ، والتفويض منصب على نوع العقوبة ، وليس على مبدأ العقاب .

والأمر المهم هنا أن هذه الحدود حق لله ، وحين تثبت على شخص فلا يملك أحد العفو عنه ، بل يجب تنفيذ العقاب فيه .

وهذا النوع يقابله فى التشريعات الوضعية الحديثة القانون الجنائى .

(ب) القسم الثانى حق للناس ، وهو القصاص ، فالمجنى عليه فى القصاص هو صاحب الحق فى تنفيذ العقوبة أو العفو عن الجانى ، وذلك فى الجناية على الأعضاء ، فاذا قطع شخص يد شخص آخر ، فالمجنى عليه هو صاحب الحق ، أما فى الجناية على النفس بالقتل فان الحق ينتقل الى ورثة القتيل ، فيصبحون هم أصحاب الحق فى تنفيذ العقوبة أو العفو عن الجانى .

وذلك كله يتم عن طريق الحاكم أو نائبه وهو القضاء .

ويقابل هذا النوع فى التشريعات الوضعية الحديثة القانون المدنى ، الذى يعالج الحقوق المدنية ، وهى تتميز بأن صاحب الحق يملك تنفيذ العقوبة كما يملك العفو عن الجانى أو الخصم ، كما فى حالة الدائن والمدين .

والفرق كبير بين نوعية هذا الحق فى التشريع الاسلامى والتشريعات الوضعية الحديثة ، فالحقوق المدنية فى التشريعات الحديثة تدور حول

الحقوق المادية والأدبية ، أما فى التشريع الاسلامى فيضاف الى ذلك التعدى على النفس وعلى الأطراف التى يعبر عنها بجرائم القتل وجرائم العاهات ٠

وسنرى أن للاسلام حكمة اجتماعية شديدة الأهميـــة فى جعلـه القصاص حقا مدنيا ٠

(ج) القسم الثالث التعزير ، وهو حق للحاكم أو من ينوب عنه فيما يتعلق بالعقوبات وهو القضاء ، باعتباره مسئولا عن تنظيم الحيـاة الاجتماعية وحمايتها واصلاحها ، ومعنى ذلك أن عقوبات هذا القسم فى حقيقتها حق للمجتمع ، والحاكم نائب عنه ٠

فاذا كانت الجناية أو المخالفة لا تدخل فى نطـــاق أحد القسمين السابقين فعقوبتهـــا تسمى تعزيرا ، وهى حينئذ غير محددة ، لأنهـا لو كانت محددة لكانت ضمن أحد القسمين السابقين ، الحدود والقصاص ، فالحاكم أو من ينوب عنه هو الذى يملك تحديدها ، ويملك تنفيذها أو العفو عنها حسبما تقتضيه المصلحة العامة ، ويتحقـق به الهـدف من العقوبة ٠

أهداف العقوبات

لا خلاف حول أن العقوبة جزاء عن جرم ارتكب ، فليس هناك خلاف من الناحية التشريعية ، ولكن يوجد خلاف بين بعض فقهاء الاسلام حول فلسفة العقوبات الاسلامية أو حول فهمهم للحكمة من ورائها ، فيما يعرف بتعبير : هل العقوبات زواجر أم جوابر ، بمعنى أن بعضهم يرى أن الهدف من العقاب هو زجر الآخرين حتى لا يحاول أحد تكرار هـذه الجريمة ، فحينما يرى العقاب منصبا على المجرم يرتدع ولا يقدم على الجريمة ، وبعضهم يرى أن الهدف من العقاب هو انزال الجزاء بالمجرم فيكون هذا تكفيرا للذنب الذى اكتسبه بمزاولة الجريمة ، فالعقـوبة حينئـذ تجبر الخلل الذى أحدثه ارتكاب الجريمة فى تدين مرتكبها ، فيصبح بعد العقوبة طاهرا من هذا الذنب ٠

وفى القرآن ما يشير الى الاتجاهين ، فأحيانا يشير الى الزجر كقوله تعالى فى سياق عقاب الزانيين (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (١) فهذا أمر صريح بأن تكون العقوبة علنية فى جمع من الناس ليكون هذا زجرا لكل من تسول له نفسه مزاولة هذه الجريمة ، وأحيانا يشير القرآن الى أن العقوبة مجازاة للجانى ، حيث يقول (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله) (٢) وحيث نال جزاء جريمتـه يسقط عنه ذنب هذه الجريمة ٠

---

(١) ٢ سورة النور ٠ (٢) ٣٨ سورة المائدة ٠

فالخلاف ليس حول كون العقاب جزاء على الجريمة ، وانما حول مسألة الزجر عن تكرار الجريمة ، أو التكفير عنها ·

ولكن عند القاء نظرة على روح التشريع الاسلامى كله فيما يتعلق بالعقاب نجد القصد الأوضح دائما هو الزجر عن مزاولة الجريمة ، وليس تكفير الذنب ، وذلك لما يأتى :

١ ـ تكفير الذنوب عند الله طريقه دائما التوبة الى الله وليس العقاب ، فحينما يشعر المجرم بالندم ويتوب الى الله فيما بينه وبين نفسه فهذا سبيل الغفران عند الله ، بينما لو تصورنا مجرما يصر فيما بينه وبين نفسه على تكرار مزاولة الجريمة فمهما نزل به من عقاب فلا يتصور أن يكون العقاب تكفيرا لذنبه وهو مصر على معاودته ·

٢ ـ من الملحوظ بوضوح أن التشريع الاسلامى لا يصر على تنفيذ العقوبة الا بوصفها آخر الحلول ، بل نراه دائما يلتمس الوسائل لتفادى تنفيذ العقوبة ، ففى كل جرائم الحدود نجد الحديث النبوى (ادرأوا الحدود بالشبهات) فمع ارتكاب الجريمة التى توجب الحد ادا وجدت أية شبهة يستفيد بها الجانى فى موقفه فان التشريع يترك جانب ثبوت الجريمة مع أنه أقوى ، ويميل الى جانب الشبهة مع أنه أضعف ، فتسقط العقوبة ، كالسارق الذى تثبت عليه السرقة ولكن توجد شبهة أنه سرق بسبب الجوع أو الحاجة الضرورية الملحة ، فتسقط عقوبة الحد ، وكذلك فى عقوبة القصاص ، فمع ثبوت الجريمة على الجانى الا أن التشريع دائما يدعو الى العفو عنه ، بل يجعل الترغيب فى العفو أول ما يعرض على المجنى عليه ، وكذلك فى حد المفسدين فى الأرض كقطاع الطرق نجد التشريع الاسلامى يحدد صنوفا رادعة عنيفة من العقاب ، ولكنه يلغى كل هذه العقوبات مهما صدر منهم من جرائم اذا جاءوا تائبين من تلقاء أنفسهم قبل أن يقعوا فى قبضة السلطة ، وفى القرآن (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) (١) ومن أمثلة الدعوة الى العفو عن الجانى فى القصاص قوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله)(٢) وأمثلة الغاء عقوبة الحدود لوجود الشبهة كثيرة تنفيذا للحديث الشريف المشار اليه (ادرأوا الحدود بالشبهات) ومن ذلك أن عمر بن الخطاب فى خلافته عطل حد السرقة فى العام الذى حدثت فيه

---

(١) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ سورة المائدة · (٢) ٤٠ سورة الشورى ·

المجاعة فى المدينة ، وقد أقر الصحابة والمسلمون جميعا هـذا الحـكم فأصبح اجماعا ٠

ويتضح من كل هذه الأمثلة أن الاسلام لا يهدف الى العقاب لذاته ، ولا يحرص على تنفيذ العقوبة مع أنها جزاء عادل ، وانما يحرص عـلى اصلاح المجتمع وتحقيق الأمن فيـه ، وحمايته من شيـوع الفسـاد والاضطراب ، فمتى تحقق هذا فلا حاجة للعقاب الدنيوى ، لأن الأصل فى عقاب الله وثوابه أن يكون فى الآخرة ، أما الدنيا فالتركيز كله منصب فيها على اصلاح المجتمع ٠

ومن قبيل هذا الهدف أننا نجد فى العقوبات الاسلامية ما يشبه فى مظهره التناقض بين شدة العقوبة ورهبتها من جهة ، ومحاولة التشريع الحيلولة دون تنفيـذها من جهة أخرى ، كعقوبة الزنا ، فهى للزانيـه أو الزانى المحصن (المتزوج) الرجم بالحجارة حتى الموت ، وفى الوقت نفسه يجعل أثبات جريمة الزنا عن طريق الشهود شبه مستحيـل من الناحية الواقعية كما سيأتى ، ولا يمكن أثباتها الا عن طريق الاعتراف الذى هو جوهر التوبة ، ولكن الحقيقة أنه لاتناقض ، لأن التشريع الاسلامى يجعل هذه الشدة فى تحديد العقوبات ردعا وزجرا لمن يحاولون الافساد فى المجتمع ، فاذا تحقق صلاح المجتمع وأمنه فان التشريع يحاول تجاوز العقاب الدنيوى تاركا المجال للجانى ليصلح ما بينه وبين الله فى دينه ، وما بينه وبين المجتمع فى سلوكه ، واذا لم يفعل فان فى الآخرة من العقاب ما هو أشد من عقاب الدنيا وأنكى ، على أن محاولة التشريع أن يجنب الجانى تنفيذ العقاب فيه منظور فيه أيضا الى اصلاح المجتمع ، وعلى سبيل المثال فان اثبات جريمة الزنا يترتب عليه فى العادة ضرر اجتماعى يلحق سمعة أقارب المرأة وأقارب الرجل أيضا ، فضلا عما قد يثور من تشكيك فى نسب ما قد يكون لدى هذه الزانية من أولاد ، وما قد يلحق سمعة النساء اللاتى كان هذا الزانى على صلة أو اختلاط بهن ، ولو كانت صلة بريئة ، وغير ذلك من الآثار ٠

ففى كل الأحوال نجد تشريع العقوبات فى الاسلام يدور حول اصلاح المجتمع ، وليس حول مجازاة الجانى ؛ ولا حول التكـافوء بين موضوع الجريمة وحجم العقوبة ؛ وذلك كقطع اليد فى سرقة دينار واحد ، فلا تناسب بين قيمة اليد وقيمة الدينار ، لأن العقوبة لم تقدر على أساس قيمة الشىء المسروق ، وانما على أساس السرقـة نفسـها من حيث هى تهديد لأمن المجتمع ، وهذا مركز خطورتها ٠

وقد عبر الشاعر العربى القديم أبو العلاء المعرى من حيث لا يقصد عن جانب مهم من أهداف العقوبات فى الاسلام ، حين أبدى تعجبه من أن

تكون دية اليد خمسين من الابل ، ثم يواصل تعجبه متسائلا (فما بالها قطعت فى نصف دينار ؟) فقد وجد غرابة فى أن تقطع اليد من أجل نصف دينار فى السرقة ، بينما ديتها خمسين من الابل فى القصاص ، والواقع أن المثال الذى ساقه المعرى هو من أوضح الأمثلة على أن العقوبات فى الاسلام تدور حول اصلاح المجتمع ، فان اليد تقطع اذا سرقت ولو نصف دينار ، لأنها أصبحت مصدر خطر وتهديد لأمن المجتمع على ماله ، ومن ناحية أخرى فان تحقيق أمن المجتمع على نفسه يقتضى تشديد العقاب حتى لا يجرؤ أحد على العدوان على غيره ، فاذا قطع شخص يد شخص آخر فان الدية حينئذ خمسون من الابل ، بل ان العقوبة الأصلية فى هذه الحالة القصاص ، وهو قطع يده ، الا اذا تنازل المعتدى عليه عن القصاص وقبل الدية ٠

القصاص

القصاص فى التشريع الاسلامى أن يأخذ المعتدى عليه حقه من المعتدى مماثلا للعدوان الذى وقع عليه ، سواء أكان العدوان على النفس أم على الأطراف ، فاذا وقع الاعتداء على عضو كاليد أو الرجل أو الاصبع فالمعتدى عليه من حقه القصاص بأن ينال من المعتدى بمثل ما ناله هو من اعتداء ، الا اذا عفا عن المعتدى أو قبل الدية التى هى تعويض مادى محدد لكل عضو من أعضاء الجسم ، وكذلك فى القتل المفروض أن القصاص حق للمقتول ، ولكن موته ينقل حق القصاص الى ورثته ٠

وعلى الحاكم أو من ينوب عنه كالقضاء أن يعمل على تحقيق أمرين ، أحدهما أن يتحرى بكل الوسائل المشروعة ثبوت الحق للمعتدى عليه ، والآخر أن يضع سلطته فى خدمة المعتدى عليه حتى يأخذ حقه ، سواء بالعفو بعد المقدرة ، أو أخذ الدية ، أو تنفيذ القصاص ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص) (١) وأيضا (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (٢) ٠

فالقاعدة العامة فى التشريع الاسلامى أن الاعتداء المتعمد جزاؤه القصاص بالمثل ٠

---

(١) ١٧٨ سورة البقرة ٠ (٢) ٤٥ سورة المائدة ٠

حق القصاص وحكمته :

مما قد يبدو غريبا ويثير التساؤل : كيف يحكم الاسلام بأن القتل أكبر جريمة بعد الكفر ثم يجعل عقوبته حقا مدنيا يجوز العفو عن الجانى فيها ، بينما يجعل جرائم أقل منه بكثير كالسرقة وشرب الخمر حقا جنائيا لله لا يجوز العفو عن الجانى فيها حين تثبت ؟

والجواب عن ذلك أن قتل النفس حقيقة هو أكبر جريمة بعد الكفر ، ولم يغلظ العقاب فى جريمة كما غلظ فى القتل ، وفى القرآن (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذابا عظيما) (١) بل يجعل القرآن قتل النفس الواحدة كأنه قتل للبشرية كلها ، لأن الفرد رمز للآدمية ، ولذلك يقول الله فى القرآن (من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) (٢) .

ولهذه الخطورة الشديدة فى قتل النفس جعل الاسلام عقوبة القتل حقا مدنيا يملكه الناس فيملكون العفو فيه ، وليس حقا لله كالحدود التى لا يملك أحد العفو فيها .

ومن أوضح جوانب الحكمة فى هذا :

١ ـ أن القصاص لو كان حقا لله لوجب قتل القاتل فى كل الأحوال ، فبدل أن تكون حالة القتل واحدة تصبح حالتين ، هما القتيل والقاتل ، والحكمة فى القصاص أنه شرع لمنع اراقة الدماء ، كقوله تعالى (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) (٣) ولكن كونه حقا للعباد يتيح فرصة فى كثير من الأحيان للعفو عن القاتل أو قبول الدية ، فتنقذ حياة القاتل مع حسم المشكلة اجتماعيا لأن العفو لابد أن يصدر عن أولياء الدم الذين لهم حق المطالبة بالقصاص ، وحينئذ يبقى عقاب القاتل عند الله .

٢ ـ كما سبق القول ، فان الحكمة العامة فى عقوبات الاسلام أنها تدور أولا حول اصلاح المجتمع واقرار الأمن فيه ، وأوضح ما يكون هذا فى القصاص ، فحينما يقتل شخص فان كثيرا من المجتمعات فى أنحاء العالم تؤمن بعادة الثأر ، فضلا عن أن الرغبة فى الانتقام نزعة بشرية عامة ، فيحدث شقاق فى المجتمع بين المتعصبين للقتيل والمتعصبين للقاتل ، وكثيرا ما تستمر سلسلة الثأر بين الجانبين الى آماد طويلة ،

---

(١) ٩٣ سورة النساء .
(٢) ٣٢ سورة المائدة .
(٣) ١٧٩ سورة التوبه .

والمعنى الذى يسيطر على المطالبين بالثأر فى العادة هو أنهم يشعرون بأن القاتل اعتدى على كيانهم الاجتماعى ، ولا يشفى نفوسهم حينئذ الا أن يشعروا بأنهم يملكون الانتقام من القاتل ، وكون القصاص حقا مدنيا يحقق لهم هذا الشعور حيث يشعرون بأن قتل القاتل حق لهم ، يملكون طلب تنفيذه ، ويملكون العفو عنه ، فهذا الشعور يريح نفوسهم ، ويجعلهم مهيئين حتى للعفو عن القاتل فى بعض الأحيان ٠

وقد كان من أهم أسباب فشل القوانين الوضعية فى علاج عادة الثأر أنها لا تراعى مشاعر أولياء الدم (أقارب القتيل) فتجعل عقوبة القتل حقا جنائيا ليست لأولياء الدم صفة أصلية فيه ، فيحاولون الانتقام بأنفسهم ، ولذلك يتردد على ألسنة طالبى الثأر دائما قولهم انهم يريدون أن يأخذوا حقهم بأنفسهم ٠

هذا بينما كان التشريع الاسلامى أنجح تشريع فى علاج عادة الثأر لأنه يراعى مشاعر أولياء الدم ، بل يجعلهم الأساس والمحور ، حيث يجعل فى يدهم ملكية حق العقاب أو العفو وذلك بجعل القصاص حقا مدنيا ٠

ومما يدل بوضوح على أن التشريع الاسلامى يركز اهتمامه على اصلاح المجتمع قبل العقاب لذاته أنه يسلك فى حالة القتل ومع ثبوت الجريمة على القاتل عدة وسائل لمحاولة انقاذ حياة القاتل ولكن فى اطار هدف معين هو المحافظة على أمن المجتمع وحسن الصلات بين أفراده ، ومن هذه الوسائل دعوة أولياء الدم الى العفو ، ثم الى قبول التعويض المادى وهو الدية ، فاذا لم يفلح ذلك فى انقاذ القاتل ، وأصر أولياء الدم على الانتقام فان القصاص حينئذ يكون هو الحسم للقضية اجتماعيا ، لأنه هو الذى يريح نفوس أولياء الدم ، وفى الوقت نفسه هو العدل ، فلا تترتب على قتل القاتل مشاكل اجتماعية ، لأن التشريع حينئذ هو الذى قتله وليس أولياء الدم ٠

٣ ــ هناك أمر يتعلق بالدافع الى الجريمة ، وهو الاختلاف فى أغلب الأحيان بين الدافع الى جريمة القتل ، والدافع الى جرائم الحدود ، فان الدافع الى القتل عادة هو نقمة القاتل على المقتول وغيظه منه ، وهذه النقمة انما تكون غالبا بسبب اساءة صدرت من المقتول نحو القاتل ، فالدافع الى القتل أصلا هو الرغبة فى الانتقام ، وليس نابعا من نزعة شر ، فاذا كان القتل بدافع من نزعة شر كالقتل فى حالة قطع الطريق ، أو للوصول الى السرقة والنهب خرج حينئذ من باب القصاص الى باب الحدود ليدخل فى حد الافساد فى الأرض ، أما جرائم الحدود فيغلب على الدافع اليها أن يكون نزعة شر ، أو تؤدى الى شر ٠

فأما نزعة الشر ففى مثل الزنا والسرقة والقذف حيث نجد عدوانا متعمدا على أعراض الناس وأموالهم ، وتعمد العدوان على الغير نزعة شر ، وأما كون بعض جرائم الحدود سبيلا الى شر فى المجتمع ، ففى جريمة شرب الخمر ، فان الخمر تؤدى عادة الى السكر ، والسكر يحدث خللا وقتيا فى الادراك والتفكير السليم ، واختلال الادراك والتفكير فضلا عن كونه جناية على العقل فانه يحتمل أن يؤدى الى شر واضرار بالنفس أو بالغير فيما يصدر عن السكران من سلوك ·

ومن هنا يتبين جانب مهم من الحكمة فى أن يكون القصاص حقا مدنيا يجوز العفو فيه مع أن جريمته أشد الجرائم ، بينما كانت الحدود حقا لله لا يجوز العفو فيها مع أن جرائمها أخف من القتل ·

وخلاصة التعليل السابق أن القتل لا ينبع عادة من نزعة شر ، وانما من دافع انتقام ، بينما جرائم الحدود تنبع فى أغلب الأحيان من نزعة شر ، أو تؤدى الى شر ·

وسائل الاثبات :

يولى التشريع الاسلامى جريمة القتل اهتماما يفوق أى جريمة أخرى، لأن الاسلام يجعل للآدمى لذاته (وبصرف النظر عن أى انتماء له الى أى ملابسات اجتماعية أو عرقية أو حتى دينية) قيمة وكرامة كبرى ، ومن ذلك فى القرآن (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١) فهذا التكريم لذات الآدمية مهما كان لونه أو انتماؤه أو عقيدته ، فقتل الآدمى جريمة كبرى لا تعلوها الا جريمة الكفر بالله ·

ولهذه الأهمية لجريمة القتل نجد التشريع الاسلامى يعالجها بأسلوب غير مألوف فى معالجة الجرائم الأخرى ، حتى لقد يبدو فى هذا العلاج فى ظاهره شىء من تناقض ، ومن ذلك أن التشريع الاسلامى يلجأ الى وسائل غير مألوفة لمحاولة اثبات الجريمة ، كوسيلة القسامة ، كما سيأتى ، ولكنه مع هذا الحرص على اثبات الجريمة نجده يحاول بعدة وسائل انقاذ حياة القاتل بعد ثبوت الجريمة عليه ، ولكن هذا اللبس الظاهرى يتبدد حينما نعلم كما رأينا فيما سبق أن الهدف الأول للتشريع الاسلامى هو صلاح المجتمع واستقرار الأمن فيه ، وكلا الأمرين ، الحرص على اثبات الجريمة ، ومحاولة انقاذ حياة القاتل اسهام فى ذلك الهدف الاجتماعى ·

---

(١) ٧ سورة الاسراء ·

ووسائل الاثبات التى يسلكها التشريع الاسلامى فى جريمة القتل هى :

١ ـ الوسائل العادية للاثبات ، وهى محصورة فى نوعين ، أحدهما الاعتراف ، بأن يعترف القاتل بأنه هو مرتكب الجريمة ، والآخر الشهادة ، وذلك بأن يشهد شاهدان ممن تقبل شهادتهما ، ويوصف الشاهد المقبول الشهادة فى الاسلام بأنه شاهد عدل ، بمعنى أنه معروف لمجتمعه باستقامة الخلق والسلوك ، أو مستور الحال ، بمعنى أنه لا يعرف عنه انحراف خلقى أو سلوكى يخل بالكرامة فى المجتمع ، ويمكن أن تنوب امرأتان فى الشهادة عن أحد الشاهدين ، فتكون الشهادة من رجل وامرأتين ٠

٢ ـ القسامة ، وهى احدى وسائل الاثبات الخاصة بجريمة القتل ، وهى أسلوب كان العرب يستخدمونه قبل الاسلام ، ثم جاء الاسلام فاعترف به رغبة فى سلوك كل الوسائل التى تحسم جريمة القتل من الناحية الاجتماعية حتى لا تتحول الى سلسلة ثارات ٠

والقسامة مأخوذة من القسم وهو حلف اليمين ، وذلك بأن يوجد قتيل فى مكان ما ، وتشير بعض الملابسات الى أن قاتله من هذا المكان أو هذه البلدة التى وجد قتيلا فيها ، ولكن القاتل غير معروف ، فاذا قام هذا الاتهام فى نفوس ورثة القتيل فان الحاكم أو القاضى يمكنهم من أن يختاروا خمسين شخصا من المكان الذى يتهمون أهله بأن القاتل منهم ، وعلى هؤلاء الخمسين أن يحلف كل واحد منهم يمينا بالله أنه لم يقتل هذا القتيل ، ولا يعلم قاتله ، فاذا لم يكمل عدد المختارين للحلف خمسين شخصا أعيد تحليفهم حتى تكتمل الأيمان خمسين يمينا ، وقد وردت أحاديث نبوية فى تشريع القسامة ، وقد نفذها النبى فعلا ٠

وواضح أن الهدف من القسامة هو حسم الجريمة من الناحية الاجتماعية ، لأنه كما يحدث كثيرا قد يشعر أقرباء القتيل نتيجة لخصومة سابقة ، أو ملابسات معينة أن القاتل هو فلان بعينه ، أو أنه شخص غير معين من جماعة محددة ، ولكنهم لا يملكون الدليل ضده ، فحين تهمل الجريمة ، أو تنتهى كما يحدث فى القوانين الوضعية بقيدها ضد مجهول ، فان أولياء الدم قد يحاولون الانتقام بأنفسهم ، كما يحدث فى مجتمعات الثأر ، فيقتلون شخصا بريئا أو لا دليل ضده ، فيرد الطرف الآخر بقتل شخص مكان قتيلهم ، وهكذا ٠

ولكن القسامة تحسم الموقف ، بأن يكون أقرباء القتيل هم الذين يختارون الخمسين شخصا ، والشىء المنتظر ألا يجتمع خمسون من صفوة أى مجتمع على باطل ، فاذا كانوا يعرفون القاتل فسيظهره بعضهم غالبا ،

واذا حلفوا جميعا على أنهم لا يعرفونه ، فان هذا يريح نفوس أقربـــاء القتيل ، حيث ان الذين اختاروهم بأنفسهم أجمعوا حالفين على عدم معرفة القاتل ، وتكون النتيجة حسم الجريمة اجتماعيا ، وحمايـة المجتمع من آثارها وأطوارها ٠

تضييق نطاق الجريمة :

كان العرف السائد فى المجتمع العربى ، وفى كل المجتمعات التى تعتنق عادة الثأر عدم الاهتمام بشخص القاتـل عنـد الثأر ، فـكثيرا ما يقتلون شخصا غير القاتل ، وكثيرا ما يقتلون أكثر من شخص ، ولكن التشريع حصر جريمة القتل فى نطاقها الصحيح ، كما يلى :

١ ــ يجعل التشريع الاسلامى مراحل اثبات الجريمة ومباشرة عقابها بيد الحاكم أو نائبه كالقضاء ، وليس بيد أولياء الدم وهم ورثة القتيل ، لأن وجود الأمر بيدهم قد يجعل شهوة الانتقام تدفعهم الى تجاوز الحق ، بأن يقتلوا أكثر من شخص ، أو يقتلوا شخصا يرون منزلته أهم من منزلة القاتل ، ليكون قتله أشد ايلاما لجماعة القاتل ، أو أى صورة من صور تجاوز الحق ٠

٢ ــ يغلق التشريع الاسلامى باب العصبية القبلية ، وذلـــك من جهتين :

(أ) احداهما أنه يجعل القاتل وحده هو المسئول عن جريمة القتل ، بعد أن كانت قبيلته أو قرابته كلها مسئولة ، بحيث يجوز عرفا لقبيلة القتيل ان تقتل أى شخص من قبيلة القاتل ٠

(ب) يجعل الورثة الشرعيين للقتيل فقط هم الذين لهم حـــق المطالبة بالقصاص ، بعد أن كان حقا لقبيلة القتيل كلها ، ولا زالت هذه العادات البدائية هى المسيطرة على مجتمعات الثأر حتى اليوم ، ومنها أن عائلة القتيل التى تتعصب له مهما كانت كبيرة تشعر بأن العدوان واقع على كيانها الاجتماعى ، وبالتالى فلكل فرد منها الحق فى أن يأخـذ بثأر القتيل ، ومن جهة أخرى يشعرون بأن عائلة القاتل مهما كثرت فهى جميعا مسئولة عن الجريمة ، وبالتالى يمكن قتل أى شخص منها ٠

ولكن التشريع الاسلامى يوصد كل هذه الأبواب البدائيه ، ليقيم التشريع العادل الذى يجعل المجرم وحده هو المسئول عن جريمته ، ويجعل التشريع ممثلا فى السلطان هو الذى يملك زمام محاسبته ، رغم أن الحق فى تنفيذ العقاب أو عدم تنفيذه يرجع الى ورثة القتيل ٠

٣ – يمنع التشريع الاسلامى ما يشيع فى المجتمعات البدائية من أن يكون القتل بالظنة أو مجرد الاتهام ، بل لا بد من ثبوت الجريمة على المجرم ٠

التنفيذ ووسائل العقاب :

حين تثبت جريمة القتل العمد على القاتل فان التشريع الاسلامى قبل أن يبدأ فى تنفيذ العقاب يسلك أكثر من وسيلة يتضح منها حرصه أولا على حماية وحدة المجتمع وأمنه ، وشيوع روح الاخاء والتسامح فيه ، وهذه الوسائل يجب على القضاء الاسلامى أن يسلكها فور ثبوت الجريمة وهى :

١ – اشعار أولياء الدم وهم الورثة الشرعيون للقتيل بأنهم أصحاب حق ، وأن القاتل نفسه أصبح ملكا لهم يتصرفون فيه كيفما يشاءون ، بالانتقام منه ، أو بالعفو عنه ، أو بقبول تعويض مادى عن قتيلهم هو الدية ، واشعار أولياء الدم بملكيتهم هذا الحق أمر فى غاية الأهمية لعلاج الأثر الاجتماعى للجريمة ، فان شعورهم بملكية هذا الحق يطفىء فى العادة جذوة الغضب وشهوة الانتقام فى نفوسهم ، ويجعلهم مهيئين نفسيا لقبول التفاوض وانهاء الاشكال ، ومن المعروف فى مجتمعات الثأر أن كل جرائم الثأر تنبع من هذا المعنى أو تدور حوله ، فلو حكم القضاء باعدام القاتل فان هذا لا يشفى نفوس أقاربه ، لأنهم يريدون أن يشعـــروا بأنهم ينتقمون بأنفسهم ، ويصرحون بهذا ، لأن القوانين الوضعية لا تجعل لهم صفة فى القضية من الناحية الجنائية ، فان جريمة القتل فى كل القوانين الوضعية حق جنائى وليس مدنيا ، فلا يملك أولياء الدم العفو عن القاتل أو التدخل فى القضية من حيث ملكية الحـق ، وهذا مما يزيدهم نقمـة واصرارا على الثأر بأنفسهم ، وهذه النقطة يتركز فيها أهم أسباب فشل القوانين الوضعية فى معالجة عادة الثأر ٠

بينما التشريع الاسلامى يجعل علاجه لهذه النقطة الجوهرية محـور الموضوع ، من حيث جعله القضية من أساسها حقا مدنيا لأولياء الدم يملكون التصرف فيها ملكية كاملة ، بل ان القرآن يسوق هذه الملكية فى تعبير أشد تأثيرا فى النفس ، فيجعلها (سلطانا) لأولياء الدم وليس محض ملكية ، ففى القرآن (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانـا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا) (١) ولذلك كان التشريع الاسلامى

---

(١) ٣٣ سورة الاسراء ٠

أنجح تشريع فى محاربة عادة الثأر ، بحيث لا توجد عادة الثأر فى مجتمع تطبق فيه الشريعة الاسلامية ٠

٢ ـ من أولى الوسائل التى يسلكها التشريع الاسلامى قبل تنفيذ العقاب عرض العفو على أولياء الدم ، فمع حرص التشريع الاسلامى على اثبات حق المعتدى عليه فى القصاص الا أنه يلتزم دائما أن يعرض عليه العفو عن الجانى ، مرغبا اياه فى العفو أشد الترغيب ، وفى كل آيات القصاص فى القرآن ترغيب فى العفو عن الجانى ، ومن ذلك (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (١) وتعبير (أصلح) فى الآية يشير الى أهم أهداف العفو وهـو اصـلاح المجتمع بأن تحسـم الخصومة بطريق التراضى بين الطرفين ٠

فلا بد من عرض العفو عن الجانى على أولياء الدم وترغيبهم فى العفو ، وستكون نفوسهم مهيأة بعض الشىء للتفكير فى العفو حيث ان أشعارهم بملكية حق القصاص يطفىء حدة الغضب والنقمة لديهم ٠

ولكن أعمق ما فى هذا الموقف دلالة أنه لو عفا أحد الورثة رجلا أو امرأة ، مهما صغر نصيبه فى الميراث يسقط القصاص ، ويخير باقى الورثة بين العفو أو قبول الدية ، وتعليل هذا الحكم أمر منطقى ، وهـو أن الذى عفا عن القاتل معناه أنه قرر حياة نصيبه فى القاتل ، والباقون قرروا موته ، والحياة أولى من الموت بصفة عامة ، فأدنى نصيب من الحياة وهو الذى قرره بالعفو صاحب أصغر نصيب فى الميراث أولى من كل الذين يريدون موت القاتل ٠

وعدم القصاص من القاتل حينئذ لا يثير غضب أولياء الدم ، لأن أحدهم هو الذى كان سببا فى سقوط القصاص ٠

٣ ـ اذا رفض الورثة العفو يجب أن تعرض عليهم الدية ، والدية تعويض مادى محدد ، ولها تفاصيل كثيرة معروفة فى الفقه الاسلامى ، سواء فى القتل ، أو فى الجناية على الأعضاء ، كقطع اليد أو الاصبع ، وهى فى حالة القتل مائة بعير ، وقدرت الدية بالابل لأن المجتمع العربى فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كانت رءوس أمواله الأصلية الابل ، أما اليوم فتقدر الدية بقيمة المائة من الابل ٠

والدية عادة عربية كانت قبل الاسلام ، وقد أقرها الاسلام ، لأن منهج الاسلام أنه فيما عدا العقيدة فانه يقر أى عادة أو تشريع يؤدى الى خير واصلاح ، وقد أقر كثيرا من العادات والأعـراف التى كانت قبـل الاسلام لأنها تمثل فضائل أو تؤدى الى اصلاح ٠

---

(١) ٤٠ سورة الشورى ٠

والحكم السابق فى العفو يسرى أيضا فى الدية ، فاذا قبل الدية أى شخص من ورثة القتيل سقط القصاص ، و يخير باقى الورثة بين العفو والدية ، ويتضح من هذا رغبة التشريع الاسلامى فى انقاذ حياة القاتل ، اذا كان هذا يتم برضا أولياء الدم ، لأن ذلك اسهام فى اقرار الأمن واصلاح العلاقات فى المجتمع .

والدية تلزم فى حالتين ، احداهما اذا وافق أولياء الدم على قبول الدية بدل القصاص ، والأخرى فى حالة القتل غير المتعمد ، بأن يكون القتل عن طريق الخطأ ، أو ما يعرف فى الفقه الاسلامى بشبه العمد ، وهو ما يوصف فى القانون الوضعى بأنه ضرب أفضى الى الموت ، وذلك بأن يضربه بعصا أو آلة لا يقتل بها عادة ، ولكن هذا الضرب أدى الى موت المضروب ، فتجب فيه الدية ، وليس القصاص ، لأن القاتل لم يقصد القتل أصلا .

ومن الأحكام المصاحبة للقتل العمد وشبه العمد حرمان القاتل من أن يرث القتيل ، فاذا كان القاتل أحد ورثة القتيل فان صدور القتل منه ولو بشبه العمد فيه شبهة أن التطلع الى الميراث كان من أسباب القتل ، فيعاقب بحرمانه من الميراث .

والدية محددة فى القرآن من حيث المبدأ بوصفها تعويضا ماديا ، أما حجمها فى حالة القتل فيحدده الحديث النبوى (فى نفس المؤمن مائة من الابل) أما القرآن فيتحدث عادة عن الأسس العامة ، تاركا التفاصيل ليوضحها النبى ، فهو بمثابة الدستور ، والحديث النبوى بمثابة القوانين ، وفى القرآن عن الدية وملابساتها ز وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمن الا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليما حكيما ، ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (١) والأحكام التى تتضمنها الآيتان السابقتان تتلخص فيما يلى :

١ ـ القتل الخطأ من حيث ما يترتب عليه له ثلاث حالات :

(أ) ان كان المقتول خطأ من قوم مسلمين يجب حينئذ أمران ، أحدهما الدية بوصفها تعويضا ماديا ، وهى مائة من الابل ، يتحملها القاتل

---

(١) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ سورة النساء .

وكل الذين يتعصبون له ، سواء بالقرابة أو المهنة أو التحالف ، ويدفعونها الى ورثة القتيل ، والأمر الآخر كفارة للناحية الروحية ، وهى أن يعتق القاتل من ماله وحده رقبة أى عبدا أو جارية من ملكه ليكفر عن شبهة الجريمة ، فاذا لم يستطع فعليه أن يصوم شهرين متواليين ٠

وفيما يتعلق بالرقيق ينبغى مراعاة أن الرق كان شائعا فى العالم كله حينما جاء الاسلام ، والتشريع الاسلامى يدعو كثيرا الى تحرير العبيد ويرغب المؤمنين فى ذلك ، وأحيانا يجعله واجبا كهذا الحكم فى الآية الأولى ٠

(ب) ان كان المقتول خطأ من قوم غير مسلمين وهم فى حالة حرب مع المسلمين فالواجب على القاتل الكفارة فقط ؛ أما الدية فغير واجبة حينئذ لأن الأعداء سيستفيدون بها ماديا ، فتكون من مصادر قوتهم على المسلمين ٠ وفى هذا اضرار بالمسلمين ٠

(ج) ان كان المقتول خطأ من قوم غير مسلمين ولكن بينهم وبين المسلمين ذمة بأن يكونوا نصارى أو يهودا وليسوا فى حالة حرب مع المسلمين فالحكم حينئذ هو عين الحكم فيما لو كان القتيل مسلما من حيث انه يجب دفع الدية الى أهل القتيل ، رغم أنهم ليسوا مسلمين ، وتجب الكفارة فى مال القاتل زيادة على الدية ٠

والحديث النبوى يحث على رعاية ذمة أهل الذمة اليهود والنصارى فى الدية ، حيث يقول النبى (دية كل ذى عهد فى عهده ألف دينار) ٠

الحـدود

هى النوع الثانى من العقوبات فى الاسلام ، والنـــوع الأول هو القصاص ، والحدود فى الاسلام ـ كما سبق ـ خمسة :

١ ـ حد السرقة ٠

٢ ـ حد الزنا ٠

٣ ـ حد القذف ٠

٤ ـ حد الافساد فى الأرض ٠

٥ ـ حد الخمر ٠

وتتميز الحدود عن القصاص ، وعن سائر العقوبات فى الاسلام بخصائص أهمها :

١ ـ هى حق الله ، وليست حقا للعباد ، ويترتب على ذلك أن الحدود حين تثبت فلا يملك أحد اعفاء الجانى من العقوبة ، لا ولى الأمر ، ولا المجنى عليه كما فى حالة السرقة ، بمعنى أنه لابد من تنفيذ العقوبة عند ثبوت الجريمة ، فالمسروق منه يملك عدم اقامة الدعوى على السارق ، ولكن اذا قامت الدعوى وأقر المسروق منه أن السارق أخذ ما أخذ عن طريق السرقة ، أو اعترف السارق ، وثبت ذلك ، فلا يملك المسروق منه أن يعفو عن السارق ، وقد حدث أن سرق من أحد أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم رداؤه الذى كان يضعه تحت رأسه وهو نائم فى المسجد ، وثبتت سرقة الرداء على شخص ، وعند تنفيذ العقوبة قال صاحب الرداء ـ صفوان بن أمية ـ يارسول الله ما أردت قطع يده ، ولكن أبيعه اياه ويعطينى ثمنه مؤجلا فقال النبى (هلا فعلت هذا قبل أن تأتينى به) وأمر بالسارق فقطعت يده ٠

وهذا بخلاف القصاص الذى يلتزم القرآن فى شأنه دعوة المجنى عليه الى العفو ، فى كل الآيات التى تذكر القصاص ٠

وقد يبدو شىء من التناقض فى ظاهر الأمر فى التشريع الاسلامى بين الدعوة الى العفو فى أكبر جريمة وهى القتل ، ومنع العفو فيما دونها وهى الحدود ٠

ولكننا نستطيع أن نلمح أن الاسلام لا ينظر الى الجرائم من الناحية الفردية ، أو لذات الجرائم فحسب ، وانما يركز اهتمامه أولا على أثر الجريمة ، من حيث صلاح المجتمع وفساده ، فهو فى الجريمة يحافظ على حق المجنى عليه ، ولكنه يركز اهتمامه على منع تأثير هذه الجريمة فى افساد المجتمع ٠

وهنا نحتاج الى تأمل الفارق الدقيق فى علاج الاســـلام لكل من جرائم القصاص والحدود ، فمن أهم الفروق بينهما أن الجريمة فى حالة القصاص وهى القتل جريمة فى العادة فردية وطارئة ، ولا يخشى أن تؤدى الى الاحتراف ، بخلاف جرائم الحدود ، بمعنى أن القاتل انما يلجأ الى القتل فى العادة لأسباب ودوافع نفسية تدفعه الى قتل شخص معين ، وحتى لو افترضنا تعدد لجوئه الى القتل ، فلا يتصور أن يؤدى به هذا الى احتراف القتل ، بحيث يقتل كل من يلقاه ، أو من يتمكن من قتله ، فمزاولة القتل أو حتى تكراره ، لا يخشى معه فى العادة احتراف القتل لذاته ، بخلاف السرقة ، فان تكرار مزاولتها يدعو فى أغلب الأحيان الى احترافها لذاتها ، وكذلك تكرار قطع الطريق يؤدى الى احتراف هـذه الجريمة ، وأيضا تكرار مزاولة الزنا يدعو فى العادة الى مزاولته ، وكذلك تعود اللسان على القذف يدعو الى ستمراره ، وأيضا تكرار شرب الخمر يؤدى الى الادمان عليها ٠

واذن فجريمة القتـل لا يخشى أن تؤدى الى الاحتراف ، بخـلاف سائر جرائم الحدود فانهـــا ينتظر أن تؤول الى الاحتراف ، واحتراف الجريمة معناه شيوعها فى المجتمع ، وبالتالى فقدان الأمن فى هذا المجتمع فيما يتعلق بهذه الجريمة ، فاذا شاعت السرقة انعدم الأمن على الأموال ، واذا شاع لزنا انعدم الأمن على الأعراض ، واذا شاعت الخمر وما يترتب عليها انعدم الأمن على أى شىء ، وعلى سبيل المثال فان كثيرا من حوادث السيارات وما ينتج عنها يكون وليد الخمر والمخدرات ٠

وحينئذ يظهر لنا جانب مهم من حكمة التشريع الاسلامى فى جعله القصاص حقا (مدنيا) للمجنى عليهم ، يملكون العفو فيه ، لأن الجريمة

حينذاك لا يخشى أن تؤدى الى الاحتراف وافساد المجتمع ، وفى جعله العقوبة فى الحدود حقا لله لا يملك أحد العفو فيها عن الجانى بعد ثبوتها ، لأن الجناة فى جرائم الحدود ينتظر احترافهم الجريمة ، وعلمهم بأنه لابد من ايقاع العقاب ، وأنه لا شفاعة ولا عفو ، لا شك ان فيه زجرا وتخويفا لهم ولغيرهم ، وقد غضب النبى غضبا شديدا حين أرادوا الشفاعة فى المرأة المخزومية القرشية السارقة وأمر بقطع يدها • وينبغى أن يكون واضحا أن نسبة الحق لله فى الحدود لا يقصد بها أثر الجريمة ، وانما يقصد بها ملكية العقوبة ، بمعنى أنه حين يقال ان حد السرقة مثلا حق لله وليس حقا للناس ، فان المراد بهذا التعبير ان الله وحده هو الذى يملك العقاب ، ولا ينوب عنه أحد فيه ، أما الجريمة نفسها وهى السرقة فهى عدوان من السارق على المسروق منه ، كما أن القتل عدوان من القاتل على المقتول •

٢ ـ تتميز الحدود أيضا عن القصاص بأن الحدود تلغى عند وجود أى شبهة ، وى الحديث النبوى (ادرأوا الحدود بالشبهات) فبينما يتلمس التشريع الاسـلامى كل وسيلة مشروعة لاثبات حق القصاص ، نجده يتلمس كل شبهة مقبولة لرفع الحد عن الجانى ، والسبب الواضح فى ذلك أن الاسلام فى حالة القتل يحاول بكل وسيلة مشروعة أن يشعر أولياء الدم بالتمكن من حقهم ليطفىء جذوة الغضب والحقد فى نفوسهم فيصبحوا مهيئين لدعوتهم الى العفو ، أو الى قبول الدية ، وبذلك تنقذ حياة القاتل مع حسم المشكلة اجتماعيا بحيث لا يلجأ أولياء الدم الى الثأر ، ولكن من أهم الأهداف فى النهاية انقاذ الجانى نفسه ، وهذا الهدف نفسه هو هدف التشريع الاسلامى فى درء الحدود بالشبهات لانقاذ الجانى من العقوبة ، وذلك لأن الأصل فى الثوا بوالعقاب فى كل الأديان هو الآخرة ، أما عقاب الدنيا فان الغاية النهائية فيه هى اصلاح المجتمع ، فالغاية واحدة ، ولكن الوسائل تختلف فى بعض المواقف عنها فى بعض آخر •

٣ ـ تتميز الحدود أيضا بأنها لا تقبل فيها شهادة النساء ، فالقاعدة فى التشريع الاسلامى أن الشهادة من حيث العدد لابد أن تكون شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، وهذا يسرى على كل مواقف التقاضى ، وعلى القصاص ، ولكن التشريع الاسلامى يستثنى من ذلك الحدود فلا يقبل فيها شهادة النساء ، وهو من باب درء الحدود بالشبهات ، لأن شهادة المرأة فى الاسلام دون شهادة الرجل ، وهذا يتضمن نوعا من الشبهة ، فلا يثبت بها الحد •

٤ ـ من الواضح فى كل العقوبات الاسلامية ، وبصفة خاصة الحدود ، أن هناك فجوة بين الجانب النظرى التشريعى والجانب التطبيقى

التنفيذى ، وتتمثل هذه الفجوة أو هذا الاتساع فى أن التشريع الاسلامى يجعل العقوبات فى مظهرها أو فيما يمكن وصفه بالجانب الاعلامى بالغة العنف والشدة والرهبة ، وهـذا ما يجعل البعض يصفون العقـوبات الاسلامية بالقسوة ، ولكن التشريع الاسلامى يجعل الوضع عند التطبيق والتنفيذ يختلف اختلافا واضحا عن مظهر التشريع ، وهذه الفجوة ليست فى الأحكام نفسها ، وانما فى وسائل التنفيذ والتطبيق ، ففى القصاص مثلا نجد المظهر التشريعى قتل القاتل المتعمد ، على الاطـلاق ، ودون تقييد ، وهذا يوحى بمظهر دموى رغم أنه عدل ، ولكننا نجد التشريع الاسلامى نفسه عند التنفيذ يسلك أكثر من وسيلة بحرص واضح على انقاذ القاتل من الموت ، ومن ذلك التزام كل آيات القصاص فى القرآن الدعوة الى العفو عن القاتل ، واذا لم يرغب أولياء الدم فى العفو عرضت عليهم اغراءات مالية ضخمة تتمثل فى الدية ، وغير ذلك مما سبق حديثه فى القصاص ·

وكذلك فى الحدود نجد المظهر التشريعى مثلا قطع يد السارق على الاطلاق ، وهذا يوحى بمظهر قسوة شديدة ، ولكن الاسلام عند التنفيذ يحرص حرصا واضحا على انقاذ السارق من قطع يده ، ومن ذلك الحديث النبوى المشهور الذى يكلف ولى الأمر أن يلتمس أى شبهة تدفع عن الجانى تنفيذ العقوبة مع أنها عدل ، وهو (ادرأوا الحدود بالشـبهات) ، فاذا وجدت شبهة مهما ضعفت لانقاذ الجانى كانت هى الراجحة على الحـكم التشريعى العام ·

وأيضا فى جريمة الزنا يبدو المظهر التشريعى بالغ القسوة ، وهو رجم الزانى المتزوج بالحجارة حتى الموت ، ولكنه عند التنفيذ نجد العكس ، فان النبى صلى الله عليه وسلم نفسه يتجاوز مرحلة الدرء بالشبهات الى الرغبة الواضحة فى عدم اثبات هذه الجريمة ، فقد كان يوحى الى من يجيئه معترفا بجريمة من جرائم الحدود بالرغبة فى عدم الاعتراف ، كما يروى أنه جاءه رجل من قبيلة أسلم ، فشهد على نفسه أنه أصاب امرأة حراما ، فأعرض عنه النبى بوجهه ، فجاءه من الجهة فأشاح النبى بوجهه الى الجهة الأخرى ، وهكذا أربع مرات فى كل منها يعترف الرجل بالزنا والنبى يعرض عنه ، فلما وجده النبى مصرا قال له : أنكحتها ؟ قال : نعم ، قال : حتى غاب ذلك منك فى ذلك منها ؟ قال : نعم ، قال : كما يغيب المرود فى المكحلة ؟ وكما يغيب الرشا فى البئر ؟ قال : نعم ، قال : فهل تدرى ما الزنا ؟ قال : نعم ، أتيت منها حراما مثل ما يأتى الرجل من امرأته حلالا ، قال فما تريد بهذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى ، فأمر به

فرجم ، وكان يسلك مثل هذه المحاولات فى كل من يجيئه معترفا ، وكذلك فى السرقة ، جاءه ذات مرة شخص يعترف بالسرقة ، فقال له النبى : أسرقت ؟ ثم أردف النبى قائلا (ما اخاله سرق) يعنى ما أظنه سرق ، ولكن الرجل أصر على الاعتراف فأقام عليه الحد ، وقد أقيم حد الرجم ذات مرة على رجل معترف بالزنا ، فلما اشتد عليه الضرب هرب ، فلاحقوه بالضرب حتى مات ، فلما سمع النبى قال : فهلا تركتموه ، وفى حادثة أخرى كانوا يرجمون امرأة زانية ، فأصاب دمها ملابس خالد بن الوليد ، فسبها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مهلا يا خالد ، لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم ، ومن قبيل هذه الرحمة وهذا الهدف ، قول المسيح عليه السلام حينما أرادوا رجم امرأة زانية : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، وهذا عن الذين يعترفون بالزنا من تلقاء أنفسهم خوفا من الله ، ورغبة فى تطهير أنفسهم من الاثم ، أما الذين لا يعترفون فان الاسلام يؤثر ازاءهم الستر وحفظ كرامة الأعراض ، ويكلهم الى دينهم وربهم ، فيضع من القيود ما يستحيل معه واقعيا اثبات الزنا عن طريق الشهود كما سيأتى ٠

وهذه الفجوة التى تبدو فى مظهرها بين أحكام التشريع الاسلامى فى العقوبات وواقعية تنفيذها ليست غريبة اذا فهمنا حكمة تشريعها وأهدافه ، فان الأصل فى الثواب والعقاب فى كل الأديان أن يكون فى الآخرة ، وكل عقوبات الدنيا انما يقصد بها اصلاح المجتمع ، وزجر الناس عن الافساد فى الأرض ، لأن عقاب الدنيا مهما بلغ لا يزن شيئا بجوار عقاب الآخرة ، وكذلك الثواب ، على أن العقوبة مهما بلغت فلا أثر لها من حيث التطهير من الذنب ما لم تصحبها التوبة والرجوع الى الله ، والمجرم المصر على مزاولة الجريمة مع العقاب ، فانه من الواضح أن العقاب لم يصلحه ، ومعنى ذلك أن العقاب لا فائدة منه بالقياس اليه ، وانما فائدته زجر الآخرين ٠

ومسلك النبى صلى الله عليه وسلم فى محاولته انقاذ المعترفين بجرائمهم من العقاب يتضمن الدليل على أن هدف العقوبة هو اصلاح المجتمع ، فان الذى يجىء من تلقاء نفسه معترفا بذنبه ، طالبا عقابه ، معناه أنه نادم على جرمه ، ولا يعقل أن يعاود الجريمة وهو بهذه الصورة ، فلا خوف على المجتمع اذن منه ، وبذلك يتحقق الهدف الأهم من أهداف العقاب وهو اصلاح المجتمع ، فلا ضرورة لتنفيذ العقوبة ، بل يمكن أن تبقى على الأصل ، وهو عقاب الآخرة اذا أراد الله عقابه ، وهو ما لا يوزن به قط أى عقاب دنيوى ، وقد يقبل الله توبته فى واسع رحمته ٠

حد السرقة

السرقة جريمة تاريخية ملازمة للمجتمعات البشرية ، لأنها تنبع من بعض غرائز الانسان ، وهى من أشد الجرائم تهديدا للأمن فى المجتمع ، ولذلك وضع لها التشريع الاسلامى عقابا صارما حدده القرآن فى قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) (١) ٠

ولا تثبت جريمة السرقة الا بشروط يتلخص أهمها فيما يلى :

١ ـ أن يكون السارق بالغا مكلفا ، وألا تكون هناك شبهة فى وصفه بالسرقة ، كمن يسرق من مال له فيه نصيب ميراث أو شركة ، أو يسرق لضرورة قاهرة ، كمن يسرق مقدار ما يطعم به نفسه وأولاده الجائعين ٠

٢ ـ أن يكون الشىء المسروق ذا قيمة فى العرف ، ويقدره بعض الفقهاء بما يساوى دينارا ، سواء أكان نقدا أم شيئا يقوم بالنقد ٠

٣ ـ أن يكون الشىء المسروق محفوظا بما يعبر عنه بالحرز ، وأن يأخذه السارق خفية ، والحرز أمر غير محدد ، وانما يحدده العرف ، فحرز البيت الباب ولو كان مفتوحا ، وحرز السيارة اغلاقها ، وحرز الحقيبة حراستها ، وبصفة عامة فان العرف يحدد وسائل حفظ الأشياء وحراستها ، فاذا أخذ اللص شيئا محفوظا بوسيلة عادية فهو سارق ، ويقام عليه الحد اذ ثبت عليه أخذ الشىء ، أما اذا أهمل صاحب الشىء المسروق وتركه سائبا بغير حفظ كأن يسكن فى مسكن بدون باب ، أو يترك سيارته

---

(١) سورة المائدة ٣٧ ٠

مفتوحة ، أو يترك حقيبته فى مكان عام بدون حراسة شذوذا على الوضع المألوف فان أخذ اللص هذا الشيء فلا يقام عليه الحد ، لوجود شبهة ، ومهما ضعفت الشبهة فانها تمنع اقامة الحد ، وكذلك السرقة فيما بين ذوى الأرحام ، فلو أخذ شخص شيئا من ملك ذى رحم محرم ، كالوالدين والعم والخال رجالا أو نساء فلا يقام الحد على أحد الطرفين ، لوجود شبهة أن التشريع الاسلامى أباح الدخول على ذوى الأرحام بصفة خاصة أوسع منها لدى غيرهم ، وكذلك بين الزوجين .

٤ ـ أن يكون المجتمع فى ظروف عادية ، فاذا تمت السرقة فى ظرف طارىء غير عادى كأوقات المجاعة أو الحرب ، لا يقام حد السرقة ، لأن مثل هذه الظروف شبهة ، والحديث النبـــوى المشهور (ادرأوا الحـدود بالشبهات) .

وسائل الاثبات :

وتثبت السرقة باحدى وسيلتين :

١ ـ شهادة شاهدين عدلين ، ليس فى شهادتهما مطعن .

٢ ـ اعتراف السارق .

فكل من الوسيلتين السابقتين كافية لاثبات السرقة ، ففى الوسيلة الأولى اذا ادعى شخص على السارق ، وشهد معه شاهدان عدلان تثبت السرقة ويقام الحد ، وفى الثانية لا تلزم اقامة الدعوى من المسروق منه ، فاذا ضبط السارق متلبسا ، أو علم أحـــد بهذه السرقة وأبلغ عنها ، أو أبلغ السارق عن نفسه ، فى كل هذه الحالات ونحوها تثبت السرقة اذا اعترف السارق وأقر بقصد السرقة ، فاذا ادعى أن الشيء المسروق ملكه ، أو له فيه نصيب ، فسواء ثبتت صحة ذلك أو لم تثبت ، فانها شبهة تمنع اقامة الحد طالما كانت للسارق أى ملابسة تجعل دعواه مقبولة من حيث المبدأ .

العقـاب :

حين تثبت السرقة على السارق تجب اقامة الحد وهو قطع اليد اليمنى من مفصل الكف ، والتشريع الاسلامى رغم هـــذا يحرص على تجنيب السارق ما أمكن أن يلحقه ضرر أو زيادة ألم ، فيطلب العمل على وقف نزيف الدم بعد القطع ، وأن تكون آلة القطع حادة حتى لا يزداد الألم ، واذا عاد بعد قطع يده اليمنى الى السرقة تقطع رجله اليسرى من مفصل القدم .

ومع هذا العقاب فان الشيء المسروق يظل ملكا لصاحبه ويجب رده اليه ، ومن باب أولى يجب رد المسروق الى صاحبه فى الحالات التى يمتنع فيها الحد لوجود شبهة ٠

على أن بعض الحالات التى يمتنع فيها الحد يمكن أن تدخل فى حد آخر هو حد الافساد فى الأرض ، كالسرقة بالاكراه ، أو قطع الطريق للسرقة ، فان من شروط السرقة أن تكون خفيـــة ، فاذا كانت جهرا أو اكراها لا تعد سرقة ، ولا يقام فيها حد السرقة ، فاذا تعود السارق هذا كان من المفسدين فى الأرض أو قطاع الطرق ، ويقـــام عليه حد الحرابة الوارد فى قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورســـوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ٠٠)

والبعض الآخر من السرقات التى لا يقام الحد فيه للشبهة أو الضرورة يوكل السارق فيه الى عقوبة التعزير ، التى يحـــددها ولى الأمر حسب ظروف الجريمة وخطورتها على المجتمع ، كالقوانين الوضعية الحالية ٠

حـد الـزنا

الزنا جريمة كبرى فى كل الأديان السماوية ، لأن تقييد العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى من الخصائص التى يمتاز بها بنو آدم عن سائر الحيوانات ، والزنا انتهاك لهذا التقييد ، ورجوع الى الحيوانية المطلقـة ، وانتهاك للأعراض ، وتشكيك فى الأنساب ٠

والاسلام يجعل عقاب الزانى المحصن ــ الذى سبق له الزواج ــ من نوع انتهاكه لميزة الآدمية ، فالاسلام يحكم عليه بالموت ، لأنه هو نفسه بانتهاكه للميزة الآدمية فى تقييد العلاقة الجنسية ، ورجوعه الى الحيوانية المطلقة ، كأنه حكم على نفسه بأنه لا يستحق صفة الآدميـــة ، وبالتالى لا ينبغى أن يعيش بين الآدميين ٠ فجزاؤه الموت ، وحتى يرتدع غيره جعل موته بالرجم بالحجارة ٠

وهذا الشعار المخيف يرفعه الإسلام اعلانا عن مدى فحش جريمة الزنا وخطورتها على الأعراض والأنساب ، حتى لا يقترب أحد من هذه الجريمة المنكرة ، ولما كان الزنا لا يقع فى العادة فجأة ، وانما تسبقه مقدمات ، لذلك يحرص التشريع الاسلامى على منع هذه المقدمات ، ومن ذلك الزام المرأة الاحتشام ، فيحرم عليها أن تكشف من جسدها شيئا

غير وجهها وكفيها ، ويحرم أن تخرج متزينة أو متعطرة ، أو فى أى هيئة أو مشية تلفت النظر وتجذب الأبصار ، ويحرم أن تكون بينهـــا وبين الأجنبى خلوة ، والأجنبى كل من ليس ذا رحم محرم ، وذو الرحم المحرم من لا يحل لها زواجه كالعم والخال ، ومن هذا القبيل دقة تعبير القرآن فى أنه لا ينهى عن الزنا فحسب ، وانما ينهى عن الاقتراب منه ، بمعنى أنه ينهى عن كل ما يمـــكن أن يؤدى الى الزنا ، وفى القرآن الـكريم (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) (١) والفرق واضح بين ما لو كان التعبير لا تزنوا ، وبين تعبير (لا تقربوا الزنا) ٠

ولكن الاسلام لتعظيمه حرمة الأعراض يحرص على عدم اثبات جريمة الزنا ما أمكن ، ومن هذا الحرص أنه يخالف القاعدة العامة فى الشهادة ، فالشهادة تثبت بشـــهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين ، ولكن التشريع الاسلامى يجعل الشهادة المقبولة فى اثبات الزنا لابد أن تكون من أربعة رجال عدول ، يجتمعون فى وقت واحد ، وتتفق شهادتهم اتفاقا كاملا رغم أن كلا منهم يؤدى شهادته على انفراد ، فيشهدون جميعا بأنهم رأوا واقعة الزنا المحددة ، وأنهم رأوا العضوين التناســليين من الزانى والزانيـة متداخلين ، فان حدث أى اختلاف بينهم فى هذا أو فى تحـــديد الزمن أو المكان أو الملابس أو أى شىء يتعلق بالجريمة بطلت شهادتهم ، وأصبحوا قاذفين يقام عليهم حد القذف ، وهو ثمانون جلدة ٠ فاثبـــات الزنا فى الاسلام له طريقتان :

١ ــ طريق الشهادة بالصورة المتقدمة ، وهذا ما يستحيل واقعيا اثباته ، ولذلك لم يثبت الزنا عن طريق الشهادة فى تاريخ الاسلام كله ، ومعنى ذلك أن الاسلام لا يرغب فى اثبـــات الزنا على أحد محافظة على الأعراض ، وعلى عدم التشكك فى الأنساب ، وما يتبع هـــذا كله من عداوات وريبة ٠

٢ ــ طريق الاعتراف ، وقد ثبت به الزنا فى عدة وقائع فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقيم فيها الحد ، رغم ما سبقت الاشارة اليه من حرص النبى على ما يشبه صرف المعترف بالزنا عن اعترافه ، وهو ذات الهدف الذى يهدف اليه الاســـلام من عـدم اثبات الزنا عن طريق الشهادة ، واعتراف الزانى أو الزانية يلزمه وحده الحد دون الشريك فى الزنا الا اذا اعترف الطرف الآخر ٠

---

(١) سورة الاسراء ٣٢ ٠

العقـاب :

واذا ثبت الزنا على رجل أو امرأة فان حد الزنا باعتبار صفة الزانى نوعان :

١ ـ اذا كان الزانى محصنا يرجم بالحجارة حتى الموت ، والمحصن هو الذى تزوج ، وفى الحديث النبوى المتفق عليه (الشيخ والشيخة اذا زنيا فاجموهما البتة نكالا من الله) ، وكذلك الزانية المحصنة وهى التى تزوجت ٠

٢ ـ اذا كان الزانى أو الزانية غير محصن وهو الذى لم يتزوج ، فان حده الجلد مائة جلدة ، وفى القرآن (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (١) وفى تعبير الآية الكريمة وجوب اقامة حد الزنا علنـا حتى يـكون تخويفا وزجرا للآخرين ، كما أن تقديم المرأة على الرجل فى تعبير (الزانية والزانى) يوحى بأن المرأة هى المسئولة الأولى عن جريمة الزنا لأنها هى التى تطمع الرجل أو تمكنه من مزاولتها ، ولذلك اختلف التعبير فى السرقة ، فكان لفظ القرآن (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فقدم الرجل على المرأة فى السرقة لأنه أشد جرأة فى مزاولتها ٠

وفى حد الجلد يحرص التشريع الاسلامى على سلامة المحدود وعدم تشويهه ، فلا يجوز ضربه فى مقتل خوفا من هلاكه ، ولا ضربه فى الوجه حتى لا تحدث به عاهة ، ولا يجوز ضرب الوجه حتى فى غير الحد ، لأن الوجه عنوان الآدمية التى كرمها الله ، وفى الحديث النبوى (اذا ضرب أحدكم أخاه فليتق الوجه) ٠

ورغم اقامة حد الجلد على الزانى غير المحصن فان لولى الأمر أو نائبه فى العقوبات وهو القاضى أن يحـكم على الزانى غير المحصـن بعد الجلد بالتغريب وهو النفى عن المجتمع لمدة عام الى مكان لا تكون له بمجتمعه الأصلى صلة ، وذلك اذا لم يأنس فى المحدود التوبة ، وخشى منه الريبة ، والسجن يعد نوعا من النفى الضمنى ، لأنه يحقق الهدف من النفى ، وهو البعد عن المجتمع ٠

---

(١) سورة النور ٢ ٠

حـد القـذف

حد القذف يعد فى حقيقته مكملا للهدف من حـــد الزنا ، فكلاهما يهدف الى صون الأعراض ، فقد شرع الاسلام حد الزنا ليأمن الناس على أعراضهم فلا تنتهك ، وشرع حد القذف ليأمن الناس جميعا على سمعة أعراضهم فلا تلوكها الألسنة .

وحد القذف محصور فى شىء معين ، هو اتهام امرأة أو رجل بالزنا بدون بينة شرعية ، فمن يسب أحدا رجلا أو امرأة ، صراحة أو ضمنا ، فى صورة اتهام بالزنا ، ويشهد عليه شاهدان عدلان ، يقام عليه حد القذف ، كأن يقول له يا زان ، أو يابن الزنا ، أو يا زانية ، أو يابنة الزنا ، أو أى لفظ يؤدى هذا المعنى صراحة أو كناية ، والكناية مثل أن يقول لرجل يازير النساء ، أو يقول لامرأة يا سيئة السلوك .

العقـاب :

يكفى فى حد القذف أن يشهد شاهدان عدلان (حسنا السمعة) على شخص بأنه سب أو اتهم رجلا أو امرأة بالزنا ، فيقام على هـــذا الشخص الحد ، وحد القذف يتمثـــل فى عقوبتين ، احداهما حسية ، والأخرى معنوية أدبية :

١ ــ فأما العقوبة الحسية فهى جلد القاذف ثمانين جلدة ، ضربا متوسط الايلام ، لا هو شديد الى درجة يخشى منها على المجلود ، ولا هو هين يسير الألم .

٢ ــ وأما العقوبة المعنوية ، فهى عقوبة اجتمـــاعية شديد الايلام النفسى لمن له مروءة فى المجتمع ، وهى سقوط شهادته ، فلا تقبل له شهادة مادام حيا ، ومعنى ذلك فقدان الثقة فيه ، وفى القرآن الكريم عن حد القذف بشقيه (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمـــانين جلدة ولا تقبلوا لهم شـــهادة أبدا وأولئـــك هم الفاسقون) (١) فالقرآن حكم عليهم بالفسق ، والفاسق لا تقبل شهادته ، واذا تاب فقد يخرجه الله من دائرة الفسق ، ولكن الله حكم عليه بعدم قبول شهادته بتعبير (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) ، والأبدية استمرار لا نهاية له .

---

(١)سورة النور ٤ .

ولو أن هذا الحد طبق لأمن الناس على أعراضهم ، فلا يستطيع لسان أن يلوكها بسوء ، ولاختفت ألفاظ القذف التى يتداولها العامة وكأنها كلام عادى ٠

وممن يجب اقامة حد القذف عليهم شهود الزنا اذا نقصوا عن أربعة ، أو اختلفوا فى الشهادة ، فاذا شهد ثلاثة على شخص بالزنا شهادة كاملة لا اختلاف فيها ولم يجدوا رابعا أقيم عليهم الحد ، وكانوا قاذفين ، كذلك اذا شهد أربعة ولكنهم تناقضوا أو اختلفوا فى شهادتهم أقيم عليهم جميعا حد القذف ٠

الملاعنـــة :

ومن صور القذف الملاعنة ، وهى حكم خاص بالقذف بين الزوجين ، فاذا اتهم رجل امرأته بالزنا كان المفروض حسب القاعدة العامة أن يقام عليه حد القذف ، لأنه لم يأت بأربعة شهداء ليثبت دعواه ، ولكن من رحمة التشريع الاسلامى بالأزواج ، ومراعاته لواقع الحياة رفع حد القذف عن الزوج ، وجعل له بديلا هو اللعان ، وذلك لأن الأجنبى حين يقـذف فلا مصلحة له فى القذف الا الاساءة الى المقذوف ، أما الزوج فانه يدافع عن عرضه ، ولو علمت المرأة أن زوجها لا يملك الا السكوت حتى لو رأى معها رجلا يواقعها بالزنا ، فان بعض النساء ممن ليس لديهن وازع خلقى أو دينى قد يطمعهن هذا فى مزاولة الفاحشة وهن آمنات ، كما يروى أن أحد أصحاب النبى وهو عاصم بن عدى الأنصارى قال (ان دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته ، فان جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك قضى الرجل حاجته وخرج ، وان قتله قتل به ، وان قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ـ حد القذف ـ وان سكت سكت على غيظ ، اليهم افتح) وبعد ذلك نزلت آية اللعان ، وهى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين) (١) ٠

وصورة الملاعنة أن يتهم الرجل زوجته بالزنا ، فان اعترفت أقيم عليها حد الزنا ، وان أنكرت كان على الزوج أن يشهد أمام القاضى أربع شهادات بالله أنه صادق فى أنه رآها تزنى ، والشهادة الخامسة أن عليه

---

(١) الآيات ٦ ـ ٩ سورة النور ٠

لعنة الله ان كان كاذبا فيما يدعيه عليها ، وعلى الزوجة حينئذ لكى تدفع عن نفسها حد الزنا أن تشهد أربع مرات أنه كاذب فى دعواه الزنا عليها ، والشهادة الخامسة أن غضب الله عليها ان كان زوجها صادقا فيما يدعيه عليها من الزنا ، وعندئذ يفرق القاضى بينهما ، وان كان ضمن الملاعنة ولد أو حمل يدعى الزوج أنه جاء من الزنا ، لا ينسب هذا الد الى الزوج ، وانما ينسب الى أمه ، ويعد ابنا غير شرعى ٠

حد الخمر

الخمر من كبائر المحرمات فى الاسلام ، وسبب تحريمها المحافظة على العقل الذى ميز الله به الانسان عن كل ما يدب على وجه الأرض ، فالخمر تنتهك هذه الميزة الآدمية ، وتحول شاربها الى نوع من سائر الحيوانات العجماء ، فضلا عما يترتب على ذلك من صدور مسلك قد يضر بصاحبه أو بالآخرين ، أو بهما معا ، كما نرى من كثير من الحوادث والجرائم التى تصدر من السكارى ، سواء فيما بين السكارى أنفسهم ، أو ازاء الآخرين ، ومن أشهرها وأكثرها حوادث السيارات التى يقودها سكارى ٠

والخمر كانت شائعة قبل الاسلام حتى أخذت صورة العادة المسيطرة ، وكان من حكمة الاسلام فى معالجة العادات وقوة سلطانها أن حرم الخمر بالتدريج كما هو معروف ٠

والخمر فى الأصل تطلق على ما يتخذ من عصير العنب ، حين يترك حتى يتخمر ويغلى ذاتيا من تلقاء نفسه ، وتطفو فوقه فقاقيع الزبد ، عندئذ تصبح له رائحته الخاصة ، وطعمه اللاذع ، وتنتج عنه مراحل السكر لشاربه ، ولذلك يقول الشاعر المخضرم أبو محجن الثقفى عن تشبثه بالخمر ، وعن أنها من العنب :

اذا مت فادفنى الى أصل كرمة تروى عظامى بعد مونى عروقها

والكرمة شجرة العنب ، ولكن لما كان سبب تحريمها الاسكار ، فان كل مسكر يعد فى الاسلام خمرا ، ويصبح ملحقا بالخمر الأصلية ويأخذ من أحكامها ، والخمر وملحقاتها ثلاثة أنواع :

١ ــ الخمر الناتجة من العنب ٠

٢ ــ كل ما يسكر من أنواع النبيذ سواء من التمر ومن غيره ، وسواء أسكر كثيره أو قليله ٠

٣ ـ المخدرات كالحشيش والأفيـــون والكوكايين والهيروين وغيرها كالقات والقنب ٠

العقـــاب :

١ ـ فأما الخمر الناتجة من العنب فتجتمع فيها كل أنواع العقاب ، فهى بدون خلاف تأخذ ثلاثة أحكام :

(أ) التحريم القاطع بوصفها من كبائر الاثم ، وقد ورد تحريمها صريحا ومؤكدا فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية ، وبالاجماع ، سواء القليل منها والكثير ، ولو قطرة ٠

(ب) النجاسة ، فلا خلاف فى أنها نجسة ، وتنجس كل ما تخالطه ، فلو سقطت قطرة منها على مشروب أو مأكول أصبح كله نجسا ٠

(ج) يقام حد الخمر على شاربها ، سواء شرب قليلا أو كثيرا ، وسواء سكر منها أو لم يسكر ، بل يكفى لاقامة الحد عليه أن تشم منه رائحة الخمر ، ولو لم يره أحد وهو يشرب ٠

٢ ـ وأما المسكرات من أنواع النبيذ وغيره ، فلها حكمان :

(أ) التحريم ، حيث يحرم شربها ، للحديث النبوى (كل مسكر حرام) وسواء فى التحريم القليل والكثير ، حيث ان القاعدة (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ٠

(ب) اقامة الحد على شاربها ، اذا ثبت عليه الشرب ، ولا يكفى لاقامة الحد عليه وجود الرائحة ، بل ينبغى أن يشهد شاهدان عدلان على شربه ، ولا يسرى على هذه الأنواع حكم النجاسة كالخمر ، وبعض الفقهاء يرى نبيذ التمر يأخذ أحكام الخمر ومنها النجاسة ٠

٣ ـ والمخدرات على اختلاف أنواعها تأخذ حكما واحدا هو التحريم ، فيتناول أى شىء منها قل أو كثر محرم ، ولكن لا يسرى عليها حكم النجاسة ، ولا يقام الحد على متعاطيها ، وانما يعزر بعقوبة من عقوبات التعزير التى يحددها ولى الأمر ، كقوانين المخدرات المعمول بها حاليا ، ولكن ابن تيمية ينظر الى أن خطورة المخدرات وأضرارها لا تقل عن الخمر ، فيرى وجوب اقامة الحد فيها ، ويضرب فى ذلك مثالا بالحشيش ، مع أن فى المخدرات أنواعا أشد خطورة وضررا من الحشيش ٠

الحـــد :

وحد الشرب ثمانون جلدة ، وقد ثبت باجماع الصحابة ، وأول ما أقيم حد الشرب بهذا العدد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ٠

حد الافساد الأرض

فى القرآن الكريم (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) (١) ومن تعبير القرآن أخذ اسم هذا الحد ، فأحيانا يسمى حد الحرابة ـ بكسر الحاء ـ مراعاة لتعبير (يحاربون الله ورسوله) وأحيانا يسمى حد الافساد فى الأرض مراعاة لتعبير (ويسعون فى الأرض فسادا) ٠

وهذا الحد ينطبق على قطاع الطرق ، وكل من يكون مصدر افساد فى الأرض ، ولذلك كانت تسميته حد الافساد فى الأرض أقرب الى جوهر حقيقة الحد ، فان محاربة الله ورسوله فى غير صورة الافساد فى الأرض لا تدخل فى نطاق هذا الحد ، فالمشركون الذين كانوا فى صراع وحروب حقيقيـة ضـد الاسـلام حول العقيـدة ، مع أنهم يحاربون الله ورسوله الا أنهم غير مقصودين بهذا الحد ، وانما المقصود به الذين يكونون مصدر فساد فى المجتمع ، وبصفة خاصة الاخلال بالأمن ، وليسوا فى متناول سلطة ولى الأمر ، واذن فهـــذا الحد لا ينطبق الا على من تتوافر فيـه صفتان :

١ ـ أن يكون مصـــدر خطر على المجتمع ، ســواء فى الأمن وفى السلوك ، ففى مجال الأمن كل من يهدد أمن أفراد المجتمع ، أو يهـدد أمن السلطة اذا كان المجتمع الاسلامى راضيا عن هذه السلطة ينطبق عليه هذا الحد ، ومن هؤلاء قطاع الطرق ، سواء أكانوا فى الريف أم فى المدن ، داخل البلدة أو خارجها ، ومثل الذين يفرضون سطوتهم على الناس ، أو يفرضون عليهم الاتاوات ، ومثل الذين يهددون الأعراض باختطـاف النساء أو السطو عليهن ، ومثل أسلوب النشالين الذين يهـــددون أمن ركاب وسائل النقل العام ، وكل ما يمس أمن الناس ، فان الأمن من أسس أهداف الاسلام ، حيث جعله القرآن قرينا للطعام فى قوله تعالى فى سياق

---

(١) سورة المائدة ٣٣ ـ ٣٤ ٠

المن على قريش (أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (١) بمعنى أن حياة الانسان السوية تتطلب ضرورتين ، ضرورة الطعـــام للحياة المادية فى الجسم ، وضرورة الأمن للحياة النفسية فيه ، وكان من أوائل ما بشر به النبى صلى الله عليه وسلم فى الاسلام الأمن ، ومن ذلك قوله فى بدء الاسلام (والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله) ولذلك جعل التشريع الاسلامى عقوبة الاخلال بالأمن حدا من الحدود ومؤدى ذلك أنه حين تقرر العقوبة لا يملك أحد العفو فيهـا .

وكذلك اذا كان الشخص خطرا على المجتمع فى سلوكه ، بمعنى أنه ينشر أو يسهم فى نشر سلوك ضار بالمجتمع من أى ناحية دينيـة أو خلقية أو معيشية أو اقتصادية أو غير ذلك ، ومن هذه المجالات :

(أ) تجار المخدرات الذين يعملون على نشرها بما تلحقه بالمجتمع من أخطار وأضرار .

(ب) الذين يعملون فيما يعرف بشـــبكات الآداب ، لنشر الرذيلة والفساد الخلقى .

(ج) نشر المذاهب والعقائد التى تنافى الأديان السماوية ، وتتعارض بصفة خاصة مع الاسلام ، كالبهائية والشـيوعية ، لأن فى مثلها تهديدا لأمن المجتمع على عقيدته .

(د) اخفاء السلع المعيشية الضرورية ، مما يترتب عليـــه تهديد لاستقرار الحياة المعيشية للمجتمع .

(هـ) الذين يعملون على تهريب الأموال لخارج الدولة وكل ما يترتب عليه تهديد الحياة الاقتصادية واستقرارها .

وبصفة عامة كل ما فيه تهديد لأمن المجتمع على جانب من الجوانب الضرورية فى حياته ، فهو داخل فى نطاق حد الافساد فى الأرض ، سواء صدر من رجل أو امرأة ، مسلم أو غير مسلم .

٢ ـ والصفة الثانية التى يتطلبها توافر حد الافساد فى الأرض أن يكون المفسد فى الأرض ليس فى متناول سلطة ولى الأمر بأى صورة ، سواء بتحدى السلطة أو بالتخفى منهـــا ، لأن المرتكب لشىء من هذه الجرائم لو كان ظاهرا وفى متناول السلطة فان كل جريمة يرتكبها يعاقب

---

(١) سورة قريش ٤ .

عليها بما هو مشرع لها ، من قصاص أو حد أو تعزير ، أما المفسد في الأرض فلابد لكي يستحق هذا الوصـــف أن يكون ليس في متنـــاول السلطة ، كالعصابات التي تتخذ من الجبال أو من الزراعات الكثيفة أوكارا ولا يستطيع المسئولون عن الأمن الوصول اليهم ، وكالذين يعمـــلون في مجال من المجالات السابقة ونحوها خفيـــة ، وكثيرا ما تظهر آثارهم ولكن قدرتهم على التخفي أو الهروب تبعد عنهم قبضة السلطة ٠

ومما يدل على أن عدم تمكن السلطة من المجرم هو صلب حد الافساد في الأرض ، ومما يدل كذلك على أن المقصود بحد الافساد في الأرض ليس مجازاة الجاني على جنايته ، وانما اقرار الأمن في المجتمع قوله تعالى عقب آية الحد السابق ذكرها (الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) ومضمون ذلك أنه مهما ارتكب من جرائم الافساد في الأرض فانه معفو عنه اذا أخلص التوبة ، وأصبح المجتمع آمنا من شره ، لأن توبته تحقق كل الهـــدف من الحد وهو أمن المجتمع واستقراره ، وذلك بأن يسلم نفسه الى سلطة ولى الأمر من تلقاء نفسه ، معلنا توبته بصدق ٠

العقـــاب :

تكون جرائم الافساد في الأرض عديدة متنوعة ، وتتفاوت أخطارها وأضرارها تفاوتا شديدا ، لذلك ترك القرآن لولى الأمر تحديد العقـوبة المناسبة للجريمة ، ولكن القرآن يضع لولى الأمر مجموعة من العقوبات ، عليه أن يختار منها ما يناسب الجريمة ، وما يكفي لردع وزجر من تسول له نفسه أن يقتدى بهذا المفسد ويسلك سلوكه ، وهذه العقوبات هي : القتل ـ القتل بعد الصلب ـ أن تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى كالقطع في حد السرقة ـ أن ينفى من المجتمع بالسجن أو الاعتقال أو غير ذلك ، وقد حدث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم أن جاء الى المدينة وفد من احدى قبائل البدو مسلمين فاعتلت صحتهم بالمدينة لتعودهم على البادية ، فوجههم النبي الى أحد مراعى ابل الصدقة ليبقوا فيه حينا يشربون من نتاج الابل ، ففعلوا واستردوا نشاطهم ، فارتدوا عن الاسلام ، وقتلوا الراعي ، ومضوا بالابل ، فأرسل النبي في أثرهم حتى أحضروهم ، وقد ارتكبوا ثلاثا هي أكبر الجرائم ـ الردة ، والقتل ، والسرقة ، فأمر بهم النبي فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسملت أعينهم ، وألقوا في الفضاء حتى ماتوا ، ليـــكونوا عبرة لأمثالهم من الوافدين من البـــادية والصعاليك وهم يضمرون الشر ٠

فلولى الأمر أن يختار عقوبة واحدة من العقوبات السابقة أو أكثر ، ولكن حين تقرر عقوبة ما تصبح حدا لا يملك ولى الأمر نفسه أو غيره أن يعفو فيها ، ومثال ذلك أن يلجأ قاطع طريق الى القتل ، فيأمر ولى الأمر بقتله ، فلا يملك أولياء الدم العفو عنه كما فى القصاص ، لأن عقوبة القتل فى حالة الافساد فى الأرض حد وليست قصاصا ، والفرق بين القصاص والحدود فى هذا معروف كما سبق .

التعـزير

التعزير سلطة يعطيها التشريع الاسلامى لولى الأمر فى عقاب من تصدر منه مخالفة أو جريمة ليست لها عقوبة محددة من قصاص أو حد أو كفارة ، فلولى الأمر أن يحدد العقاب المناسب ، وله أن يعفو ، حسبما يتطلب الأمر ، والقوانين الوضعية المعمول بها حاليا فى المحاكم ـ باستثناء ما يخالف نصوص الشريعة ـ تعد كلها من باب التعزير ٠

فالغش فى التعامل ، أو الخداع والتحايل ، مما شاع وأصبح من أكثر جرائم العصر ، والتهرب من الالتزامات بما يضر بالغير ، والكذب الذى يترتب عليه ضرر ، أو يمكن أن يكون مصدر تقليد ، أو خروج المرأة متبرجة ، أو غير ذلك من كل جريمـــة أو مخالفة ليس فى عقوبتها نص ، فهى من باب التعزير ، ولو لم تـــكن محرمة فى الدين ، كالذى يفترش الطريق لينام أو يبيع ســلعة فيضر بسهولة ســـير الناس فى الطريق ، وكذلك من يترك سيارته فى مكان يؤثر على حركة المرور وغير ذلك ٠

ولا حدود لعقوبات التعزير ، وانما تتحدد حسب خطـورة الجريمة أو المخالفة ، ويمكن أن يكون من عقوبات التعزير :

١ ـ اللـــوم ٠
٢ ـ الانـذار ٠
٣ ـ الغرامة المالية ٠
٤ ـ الضرب ٠
٥ ـ الجـلد ٠
٦ ـ الســجن ٠
٧ ـ الاعـــدام ٠

ملكية ولى الأمر للعقوبة :

من المعروف أن كل العقوبات فى التشريع الاسلامى سواء القصاص والحدود والتعزير ينفذها ولى الأمر ، ولكن التعزير يتميز فى هذا بشىء أساس ، هو أن القصاص والحدود ينفذها ولى الأمر ، ولكنه لا يملك العفو فيها ، لأن القصاص ملك لأولياء الدم وحدهم ينفذونه أو يعفون عنه ، والحدود ملك لله وحده ، لا يملك أحد أن يعفو فيها عن الجانى ، أما التعزير فهو ملك لولى الأمر صاحب السلطة ، يملك تقدير حجمها ونوعيتها ، ويملك تنفيذها أو عدم تنفيذها حتى بعد أن يحكم بها ، فقد يكون العفو فى بعض المواقف أحسن اصلاحا لبعض المجرمين من العقاب ٠

ولا يصح أن ينوب أحد عن ولى الأمر فى التعزير الا الأب أو الزوج ، فان عقاب الأب لابنه على ما يصدر منه هو نوع من التعزير كان فى الأصل ملكا لولى الأمر ، وكذلك تأديب الزوج لزوجته على ما يصدر منها مما يستوجب العقاب المألوف هو نوع من التعزير ٠

ما يخاطب به الاسلام الأفراد ينحصر فى مجالين ، المجال الروحى الذى ينطوى عليه الفرد فيما بينه وبين ربه ، والمجال الخلقى الذى يظهر به فى المجتمع .

واذن فالانتماء الصحيح للاسلام يتطلب من المسلم اجتماع أمرين :

١ ـ جانب نفسى روحى

٢ ـ جانب خلقى اجتماعى

الجانب النفسى الروحى

يهتم الاسلام أشد الاهتمام بأن يتوافق ظاهر المسلم مع باطنه ، واختلاف الظاهر عن الباطن ممقوت أشد المقت فى الاسلام ، وهذا الاختلاف يسمى فى الاسلام النفاق ، فاذا كان النفاق فى صفة أو فى بعض الصفات المحددة نفاقا جزئيا عندئذ يرجى التخلص منه اذا صدق الشخص فى توبته واقلاعه عنه ، وفى الحديث النبوى (ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ؛ واذا اؤتمن خان ؛ فاذا وصل النفاق الى العقيدة كان أبغض الأوضاع وأسوأها على الاطلاق ؛ وفى القرآن (أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) (١) وكونهم فى أسفل درك من النار فى الآخرة يتضمن أنهم فى أسوأ وضع دينى فى حياتهم الدنيا ، لأن العقاب يتحدد بمقدار الجرم ، وهذه التفرقة بين النفاق الجزئى والنفاق

(١) سورة النساء ٤٥ .

الكلى تتضمن أن الاسلام يشبه النفاق بمرض كمرض القلب مثلا ، يمكن فى مراحله الأولى أن يشفى منه صـــاحبه ، أو أن يعيش به حياة شبه عادية ، فاذا وصل الى مرحلة الخطر لا يرجى له شفاء ، والقرآن فعلا يعبر عن النفاق بأنه مرض فى القلب (فى قلوبهم مرض) (١) مع مراعاة أن القرآن يستخدم القلب كثيرا بمعنى العقل ، ويعبر عن أن مرحلة نفـاق العقيدة لا شفاء منها بمثل قوله تعالى (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم الى يوم يلقونه) (٢) بمعنى نفاقا دائما ملازما ، ويمكن أن يقال ان الجاسوس الذى يعمل لمصلحة نفسه يمثل أكمل صورة للنفاق ·

وظاهر المرء مكشوف يمكن أن تحكمه التشريعـــات ، وقد وضع الاسلام تشريعا يحكم كل مظاهر السلوك الأساسية فى حياة الناس ، أما باطن الانسان فلا يمكن أن يتحكم فيه تشريع ، ولذلك فهو متروك للوازع الدينى لدى الشخص ، على أساس أن يجعل باطنه موافقا لمبادىء الدين وتشريعه ، بحيث يتوافق ظاهره وباطنه ·

وفيما يتعلق بالجانب النفسى ، فان المسلم الذى يتمسك بالاســلام تمسكا صحيحا عن فهم ووعى لا بد أن يكون من أهم مقوماته الكامنة فى أعماق نفسه :

أولا : ثبات العقيدة :

العقيدة فى الاسلام سهلة الفهم ، لا غموض فيها ولا التواء ، فهى تتكون من عنصرين واضحين ، أحدهما (لا اله الا الله) والآخر (محمد رسول الله) فمن جعلهما معا عقيدة له وشهد بهما فهو مسلم ·

والمتأمل فى الاسلام يدرك بوضوح أن العنصر الأول وهو (لا اله الا الله) هو القاعدة الدينية ، وأن العنصر الثانى وهو (محمد رسول الله) نابع من تلك القاعدة ، فمن الواضح فى الاسلام بصورة قاطعـة وجوب الاعتقاد بأن الشهادة بوحدانية الله هى قاعـــدة كـــل الأديان السماوية ، وهى اللبنة الأولى التى بنى عليها كل نبى سابق ديانته ، وهذا واضح متكرر فى القرآن كثيرا ، وفى الحديث النبوى (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا اله الا الله) ·

وقد يفهم البعض من غير المسلمين أن أهم ما فى الاسلام هو الانتماء الى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا غير صحيح على اطلاقه ، فمن الواضح الذى لا شك فيه أن الايمان بالله وحده هو محور الاسلام ،

---

(١) سورة البقرة ١٠ ·

(٢) سورة التوبة ٧٧ ·

وأما وضع شخصية النبى محمد فهو محدد فى الاسلام بصورة واضحة لا لبس فيها قط ، هى أنه بشر كسائر الناس ، لا يتميز عنهم الا بكونه مرسلا من الله برسالة يبلغها الى الناس عامة ، ويتركها معروضة عليهم الى يوم القيامة ، وصلته بالله عن طريق الوحى اليه ، ولكن كونه رسولا من الله الى الناس يحتم أمرين :

١ ـ أن يتصف بالكمال الخلقى ، لأنه لو حدث شك فى شىء من خلقه لفقدت الثقة فيه أو اهتزت ، وبالتالى فى الرسالة الدينية التى يحملها ، وهكذا الوضع بالقياس الى كل الأنبياء الذين يحملون رسالة من الله الى الناس ، وليس من ريب فى أنه كان مثالا باهرا كاملا فى كل جوانب خلقه ، والقرآن يبرز أن هذه الصفة قد تحققت له ، بمثل قول الله سبحانه (وانك لعلى خلق عظيم) (١) ٠

٢ ـ وجوب طاعته فيما تضمنته رسالته الدينية ، لأنه بصفته (رسولا من الله) يصبح هو المتحدث عن الله ، والمبلغ عنه ، وتصبح طاعته طاعة لله ، وهذا المعنى صريح فى القرآن (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (٢)٠

ومن المهم غاية الأهمية أن تكون العقيدة فيما يتعلق بالله وبالرسول مبنية على أمرين محددين ، هما اليقين والثبات :

فاليقين معناه أن يكون الشخص مقتنعا كل الاقتناع بعقيدته ، فلو داخلته ريبة أو شك اختل ايمانه ، ولذلك يدعو الاسلام الى التأمل واستخدام العقل ، ليكون الايمان نابعا من معرفة واقتناع ، والقرآن حافل بالدعوة الملحة الى التأمل والتفكير ، ولذلك يرى كثير من علماء المسلمين أن الذى يؤمن لمحض تقليد غيره لا يعد مؤمنا ، بل لا بد أن يكون ايمانه نابعا من معرفة ولو مجملة ، ومن اقتناع شخصى ، لأن الذى يؤمن لمحض التقليد لا يعد مؤمنا حقيقيا ، فضلا عن أنه يمكن أن يتكرر اعتناقه أى مذهب آخر أيضا بالتقليد ، والتحرج فى التقليد منصب على العقيدة بالذات ، وليس على الأمور الفقهية أو الفرعية ٠

والثبات معناه الاستقرار على العقيدة بصورة ملازمة ودائمة ، فالشخص يملك عدم الدخول فى الاسلام بكامل حريته ، وفى القرآن (لا اكراه فى الدين) (٣) ، ولكنه حين يعتنق الاسلام بعد تخييره ، وبعد دعوته الى التفكير والتأمل ، يصبح اعتناقه الاسلام عقدا لازما لا يملك فسخه ٠

---

(١) سورة القلم ٤ ٠ (٢) سورة النساء ٨٠ ٠

(٣) سورة البقرة ٢٥٦ ٠

وثبات العقيدة في نفس المسلم الصحيح الاسلام يهيىء له استقرارا نفسيا وطمأنينة روحية ، وهذا بالغ الأهميه في حياة الانسان ، فان الشعور الديني عنصر أصيل في تكوين الانسان ، بل انه يعد غريزة من غرائزه ، والمقصود بغريزة الشعور الديني هو شعور الانسان بقوة خفية ذات تأثير في حياته وفيما حوله ، ومهما خفيت عليه معرفة هذه القوة ، بل مهما حاول انكار وجودها فانه فيما بينه وبين نفسه لا يستطيع تجاهل وجودها وتأثيرها ، وهذا واضح في سلوك كل المجتمعات مهما بلغت من البداوة ، ومهما أوغلت في الالحاد ، وكل مظاهر التدين لدى الشعوب البدائية تدل على الاحساس بهذه القوة الخفية وبتأثيرها ، فعبادة الأصنام ، وعبادة الشمس ، وعبادة النار ، وغير ذلك ، كلها تعبير واضح عن الاحساس بهذه القوة الخفية وبتأثيرها ، وما هذه الأشياء التي يعبدونها الا رموز لها ، والقرآن ينقل عن مشركي العرب هذا المعنى حين سئلوا كيف يعبدون حجارة لا تضر ولا تنفع ، ففي القرآن (وقالوا ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) (١) وهذه القوة الخفية في الحقيقة هي الله سبحانه ، ولكون الانسان يحمل روحا ، والروح من العالم الخفي ، فلا بد أن يكون لها نوع ما من الاحساس بهذه القوة الخفية التي هي ذات الله تعالى ، ولكن كثيرا من الناس يضلون طريقهم عن المعرفة الصحيحة بالله ، فيتمثلونه في شيء من مخلوقاته كالشمس أو النار أو غير ذلك ، وكل مهمة الأنبياء جميعا أن يصححوا للناس هذا الخطأ ، فيأخذوا بأيديهم الى الطريق الصحيحة في معرفة الله ، وهذه الغريزة هي تفسير الحديث النبوي (كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) فالفطرة بمعنى أن كل انسان يولد ولديه احساس روحي بوجود الله ، وهو احساس صحيح ، ولكن المجتمع يتدخل أحيانا فيوجه الفرد اتجاهه الخاص ، وكثيرا ما يكون هذا الاتجاه مخالفا للفطرة السليمة .

ومعرفة الله في الاسلام أمام جانبين ، جانب عن ذات الله ، وجانب عن صفاته .

فأما جانب ذات الله من حيث تصور الشكل المكون للذات ، فهذه طريق مسدودة ، فلا يجوز للمؤمن أن يتجاوز في تصوره وتخيله لذات الله أبعد من أنه سبحانه موجود ، دون أن يحده زمان أو مكان ، فلا أول لوجوده ولا آخر ، وليس له مكان معين ، أما الصورة فلا يمكن لانسان قط أن يتخيلها في صورة أو شكل محدد ، لأن الانسان انما يصوغ عناصر

---

(١) سورة الزمر ٣ .

صوره الخيالية من الواقع ، ومهما كانت الصورة التى يتخيلها غريبة فلا بد أن تكون أجزاؤها مأخوذة من واقع ، وذات الله لم يرها انسان ، ولا يمكن عقلا أن تكون عناصرها من الواقع المادى المخلوق ، فلا يمكن تخيل صورة معينة لها ، والقرآن أغلق هذا الباب بتعبير موجز بليغ ، حيث يقول عن ذات الله (ليس كمثله شيء) (١) ومعنى ذلك عدم امكان تصور ذاته سبحانه فى شكل معين .

وأما الطريق الثانية وهى طريق صفات الله ، فهى مفتوحة على مصراعيها فى حدود الكمال المطلق لله ، والكمال المطلق بمعنى أنه لا حدود له قط ، بخلاف كمال غير الله فمهما بلغ فهو نسبى أو مقيد ، وحين يقال هذا الرجل أو هذا الحيوان كامل القوة ، فان لقوة الرجل أو الحيوان مهما تبلغ حدودا لا تستطيع تجاوزها ، أما قوة الله سبحانه فلا حدود لها قط ، بل ولا يمكن تصور منهج معين لهذه القوة ، وقد عبر القرآن عن أثر هذه القوة بقوله سبحانه (انما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون ..) (٢) وفى الحديث النبوى (ان لله تسعة وتسعين اسما) هى فى الواقع صفات الله ، مثل ، العليم ، الحكيم ، السميع ، البصير ، القدير ، الغفور ، الرحيم .

ومن خلال ايمان المؤمن بصفات الله يصوغ سلوكه ، فخوفه من الله المطلع على كل ظاهر وخفى يجعله يلتزم السلوك الذى يرضى عنه الله ، ويجتنب ما يغضبه ، وأمله فى الله القوى الغفور الرحيم يجعله يرجع الى الله تائبا اذا صدر منه خطأ أو عصيان ، وطمعه فى الله الغنى الكريم يجعله يفعل الخير ويتقرب الى الله بالطاعة والعبادة لينال مما عند الله من خير فى الدنيا والآخرة ، وهكذا .

كما أن ايمان المؤمن بصدق الرسول فيما يخبر به عن الله يجعله يؤمن بأمور الغيب التى يخبر عنها ، كالآخرة ، والبعث بعد الموت ، والجنة والنار ، والملائكة ، وغير ذلك من الغيبيات ، وكل هذه الأمور ونحوها تصبح جزءا جوهريا من الايمان ، فينهار ايمان من ينكر أمرا من هذه الأمور الجوهرية مكذبا به ، ولذلك كان من المعروف فى التشريع الاسلامى أن من ينكر أمرا صريحا ورد فى القرآن ، أو ينكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة فليس بمؤمن ، لأنه فى كلا الحالين ينكر أمرا جوهريا فى الدين ، وينبغى أن يكون واضحا أن الانكار غير العصيان ، فالذى يعترف بشيء فى الدين ثم يخالفه يكون محتفظا بصفة الايمان ، ولكنه يوصف بالعصيان ، ويمكن له أن يطلب الغفران من الله ويتوب اليه

---

(١) سورة الشورى ١١ . (٢) سورة النحل ٤٠ .

فيعود بذلك الى الطريق القويم ، ولكن الاشكال في أن ينكر أصلا من الأصول التي يقوم عليها الايمان مصرا على عدم الاعتراف به ، فهذا المسلك هو الذى ينزع عنه صفة الايمان ٠

وعلى سبيل المثال فان من الأصول الجوهرية فى الاسلام الايمان بكل الأنبياء والمرسلين السابقين ، وبالكتب السماوية السابقة ، على أساس أنهم جميعا من عند الله ، وكذلك ما أخبر به الأنبياء من غيبيات ، ومن أمثلة هذه الأصول فى القرآن (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) (١) وفى الحديث النبوى (الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالبعث بعد الموت ، وبالقدر خيره وشره) وهذه الأمور مشتركة بين كل الأديان السماوية ، ودعا الى الايمان بها كل الأنبياء ، والمسلم الذى ينكر شيئا منها تنتفى عنه صفة الايمان ٠

وكل ما يتعلق بالعقيدة يجب أن يكون الايمان به واضحا فى النفس بصورة اليقين ، وثابتا فى صورة الرسوخ ، ولذلك لا يرفض الاسلام الشك الذى يتخذه المؤمن وسيلة الى اليقين ، فيصبح هذا الشك دافعا الى البحث والتأمل والتفكير ، وهذا ما يدعو اليه القرآن فى كثير جدا من آياته ، بل يضرب القرآن مثالا للشك الهادف الى اليقين العملى فى موضوع البعث الذى كان عقبة كبرى بين كل الأنبياء وشعوبهم ، وذلك فى قصة النبى ابراهيم عليه السلام ، ففى القرآن (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا) (٢) فالمرفوض أن يكون الشك غاية ، أما أن يكون وسيلة الى اليقين والايمان فهذا مضمون ما يدعو اليه القرآن ٠

والفرق من الناحية النفسية شاسع بين من يحمل عقيدة يشعر بأنها ثابتة مستقرة ، ومن يحمل عقيدة مضطربة قلقة هو نفسه غير موقن بها ، فلا شك أن الحالة الأولى تبعث فى النفس استقرارا وطمأنينة ، بينما الأخرى لا بد أن تثير فى نفس صاحبها شيئا من القلق والحيرة ٠

ويبدو فى القرآن حرص شديد متكرر على أن يكون جوهر العقيدة وخصوصا ما يتعلق بالايمان بالله واضحا فى نفس المؤمن حتى يتيسر له الاقتناع ورسوخ العقيدة ، ويتركز هذا فى أمرين ، أحدهما أنه الاله الخالق والمالك لكل شىء ، والآخر أنه الواحد الذى لا شريك له ، والقرآن

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ ٠ (٢) سورة البقرة ٢٦٠ ٠

يسوق ادلة ليست موغلة فى الفلسفة العقلية ، ولكنها مأخوذة من الواقع لتكون سهلة الاقناع ، وفى متناول كل العقول ، فهو مثلا يسوق فى كثير من آياته قضية الخلق مشيرا الى أن كل الأشياء الموجودة مخلوقة وحادثة ، وكل مخلوق لا بد له من خالق ، ثم يسأل المشركين فى آيات كثيرة : هل هناك من يدعى منافسة الله فى الخلق ؟ ، بل يسألهم عن أنفسهم – وهم بطبيعة الحال مخلوقون – هل وجدوا بغير خالق ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم ؟ فمن ذلك فى القرآن (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) (١) .

وعن البعث بعد الموت يسوق القرآن أدلة كثيرة منها أنه لا غرابة فى احياء الناس بعد أن يصيرهم الموت ترابا ، لأنهم أصلا مخلوقون من تراب فى خلق آدم ، فبعث الميت ينبغى قياسه على خلق آدم ، وفى القرآن (كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين) (٢) .

وخلق آدم يجعله القرآن أيضا موضوعا يقيس عليه خلق المسيح عليه السلام للذين يجدون غرابة فى وجود المسيح بدون أب ، فآدم خلقه الله بدون أب ، وفى القرآن (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه الله من تراب ثم قال له كن فيكون) (٣) وتكتمل نماذج قدرة الله على الخلق بدون قواعد ثابتة بأن آدم خلق بدون أب ولا أم ، وحواء أم البشرية خلقت من ذكر هو آدم ولكن بدون أم ، والمسيح خلق من أم ولكن بدون أب ، فهل يقال لآدم انه ابن الله ، أو لحواء انها ابنة الله ؟

وعن الأمر الثانى وهو وحدانية الله يسوق القرآن أدلة كثيرة منها أنه قياسا على واقع الناس لو كان فى الكون الهان لكان لكل منهما طابعه ومنهجه المتميز عن الآخر ، ثم لحدث بينهما اختلاف وتنازع وتنافس يؤدى الى فساد السموات والأرض ، ففى القرآن عن السموات والأرض (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) (٤) .

وحينما يتهيأ للمؤمن رسوخ العقيدة ووضوحها فى نفسه بمثل هذه النتائج وغيرها لابد أن يشعر بالطمأنينة العقلية والاستقرار النفسى ، والقرآن يجعل الطمأنينة النفسية هدفا مقصودا ومحددا من أهداف الايمان ، حيث يقول (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) (٥) واذا راعينا أن القرآن يستخدم القلب غالبا فى الدلالة على العقل ، مثل (لهم قلوب لا يفقهون بها) (٦) فمعنى ذلك أن القرآن

---

(١) سورة الطور ٣٥ – ٣٦ .
(٢) سورة الأنبياء ١٠٤ .
(٣) سورة آل عمران ٥٩ .
(٤) سورة الأنبياء ٢٢ .
(٥) سورة الرعد ٢٨ .
(٦) سورة الأعراف ١٧٩ .

لا يقصد بالاطمئنان النفسى الناتج عن الايمان مجرد اطمئنان المشاعر والانفعالات ، وانما يقصد أيضا ما هو أهم ، وهو الاطمئنان العقلى بمعنى اليقين والاستقرار ٠

ثانيا ـ الشعور بالأمن :

مما يترتب على الايمان فى نفس المؤمن الثابت الايمان أن يشعر بالأمن النفسى بصفة دائمة ، بحيث يكون شعوره بالأمن أقوى مما حوله من الظروف ، فان يقينه بأن الله أقوى من كل شىء يجعله لا يحرص الا على رضا الله ، وهو موقن بأنه لن يصيبه الا ما يريده الله ، ومادام الله راضيا عنه ، فان كل ما يصيبه ولو كان ضررا فهو مقبول ، لأنه يشعر أنه بصبره ورضاه بقضاء الله يزيد فى رضا الله عنه ٠

ومن النتائج النفسية للايمان الحقيقى أن المؤمن لا يخشى أحدا كما يخشى الله ، ولا يخشى شيئا كخشيته لما يغضب الله ، وفى القرآن توجيه للمؤمنين أن يجعلوا خوفهم كله من الله ، ومن ذلك (فلا تخشوا الناس واخشون) (١) ٠

وبمقدار عمق الايمان يكون الأمن النفسى ، والقرآن يحدد أن الايمان العميق الخالص من الشوائب التى تغضب الله هو الذى يحقق الأمن النفسى ، ومن ذلك قوله تعالى (فأى الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن ٠٠) (٢) ولذلك يبلغ الأمن النفسى قمته عند الأنبياء والمرسلين ، فهم يخشون الله وحده ، ولا يخشون أحدا سواه ، كما فى القرآن الكريم (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله وكفى بالله حسيبا) (٣) ٠

ومقاييس الأمن والخوف عند المؤمنين تختلف عنها عند غيرهم ، فالانسان العادى تدور مشاعر الأمن والخوف عنده حول ذاته ، فكل ما يحقق المحافظة على ذاته ومصالحه الشخصية فهو مصدر أمن ، وبالعكس مصدر الخوف ، أما المؤمن فان مشاعر الأمن والخوف عنده بالدرجة الأولى تدور حول رضا الله وغضبه ، فكل ما يحقق رضا الله فهو مصدر أمن ولو كان فيه ضرر ، وكل ما يخشى منه غضب الله فهو مصدر خوف ولو كان فيه نفع ٠

---

(١) سورة المائدة ٤٤ ٠
(٢) سورة الأنعام ٨٢ ٠
(٣) سورة الأحزاب ٣٩ ٠

وليس معنى الامن عند المؤمن انعدام مصادر الخوف لديه ، بل معناه ان ايمانه بالله وثقته فيه تكون أقوى من أى مصدر خوف يحيط به ، وفى أى موازنة فى نفسه بين ارضاء الله وارضاء الناس ، أو بين ارضاء الله وتجنب مصادر الخوف والضرر يكون ايمانه وارضاؤه لله دائما فى الكفة الراجحة ٠

ولكننا نلحظ فى التشريع الاسلامى مراعاة واضحة لواقع الناس وقدراتهم المختلفة ، وشعار ذلك فى القرآن الكريم (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (١) ولذلك يتجه التشريع الاسلامى الى اعفاء المسلم من تبعات الشق الأول من المقياس السابق ، وهو التزام ما يحقق رضا الله ولو كان فيه ضرر ، فيعفيه من تحمل الضرر مادام قلبه متمسكا بالحرص على رضا الله ، ومن القواعد الاسلامية رفع المسئولية عن المكره ، وكذلك فى حالة التضرر ، ومن أمثلة ذلك فى العبادات أن الصلاة تشترط لها الطهارة بالماء ، ولكنه يباح للمسلم اذا خشى الضرر من الماء أو شدة برودته أن يكتفى بطهارة رمزية هى التيمم ، وهو وضع الكفين على أرض طاهرة مرتين ، وبعد أن ينفضهما من التراب يمر باحداهما على وجهه ، ثم بالأخرى على ذراعيه ، ومن الأمثلة أن الاسلام يحرم شرب الخمر تحريما قاطعا ، ولكن اذا فقد الانسان الماء ، وخشى على نفسه من العطش أباح له الاسلام شربها حينئذ ، ومما جاء فى القرآن عن مراعاة الضرورة واباحة المحظورات فيها (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم) (٢) ومن هـذا القبيل نجد فى التشريع الاسلامى قاعدة عامة ، هى (الضرورات تبيح المحظورات) بل ان العقيدة نفسها على أهميتها وخطورتها يسرى عليها هذا المقياس ، فالمؤمن مطالب بالايمان ظاهرا وباطنا ، ولكنه اذا أحاطت به ظروف قاهرة تفوق احتماله جاز له أن يكتفى بالعقيدة الراسخة داخل نفسه ، وأن يظهر ما يخالفها طالما ظلت هذه الظروف القاهرة محيطة به ، وفى القرآن (من كفر بالله من بعد ايمـــانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) (٣) ٠

وهذا التيسير من شأنه أن يزيد المؤمن اطمئنانا نفسيا الى أنه مع كونه فى حماية الله ، فان هذه الحماية رحيمة به ، تفرج عنه الضيق ، وتيسر له العسر ، وتوجد له المخرج من المآزق ، وهذه المعانى يؤكدها القرآن ، فمن ذلك (فان مع العسر يسرا ان مع العسر يسرا) (٤) وفى

---

(١) سورة البقرة ١٨٥ ٠ (٢) سورة البقرة ١٧٣ ٠
(٣) سورة النحل ١٠٦ ٠ (٤) سورة الشرح ٥ ـ ٦ ٠

القرآن من هذه المعانى التى تملأ نفس المؤمن شعورا بالأمن من كل شىء (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (١) ٠

وفى الحديث النبوى ترسيخ لمعنى الأمن فى النفوس ، حيث يقول النبى صلى الله عليه وسلم (واعلم أن الناس جميعا لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك ، وهذا تطبيق لمضمون القرآن (فلا تخشوا الناس واخشون) (٢) وفى القرآن كثير من هذه المعانى التى ترسخ فى نفس المؤمن الشعور بالأمن ، ومن ذلك (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) (٣) وأيضا (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٤) ٠

ثالثا ـ الشعور بالحرية والاستقلال :

يمتاز الاسلام بأنه يجعل الفرد يشعر شعورا واضحا بأن الصلة بينه وبين الله مباشرة بحيث لا يحتاج الى وصاية دينية من أحد عليه ، ولا يحتاج قط الى من يكون وسيطا بينه وبين الله ٠

والاسلام لا يعرف اصطلاح (رجال الدين) بالمعنى المتداول لهذا المفهوم ، وانما يعرف (علماء الدين) بمعنى وجود أشخاص متخصصين فى علوم الدين يتولون تبليغ الدين على وجهه الصحيح الكامل الى الناس ، وهذا مما دعا اليه القرآن (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) (٥) ولكن علمهم الدينى لا يعطيهم أى ميزة دينية ، وانما يحملهم مسئولية العمل بهذا العلم ، وتبليغه الى الناس ، أما منزلتهم الدينية عند الله وعند الناس فانما تتحدد بمقدار أداء هذه المسئولية ، فالذين يؤدونها يرتفعون الى منزلة تجعلهم (ورثة الأنبياء) لأنهم يؤدون مهمة الأنبياء ، ولكن هذه المنزلة مهما علت لا تعطيهم قط أى وصاية دينية على أحد ، وليست لهم وساطة قط فيما بين الله والناس ، وهذا أمر غير خاف فى الاسلام ، بل هو من البدهيات المعروفة ، والتى لا تخفى الا على الموغلين فى الجهل بالاسلام ، أما من لم يؤد هذه المسئولية من العلماء فان غيره من عامة الناس ممن يؤدون واجباتهم الدينية يكون خيرا منه عند الله وعند الناس ٠

---

(١) سورة الطلاق ٣ ٠
(٢) سورة المائدة ٤٤ ٠
(٣) سورة الحج ٣٨ ٠
(٤) سورة الطلاق ٣ ٠
(٥) سورة التوبة ١٢٢ ٠

ويترتب على هذا أثر نفسى بالغ الأهمية فى نفسية كل مسلم يعرف حقيقة الاسلام ، وهو الشعور بالحرية والاستقلال الدينى ، فالمسلم يشعر بأنه لا يحتاج قط الى واسطة بينه وبين الله ، بل صلته بالله صلة مباشرة ، سواء أكانت صلة حسنة أم سيئة ، ولا يستطيع أحد قط مهما بلغ علمه ، ومهما علت منزلته الدينية أن يتحكم فى هذه الصلة ، أو أن يغير من مسارها أو طبيعتها الا الله ذاته ·

وشخص واحد فى الاسلام هو الصلة بين الله والناس ، هو النبى الذى حمل رسالة الاسلام من الله الى الناس ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو بالضرورة العقلية الواسطة بين الله والناس ، لأنه هو الذى حمل اليهم هذا الدين ، ومع ذلك فان هذه الواسطية ليست لشخصه ، وانما لصفته ، وهى كونه (رسولا) من الله ، فالايمان متجه أساسا وكلية الى الله ، وكل وضع الرسول أنه (مبلغ) عن الله ، وهذا المعنى يتكرر فى القرآن كثيرا بوضوح شديد ، ومن ذلك (قل انما أنا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار) (١) بل يتناول القرآن هذا المعنى بأسلوب أشد وضوحا ، فيؤكد أن النبى نفسه ـ على جلال منزلته ـ لا يستطيع بذاته هداية شخص مهما حرص على ذلك ، لأن الهداية ليست من النبى ، وانما من الله وحده ، فيقول سبحانه (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) (٢) ·

واذا كان هذا المعنى بالقياس الى الرسول نفسه بهذا الوضوح فى القرآن ، فهو بالقياس الى غيره أشد وضوحا من باب أولى ، ولذلك كان من الواضح فى الاسلام أن مصادر التشريع المنصوص عليه فى الاسلام تنحصر فى ثلاثة :

١ ـ القرآن الكريم ، فكل ما ورد فيه من نصوص وأحكام صريحة ملزم لجميع المسلمين ، ولا يملك أحد قط فى أى مذهب أو عصر أن يكون له حينئذ موقف مخالفة أو انكار ·

٢ ـ ما ثبت وروده عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث صحيح ، فهو ملزم للمسلمين ، بحكم أن النبى هو المشرع فى الاسلام ·

وفى القرآن عن المصدرين السابقين (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (٣) ·

---

(١) سورة ص ٦٥ ·
(٢) سورة القصص ٥٦ ·
(٣) سورة الأحزاب ٣٦ ·

٣ ـ المصدر الثالث هو اجماع علماء المسلمين على حكم لم يرد فيه نص فى القرآن أو الحديث النبوى الصحيح ، فهذا الاجماع يصبح مصدرا تشريعيا ملزما للمسلمين ، وينبغى ان نلحظ أن (الاجماع) هو المصدر التشريعى وليس ما يصدر عن شخص أو أشخاص مهما كانت منزلتهم العلمية أو الدينية ثم يقاس على المصادر السابقة ٠

وكل هذا يؤكد فى وضوح شديد أن الاسلام يدعو أتباعه الى الحرية والاستقلال النفسى والفكرى فى حدود التشريع السماوى المحدد ، ليتيح للناس التحرر النفسى فيتسنى لهم الاتصال المباشر بالله ، وليقطع الطريق على الذين يريدون استغلال العاطفة الدينية لدى المؤمنين لايجاد زعامات دينية لمصالحهم الشخصية ، أو لأى هدف غير الاتجاه المباشر الى الله ٠

ويضرب القرآن أمثلة كثيرة لتنفير الناس من الانقياد الدينى فى أى طريق غير طريق الله وأنبيائه المرسلين ، فالذين يتخـــذون من أهوائهم أو آبائهم أو من زعمائهم أو من أى شىء غير الله طريقا دينيا أولئك جميعا فى ضلال مبين ، ويصور القرآن مشاهد فى جهنم من مشاهد اتباع السادة والزعماء فى الدين ، فيقول على لسان الأتباع (**وقالوا ربنا انا أطعنـــا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا**) (١) وهذا المعنى وان كان فى سياق الحديث عن الشرك الا أنه يعالج المبدأ ، وهو اللوم والتسفيه لمن يتخلى عن حريته واستقلاله الفكرى منساقا وراء غيره بدون بصيرة ٠

والنبى يدعو الى هذه الحرية ، وهذا الاستقلال الفكرى فى وضوح شديد ، بمثل قوله (**لا يكن أحدكم امعة ، يقول أنا مع الناس ، اذا أحسن الناس أحسنت ، واذا أساءوا أسأت ، بل وطنوا أنفسكم اذا أحســـن الناس أن تحسنوا ، واذا أساءوا أن تتجنبوا اساءتهم**) والامعة هو المنقاد أو المنساق مع غيره فى صورة التبعية الدائمة ، والحديث نفسه أدق تفسير للأمعية ٠

فالمسلم الحقيقى لا يشعر بسلطان دينى لأحد عليه الا الله ، ويشعر شعورا كامل الوضوح بأن صلته بالله مباشرة لا يستطيع أحد أن يتدخل فيها فضلا عن أن يتحكم فى شىء منها ، وهذا لا ينفى أن على المسلم أن يلتمس العلم ممن لديه العلم ، وأن يسترشد بمن هو أوفى منه علما وأقوم طريقا ، ولكن التعلم والاسترشاد شىء ، والانقياد شىء آخر ، وقد عظم القرآن من شأن العلم والعلماء حيث جعلهم فى درجة تلى الملائكة (**شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم**) (٢) بينما أنحى باللائمة على الأئمة

---

(١) سورة الأحزاب ٦٧ ـ ٦٨ ٠ (٢) سورة آل عمران ١٨ ٠

الذين يصدون عن سبيل الله داعين الى سبيلهم هم ، أو الى أى سبيل غير سبيل الله ٠

ومن ذلك فى القرآن الكريم (فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون) (١) فالحرب فى الآية معلنة ليس على الكفر نفسه ، وانما على القادة الذين يقودون أتباعهم الى الكفر ، وكل قيادة تقود الى طريق ضال عن طريق الله تدخل بأى صورة وبأى درجة فى هذا النطاق ، فان خطورة المعنى الذى يشير اليه القرآن تكمن فى المبدأ ، وهو مبدأ الزعامات والقيادات الدينية التى ترسم لنفسها طريقا دينيا يخدم مصالح أو أهدافا معينة لا تتجه الى الله ، وانما تتجه الى الدنيا ليستفيد منها شخص أو جهة من الجهات ، فان هذا المنهج كان أخطر المزالق التى انزلق فيها قادة الضلال فى الأمم السابقة ، ثم جروا وراءهم الأتباع فى هذا الضلال ، ولذلك يغلق الاسلام هذا الباب اغلاقا شديدا محكما ، بأن يحدد المصادر الدينية التى يجوز اتباعها ، كما يقول النبى (انى تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى) ٠

ومن اغلاق هذا الباب فى الاسلام هذا الحكم البارز فى التشريع الاسلامى وهو أن تحريم ما أحل الله أو احلال ما حرم الله كفر ، بمعنى أن من يستحدث فى الاسلام حكما يخالف ما هو معروف من الدين بالضرورة فهو كافر ، والذى يستحدث حكما بهذه الصورة فمن الواضح أن له مصلحة ومنفعة ، ولا يفعل ذلك الا اذا كانت له قيادة دينية يستجيب لها الأتباع ٠

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن تحديد مصادر التشريع الاسلامى لا يعنى منع الاجتهاد أو اغلاق بابه ، فالاجتهاد بابه مفتوح ، وأول من فتح بابه النبى صلى الله عليه وسلم نفسه حيث أباح لأصحابه فى أكثر من موقف ومناسبة أن يجتهدوا فى استنباط أحكام فقهية ، ولكن الفرق بين الاجتهاد ومصادر التشريع ، أن مصدر التشريع كالاجماع ملزم لكل المسلمين ، بينما الاجتهاد الفردى غير ملزم الا للفرد المجتهد ٠

رابعا ـ عدم اليأس :

الأمل للانسان بمثابة الوقود الذى يحرك السيارة أو الآلة ، وبمقدار الأمل يكون تشبث الانسان بالحياة ، وبمقدار شعوره باليأس يكون زهده فى الحياة أو رغبته فى التخلص منها ٠

---

(١) سورة التوبة ٩ ٠

والاسلام لا يكتفى بأن يقوى الأمل فى نفس المؤمن ، وانما يجعل الأمل قرينا للايمان نفسه ٠

وذلك أن المؤمن ينسب كل شىء الى الله ، وينتظر كل ما ينتظره من الله ، وهذا الانتظار هو الأمل ، والله موجود دائما ، فالأمل اذن موجود دائما ، وفى مقابل هذا حينما تنعدم صلة شخص بالله ينعدم أمله فى انتظار شىء من الله ، ومثل هذا الشخص لا يكون من المؤمنين ، وفى القرآن (ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) (١) ومعنى هذا أن القرآن يؤكد أن اليأس لا يتفق قط مع الايمان ٠

وفى هذه الدعوة الى الأمل ، والتنفير الشديد من اليأس معنى شديد الأهمية لبعث الحيوية فى النفوس ، وحفز الناس الى العمل والجد ومتابعة الآمال ٠

والنبى يؤكد هذه الدعوة ويثبت دعائمها ، فالمؤمن حين يتجه الى الله بالأمل يريد أن يتأكد هل يبادله الله هذه الثقة ؟ أم أنها ثقة من جانبه هو فقط ، بمعنى هل يستجيب الله لهذه الثقة وهذا الأمل من هذا الشخص ؟ فالنبى يؤكد ناقلا عن الله أن الله لا يخيب أمل عبد يؤمل فيه خيرا ، ومما ورد من الأحاديث النبوية فى هذا المعنى (قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يكون) ومن الملحوظ أن التعبير هنا لم يتقيد بالايمان ، بمعنى أن كل عبد على الاطلاق يؤمل فى جانب الله خيرا فان الله لا يخيب أمله ٠

ومما يترتب على هذه المعانى شعور بالراحة النفسية لدى المؤمن ، واحساس بالتفاؤل ، مهما بدت الحياة من حوله عابسة أو قاسية ، بل مهما ظن الناس أن أبواب الأمل غلقت فان المؤمن يوقن بأن الأمل موجود لأن أمله مرتبط بالله الذى لا يشك فى وجوده وفى قدرته على تحقيق كل شىء ، بل ان القرآن يزيد المؤمن حينئذ يقينا بشىء بالغ الأهمية لمن يعانى ظروفا قاسية ، هو أن الشدة لابد أن يعقبها الفرج ، وأن العسر لابد أن يلحقه اليسر ، ففى القرآن هذا التأكيد (فان مع العسر يسرا ، ان مع العسر يسرا) (٢) ٠

ومن هذا يتبين مدى حماية الايمان للمؤمن من كثير من الأمراض النفسية التى تنبع من عوامل الخوف واليأس والتبرم بالحياة ، كالقلق

---

(١) سورة يوسف ٨٧ ٠ (٢) سورة الشرح ٥ ـ ٦ ٠

والاكتئاب ومشاعر الاحباط ، فضلا عما يتيحه الإيمان للمؤمن من قوة نفسية تعينه على مقاومة سوء الظروف وقسوة الحياة ·

والواقع يؤيد هذا فانه من الملحـــوظ أن المؤمنين عن معرفة وفهم صحيح للدين لا يكادون يعرفون الأمراض النفسية ، بل كثيرا ما يتعجب الناس من الهدوء النفسى الذى يتمتع به شخص مؤمن بينمـــا هو فى ظرف من أقسى الظروف كمرض خطير ، أو مصيبة فادحة ، أو مواجهـة لموت محقق ، أو غير ذلك ، ولو كشفت لنا نفسية هذا المؤمن حينئـــذ لوجدنا أن مصدر هذا الهدوء النفسى هو أمله فى أن ينقذه الله مما هو فيه ، أو أن يعوضه عما يفقده رضا وثوابا ، وفى كل الأحوال هو فى محيط الأمل الذى لا قيود عليه ، لأنه ممتد عبر الدنيا ، فان لم يمكن تحقيقه فى الدنيا فهو ممتد الى الآخرة والجنـــة التى هى منتهى آمال المؤمنين ·

خامسا ـ الاتزان والاعتدال :

يعرف الفلاسفة الفضيلة بأنها وسط بين رذيلتين ، كالسخاء فى الانفاق ، الفضيلة فيه التوسط ، فان جاوز الاعتدال بالزيادة تحول الى رذيلة هى الاسراف والتبذير ، أو بالنقص تحول الى رذيلة هى البخل ، وكالشجاعة فضيلتها الاعتدال بالقدرة على حماية الحقوق ، فان تجاوزتـه بالزيادة تحولت الشجاعة الى رذيلـة هى البغى والتهـور ، أو بالنقص تحولت الى رذيلة هى الجبن ، وهكذا ·

والاسلام يجعل هذا التوسط والاعتـــدال أساسا تتميز به الأمة الاسلامية ، فمن مضـــــمون هـــذا فى القرآن (وكذلك جعـلناكم أمة وسطا) (١) ولذلك نجد دعوة الاسلام الى التوسط والاعتدال تشمل كل مناحى التشريع والتوجيه ، ومن ذلك :

١ ـ فى العبـــادة :

مع أن العبادة اتجاه روحى الى الله ، وكان المتوقع نظريا أن تكون الدعوة الى الاستغراق فيها بغير حدود ، وبأقصى ما يستطيعه الفرد ، ولكن دعوة الاسلام لم تكن الى الاستغراق ، وانما الى التوسط والاعتدال ، وقد وردت عن النبى أحاديث كثيرة فى هذا ، ومن أشهرها مضمون قصـة ثلاثة من أقرب أصحاب النبى اليه ، ألزموا أنفسهم صورا من العبادة فيها غلو وارهاق للنفس ، أحدهم ألزم نفسه أن يصوم الدهر لا يفطر

(١) سورة البقرة ١٤٣ ·

أبدا ، والثانى آن يصلى الليل لا ينام فيه أبدا ، والثالث ألا يقرب النساء أبدا حتى لا تشغله متعة عن العبادة ، فلما سمع النبى أنكر عليهم ذلك وأظهر استياء قائلا لهم انى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وآتى النساء ، ولم يكتف باظهار استيائه ، ولا بتذكيرهم بسلوكه هو ، وانما قال لهم هذا المعنى العميق الدلالة (فمن رغب عن سنتى فليس منى) بمعنى أن الاسلام يقوم على الاعتدال ، فمن ترك الاعتدال ترك الصورة المثلى التى يمثلها النبى فى الاسلام ، ومن تتمة القصة أن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وهو أحد الثلاثة ـ أصر على غلوه ـ فالتزم صيام الدهر ، فكف بصره فى أواخر حياته ، فكان حينئذ يبكى ويقول ليتنى أطعت رسول الله ٠

وفى الحديث النبوى أن النبى كان يقـــول (خذوا من العمـــل ما تطيقون فان الله لا يمل حتى تملوا) بمعنى أن العمل الذى يتقرب به المؤمن الى الله اذا وصل بالاسراف فيه الى درجة الملل يخشى عدم قبوله عند الله ، وفى القرآن (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) (١) وكذلك فى القرآن (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ٠

٢ ـ فى الســلوك :

من الواضح فى الاسلام الدعوة الى الاعتدال فى السلوك ، حيث نجد فى القرآن أكثر من مثال يدل على الدعوة الى الاعتدال ، ومن ذلك الانفاق ، فمع أن القرآن فى آيات عديدة يدعو الى الانفاق ويتوعد الذين يكنزون الأموال ولا ينفقونها فى سبيل الله ، الا أنه يحدد أن المطلوب فى الانفاق هو الاعتدال ، ويجعل من صفات المؤمنين هذا الاعتدال ، ومن ذلك (والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) (٣) وفى القرآن أيضا (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (٤) ٠

وحتى فى المظهر الاجتمـــاعى يدعو القرآن فى أكثر من موضـــع بأسلوب مباشر أو غير مباشر الى الاعتدال والتوسط بحيث لا يصل الى الغلو الموحى بالغرور والخيلاء ، أو التفريط الموحى بالضعف والمهـــانة ، ومن ذلك عن طريقة المشى من حيث دلالتها النفسية والاجتماعية ، نجد فى القرآن من صفات المؤمنين (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض

---

(١) آخر سورة البقرة ٠ (٢) سورة البقرة ١٨٥ ٠
(٣) سورة الفرقان ٦٧ ٠ (٤) سورة الاسراء ٢٩ ٠

هونا) (١) وفى القرآن أيضا (واقصد فى مشيك) (٢) والقصد فى المشى هو الاعتدال فيه ٠

وحتى فى الأمور المباحة كالملابس والطعام والشراب يطلب القرآن الاعتدال فيها ، ومن ذلك (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) (٣) والاسراف مجـــاوزة الاعتدال ٠

٣ ـ فى المشاعر والانفعالات :

من آثار كون الاعتدال والتوسط قاعدة جوهرية فى الاسلام أننا نجد دعوته الى الاعتدال شاملة لكل النواحى حتى فى المشاعر والانفعالات النفسية ، كالفرح والحزن والغضب والسخط ، والقرآن يحوى أمثلة كثيرة مباشرة وغير مباشرة فى هذا المعنى ، ومن أوضح الأمثلة ، فى هذا أن القرآن يجمع فى أحد مواضعه بين الدعوة الى الاعتدال فى الحزن ، والدعوة الى الاعتدال فى السرور ، وذلك فى سياق أن كل ما يصـــيب الانسان انما هو شىء قدره الله وسجله قبل ذلك ، فلا مفر منه ، ولا يغير الحزن أو الفرح منه شيئا ، فيقول الله تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) (٤) ومضمون المعنى لا ينبغى أن تحزنوا عنـــد مصيبة أو عند فوات أمل لم يتحقق ، فان ذلك لا يغير من قضاء الله شيئا ، كما لا ينبغى أن يسيطر عليـكم الفرح بنعمـــة لأن الله لا يحب الغرور والفخر ٠

ولكننا حين نتأمل دقة تعبير القرآن نجدها أعمق من هـــذا المعنى الحرفى ، فان الحزن العادى فى حدود الألم المألوف شىء فى تكوين الانسان لا ينهى عنه القرآن ولا ينفر منه ، وانما ينفر من الاسراف والغلو فى الحزن ، ولذلك كان التعبير بلفظ الأسى (تأسوا) الذى يدور استعماله فى لغة العرب حول العمق والثبات ، كما يقال أسوت الجرح أى عالجته ، والجرح غور وعمق فى الجسم ، والمعالجة حينئذ تكون فى الغور والعمق ، وكما يقال ملك ثابت الأواسى وهى الأعمدة ، وهى رمز للقوة فى البناء والثبات فيه ، واذن فالقرآن لا ينفر من مبدأ الحزن والألم ، لأن الانسان

---

(١) سورة الفرقان ٦٣ ٠
(٢) سورة لقمان ١٩ ٠
(٣) سورة الأعراف ٣١ ٠
(٤) سورة الحديد ٢٣ ٠

لا يملكه ، وانما يملك عدم الافراط فيه حتى لا يصل الى درجة الغور والعمق فى الألم ، أو الثبات والدوام فيه ، وكذلك الشأن فى الفرح ، فان المراد بالفرح فى الآية ليس السرور العادى ، لأن انفعال السرور المعتدل يعبر عنه القرآن عادة بالرضا ، كقوله تعالى (ولسوف يعطيك ربك فترضى) (١) أما الفرح فانه يغلب استعماله فى القرآن فى سياق الافراط فى الانفعال المؤدى الى الغرور ، كما فى هذه الآية ، ولذلك جاء بعده (والله لا يحب كل مختال فخور) اشارة الى أن المقصود بالفرح زيادة السرور بافراط يؤدى الى الخيلاء والغرور ، وحين يستخدم القرآن الفرح فى سياق مرضى عنه فانما يكون فى موقف لا يؤدى الى الافراط والغرور ، كفرح المؤمنين بنصر الله ، فهم يعرفون أنه نصر من الله وليس منهم هم ، فليس حينئذ خوف من الغلو فى الانفعال ، لأن الافراط عادة انما يكون فيما ينبع من الذات أو يرتبط بها ، حيث يؤدى الى الاعجاب بالنفس فى صورة الغرور والخيلاء .

وكذلك فى تعبير القرآن عن التنفير من انفعال الكره ، فانه يتجاوز تعبير الكراهية ، لأن الحب والكره انفعالان يوجدان فى تكوين الانسان ، ولا سلطان عليهما ، انما سلطانه على التطرف والغلو فيهما وفى آثارهما ، ولذلك انصب تنفير القرآن على الغلو والتطرف فيهما ، ولهذا نجده غالبا بلفظ (الغل) مثل (ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا) (٢) وكان من دعاء المؤمنين فى القرآن (ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) (٣) لأن مادة الغل يغلب استعمالها فى لغة العرب بمعنى التوغل والتعمق ، ومنه التغلغل فى الشىء بمعنى الدخول فيه بعمق ، فالتنفير اذن ليس من مبدأ الانفعال الطبعى وهو الكره ، وانما من الافراط والمغالاة التى تجاوز حد الاعتدال .

وما هذا كله الا أمثلة لالتزام الاسلام خطا ثابتا جوهريا هو الاعتدال فى كل شىء ، لأن الاعتدال قاعدة الاسلام ، وهو قاعدة الفضائل عامة ، وفى التطبيق الواقعى لهذا الاعتدال نجد أنه يحقق حماية للانسان من كثير من الأمراض النفسية ، فان كثيرا من الأمراض النفسية يكون مصدرها تجاوز الواقع ، وعدم الاعتدال فى تقديره ، أو فى تقدير النفس ، كالافراط فى تقدير الشخص لذاته وقدراتها بأكثر من حقيقتها فينتج عنه الغرور وما يحيط به ، وكالتفريط فى تقدير الشخص لذاته وقدراته بأقل من حقيقتها فتنتج عنه مشاعر كالاحباط والاكتئاب ونحو

---

(١) سورة الضحى ٥ .
(٢) سورة الحجر ٤٧ .
(٣) سورة الحشر ١٠ .

ذلك ، ولذلك كان تقدير الشخص لذاته بقدرها الحقيقى نوعا من الحكمة التى تستعصى على كثير من الناس ، وكان نداء الفلاسفة (أعرف نفسك) وكان من الحكمة فى الحديث النبوى (رحم الله امرءا عرف قدر نفسه) ٠

والاسراف الذى يعنى المغالاة وتجاوز حد الاعتدال من الأمور البغيضة فى القرآن ، لأن تجاوز الاعتدال يتحول فى كل شىء الى رذيلة ، ولذلك يتكرر النعى الشديد عليه فى صور ومجالات عديدة ، ومن هذا القبيل كان دعاء المؤمنين فى القرآن (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا) (١) فهم يطلبون أن يغفر الله لهم اسرافهم فى أى أمر من أمورهم ، ومعنى هذا أنه بغيض الى الله ٠

٦ ـ الاتجاه بالعمل الى الله : وأهمية العمل فى الاسلام فى ارتباطه بنفسية المسلم حيث هناك مقياس شديد الأهمية فى الاسلام فيما يتعلق بقيمة العمل عند الله فالعمل لا يحكم عليه عند الله بأنه خير أو شر لذاته ، وانما بالقصد والنية ، فاذا قصد به الخير كان عند الله خيرا وان بدا فى ظاهره الشر ، واذا قصد به الشر كان عند الله شرا وان بدا فى ظاهره الخير ، ومن الأحاديث المشهورة (انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى) ومثال ذلك للحالة الأولى أن يضرب شخصا ليمنعه من ارتكاب جريمة ، وللحالة الثانية أن ينفق من ماله بقصد الرياء والفخر ٠

ولكن هذا المقياس مقيد بأنه (عند الله) لأن الله يعلم ما فى القلوب فيحاسب عليها ، أما الناس فلا يعلمون الا الظاهر ، ولذلك كانت أحكام التشريع الاسلامى الدنيوى مرتبطة بظاهر الأعمال ، فالحلال بين ، والحرام بين ، كما فى الحديث النبوى بمعنى أن الأشياء المحرمة فى الاسلام محددة ، ولبعضها عقوبات دنيوية معينة ، وكذلك الأشياء المحللة معروفة ٠

والمؤمن الحقيقى يهمه بصفة دائمة موقفه من الله ، قبل الناس ، ومن هنا يركز الاسلام اهتمامه بالاتجاه النفسى ، ليحول كل شىء من جانب المؤمن الى الله ، فكل ما يصدر عن المؤمن يجب أن يكون متوجها به الى الله ، فاذا اتجه به الى أى قصد غير الله فهو غير مقبول ، والعمل الموجه الى الله هو ما يوصف فى العرف بأنه (خير) أو أنه عمل (انسانى) أو نحو ذلك مما يعنى أنه عمل لم يقصد به صاحبه مصلحة شخصية أو هدفا يستفيد من ورائه ، ولكن الاسلام بوصفه دينا سماويا لابد أن يجعل الغاية والهدف فى كل شىء هو الله ٠

---

(١) سورة آل عمران ١٤٧ ٠

ومن هنا يصبح المقياس الواضح المحدد فى الاسلام أن أى عمـــل لا يوصف بأنه خير من الناحية الدينية الا اذا قصد به الى الله ، ويترتب على ذلك :

١ ــ أن غير المؤمنين بالله لا يقبل منهم عمل قط مهما كان فى ذاته خيرا ، لأنهم ماداموا غير مؤمنين بالله فلا يتصور أن يتوجهوا بشىء اليه ، وبالتالى لا يقبل منهم عند الله شىء ٠

وقد كانت هذه قضية تشغل نفوس بعض الناس فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، متسائلين عن مصير أعمال الخير التى تصدر من المشركين ، كالجود وحماية المستضعفين ، والاصلاح بين الناس ، وغير ذلك ، ولكن القرآن حسم هذه القضية وغيرها بالمقياس الدينى الثابت ، وهو أنهم ماداموا غير مؤمنين بالله فلن يقبل منهم شىء ، فأعمالهم هباء ضائع ، يشبهه القرآن مرة برماد تذروه الرياح فى كل وجه فلا يبقى منه شىء ، فيقول (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء) (١) ويشبهه مرة أخرى بسراب يظل الظمآن يســـعى اليه فى غير غاية حتى يهلك وهو ظمآن ، وانتظار المشركين أى ثمرة لأعمالهم هذه عند الله كانتظار الظمآن الماء فى السراب ، فيقول تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه) (٢) وتعليل ذلك أن المؤمن يقدم عمله الى الله فيكافئه بالثواب ، أما الكافر فهو غير مؤمن بالله أصلا فكيف ينتظر من الله ثوابا ؟

٢ ــ كل عمل يقصد به الفخر والرياء أو غير ذلك فليس مقبولا عند الله مهما كان فى ظاهره من خير ، وقد حدد القرآن نوعا من الذبائح التى لا يجوز أكلها وهى الذبائح التى يقصد بها غير الله ، كالتى تذبح تقربا للأصنام ، كقوله تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) فكل ما يقدم الى غير الله لا يجوز أكله ، وقد عمم على بن أبى طالب هذا الحكم على المذبوح للرياء والفخر ، وقد حدث أن نزلت بالناس مجاعة شديدة فنحر غالب بن صعصعة والد الفرزدق الشاعر مائة من الابل لقومه انقاذا لهم ، فأراد سحيم بن وثيل أن ينافسه ويفاخره فنحر ثلثمائة ناقة ، فحرمها على بن أبى طالب ، وقال انها مما (أهل به لغير الله) ٠

ومما لا خلاف حوله بصفة عامة فى الاسلام أن كل شىء يقصد به الرياء والفخر فليس مقبولا عند الله ، ولو كان فى صورة عبادة ، وفى

---

(١) سورة ابراهيم ١٨ ٠ (٢) سورة النور ٣٩ ٠

القرآن عن الوعيد للرياء ولو كان صلاة (فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) (١) وعن أن الفخر والرياء ونحو ذلك كله يبطل الصدقة (يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس) (٤) فالمن والايذاء والرياء كل ذلك يبطل الصدقة ، وكذلك كل قصد غير وجه الله ٠

والنبى يؤكد فى أحاديث كثيرة أن العمل لا يقبل عند الله الا اذا قصد به وجه الله ، وأن الرياء أو الفخر يبطل أى عمل ، بل يحوله الى سيئة ، ومن ذلك قول النبى (ان أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فى سبيل الله ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال انك جرىء وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها الا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم ، وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال هو عالم ، وقرأت ليقال : هو قارىء ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار) ٠

ومن الناحية الاجتماعية نجد هذه المبادىء اذا طبقها الأفراد فى أعمالهم بليغة الأثر فى تنقية السلوك من الشوائب والآثار التى تفسده ، بل وتحوله الى مساوىء فى كثير من الأحيان ، فالذى يحسن الى جهة ، ثم يحاول أن يستغل هذا الاحسان لمصلحته من جهة أخرى ، والذى يحسن الى شخص ، ثم يحاول أن يستغله أو يذله بهذا الاحسان ، كل ذلك ونحوه يتحول الى مساوىء ومشاكل وعداوات فى المجتمع ، وهو ما يقول عنه القرآن (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) ٠

وحين يسير عمل الخير وفق المنهج الاسلامى ، فانه يكون صافيا خالصا من أى هدف وراءه ، فيؤدى عمل الخير الهدف منه دون أن تنتج عنه آثار سيئة ، كالآثار التى نراها من استهداف مصلحة أو هدف معين من وراء عمل الخير ، سواء من الأفراد أو الهيئات أو الحكومات ، ومن أوضح هذه الأمثلة تلك المساعدات التى تقدمها بعض الدول فى صورة

---

(١) سورة الماعون ٤ ـ ٧ ٠ (٢) سورة البقرة ٢٦٤ ٠

اعانات لشعوب فقيرة ، بينما يكون الهدف الحقيقى هو تشديد القبضة على ناصية هذه الشعوب ، وهذا نفسه هو عين ما يفعله كثير من الأفراد ٠

٧ ـ حب الخير :

من الصفات النفسية التى يجعلها الاسلام أساسا فى الخلق حب الخير بصفة عامة ، سواء أكان حب الخير لذاته ، أم حب الخير للناس ، فالايمان مرتبط بحب الله ، وحب الله مرتبط به حب الخير ، وفى مقابل هذا كان حب الشر والنزوع اليه مناقضا للايمان ، ومن صفات المؤمن فى الاسلام أن يحب لغيره ما يحب لنفسه ٠

ومن ناحية أخرى فان كل خاطر سيء يحمله الانسان لغيره هو شر ، فحتى الظن وهو مجرد خاطر فى النفس ينهى القرآن عنه اذا كان ظنا سيئا ، ففى القرآن (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) (١) ، فالظن السيء وتتبع مساوىء الغير وأسراره وغيبته بما يكره ، كل ذلك يحرمه القرآن ٠

وفى الأحاديث النبوية كثير عن التنفير من كل المشاعر السيئة نحو الغير ، ومن ذلك (اياكم والظن ، فان الظن أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا) ٠

ومن أبغض المشاعر النفسية مشاعر الحسد الذى أمر القرآن بالاستعازة ممن يحمله (ومن شر حاسد اذا حسد) (٢) وفى الحديث النبوى (لا يجتمع فى جوف عبد الايمان والحسد) ٠

---

(١) سورة الحجرات ١٢ ٠ (٢) سورة الفلق ٥ ٠

والمسلم الذى يطبق الاسلام على نفسه تطبيقا كاملا لابد أن يتحلى بكل الفضائل والآداب ، بحيث يصبح نموذجا كاملا للخلق الحسن ، والسلوك القويم ، ومن أبرز ما يدعو اليه الاسلام :

١ ـ الصـــدق :

يحتل الصدق المكانة الأولى فى الفضائل التى يجب أن يتحلى بهـا المرء ، كما أن الكذب أبغض الصفات الخلقية فى الاسلام ، وفى الحـديث النبوى (مايزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عنـد الله صديقا ، ومايزال العبد يكذب ويتحرى الـــكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ومنزلة الصديقين التى يشير اليها الحديث الشريف أرفع منزلة عند الله بعد الأنبياء ، ففى القرآن الكريم (فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (١) كما أن القرآن ينفى عن الكذاب صفة الايمان كما فى قوله تعالى (انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله) (٢) ولذلك جاء فى الحديث النبوى (أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : هل يكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم ، قيل : وهل يكون بخيلا ؟ قال : نعم : قيـــل : وهل يـكون كذابا ؟ قال : لا .) وقد جعل النبى الكذب من علامات النفاق ، حيث يقول (آية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف واذا عاهد غدر) والواقع أن الصفات الثلاث فى الحديث هى من قبيل الكذب ، واذا تأملنا نلحظ أن المقصود بالكذب فيما تعنيه الأحاديث النبوية ليس صدور الكذب

---

(١) سورة النساء ٦٩ .

(٢) سورة النحل ١٠٥ .

فحسب ، وانما تعود الكذب بحيث يصبح صفة للشخص ، والفرق كبير بين المدلول اللغوى للكاذب وهو من صدر منه أى كذب ، والكذاب وهو كثير الكذب ٠

ومن هذا نتبين أن الاسلام يجعل الصدق أسمى الفضائل الخلقية ، كما أنه يجعل تعود الكذب أبغض الرذائل الخلقية ٠

وفى الواقع الاجتماعى يكفى الشخص منزلة بين الناس أن يكون معروفا بالصدق ، فيكتسب ثقة المجتمع ، ثم يستفيد من هذه الثقة فى تعامله معهم ، كما أن من أسوأ ما يوصف به شخص فى مجتمع ما أن يعرف عنه تعود الكذب ، فيفقد ثقة الناس فيه ، ثم ما يترتب على فقدانه الثقة فيه من آثار ٠

٢ ـ التسـامح :

من أهم الصفات التى يرغب الاسلام فيها صفة التسامح والعفو ، ولهذه الأهمية فان الاسلام يرغب فى كل الوسائل التى تؤدى الى تحقيق هذه الصفة ، فالتسامح والعفو انما يكون عادة فى موقف يثير الغضب ، فنجد الاسلام يدعو كثيرا فى القرآن ، وفى الأحاديث النبوية الى مغالبة الغضب ، وعدم الانصياع الى تيـاره ، ومن ذلك فى القرآن عن كظم الغيظ (وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) (١) فمغالبة الغضب والغيظ مرحلة فى الطريق الى العفو والتسامح ، وفى الحديث النبوى (ما تجرع عبد جرعة أحب الى الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله) ٠

بل يتتبع الاسلام كل المنابع حينئذ ، فالذى يؤدى الى الغضب والغيظ فى العادة هو تعرض الشخص لأمور من التفاهات والنقائص ، ولو توقف عندها أو اهتم بها فقد يشارك فيها ، ولكن القرآن يدعو الى تجاوزها ، وعدم نزول المؤمن عن كرامته وسمو خلقه ، فيقول سبحانه عن سلوك المؤمنين حينئذ (واذا مروا باللغو مروا كراما) ومما يثير الغضب والغيظ أن يتعرض الشخص لتحرش بعض السفهاء به ، ولكن القرآن يجعل من صفات المؤمن أنه لا يتبادل السفهاء سفاهتهم حتى لا ينزل الى مستـواهم ، فيقـول عن خلق المؤمنين (واذ خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (٢) والجهل فى أصل اللغة السفاهة ، كما يقول الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم :

---

(١) سورة آل عمران ١٣٣ ـ ١٣٤ ٠ (٢) سورة الفرقان ٧٢ ٠

ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا فنجهـــل فوق جهـل الجاهلينا

والمراد بالسلام أن يلجأ المؤمن الى المسالمة بدل السفاهة ، واذا وصل الأمر بالمؤمن الى درجة الغضب ، فانه لا يستجيب له ، بل يغفر لمن أثار غضبه ، وفى القرآن عن صفات المؤمنين فى هذا المجال (واذا ما غضبوا هم يغفرون) (١) .

والقرآن حافل بالدعوة الى العفو والتسامح ، فما من موضع يبيح فيه القصاص الا ويدعو فيه الى العفو ، ومن ذلك (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) (٢) .

بل يدعو القرآن الى المرتبة العليا التى تبلغ قمة السمو ، وهى أن يتجاوز المؤمن مرتبة العفو عمن أساء اليه الى مرتبة الاحسان الى هـذا المسيء ، فلا يكتفى بأن يعفو عنه ، وانما يقدم اليه الاحسان ، وفى القرآن (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) (٣) ومضمون المعنى أنه لا يستوى من يفعل الخير ومن يفعل الشر ، واذا أساء أحد اليك فمن حقك أن ترد اليـــه الاساءة ، ولكنك تكون قد نزلت الى مستواه ، ولكى تكون خيرا منه ، دعه فى شره ، وافعل أنت الخير ، وكونك تعفو عنه ، هذا خير ، ولكنه خير سلبى ، بمعنى أنه محض ترك للنزول الى مستوى السوء ، أما الخير الايجابى فهو أن تزيد على ذلك تقديم الخير والعمل الحسن اليه ، فانك ان فعلت ستنتزع من قلبه العداوة لك ، ويصبح كأنه (ولى حميم) لك .

٣ ـ القـــوة :

ليس هناك تناقض فى أن يطلب الاسلام من المســـلم الجمع بين التسامح واللين ، وبين القـــوة ، بل الواقع أن الفضـــيلة لا تتحقق الا باجتماعهما معا ، فان التسامح أو العفو لا يكون فضيلة الا اذا كان نابعا من قوة وقدرة على الانتقام ، فان كان نابعا من ضعف كان رذيلة ، لأنه سيكون نوعا من الذل والمهانة ، كما أن القوة وحدها دون أن يصحبها خلق اللين والتسامح ستصبح نوعا من الشراسة التى ينفر الناس منها ويتحاشونها ، كما يصور القرآن الكريم (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (٤) ولكن الفضيلة أن يعرف النـاس أن لديـك

---

(١) سورة الفرقان ٦٣ .
(٢) سورة الشورى ٣٧ .
(٣) سورة الشورى ٤٠ .
(٤) سورة فصلت ٣٤ .
(٥) سورة آل عمران ١٥٩ .

القوة ، ولكنك لا تستخدمها ضـــدهم فى الوقت الذى يتوقعـون فيه استخدامها ٠

واذن فلا تتحقق هذه الفضيلة الخلقية بدون وجود القوة ، ولكن الاسلام لا يدعو الى القوة لتحقيق هذه الفضيلة وحدها ، وانما يدعو الى القوة بالاضافة الى ذلك لأهداف أخرى من أوضحها :

(أ) الاسهام فى اصلاح المجتمع :

فان من الأهداف الجوهرية للاسلام ايجاد المجتمع والأمة الاسلامية ، وقد وضع الاسلام للمجتمع وللأمة تشريعات مفصلة تحقق له الصـلاح الدنيوى فضلا عن الصلاح الدينى ، ولكن فى طبيعـــة كثير من الناس النزوع الى الشر ، والاسلام بالاضافة الى ما أورده من تشريعات يدعو الى وجود قوة دائمة تقاوم هذا النزوع الى الشر ، لتحافظ على صلاح المجتمع ، فيما يعرف بالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، فالمســلمون مطالبون بالدعوة الى كل وسيلة خير تسهم فى صلاح المجتمع ، كما أن كل مسلم مطالب بالنهى عن كل منكر يراه فى المجتمع مهما كانت صفة الذى يصدر منه المنكر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابد له من قوة ، فالضعيف لا يستطيع ذلك ، وهذا كان من أسباب دعوة الاسلام الى القوة لدى كل مسلم ، للمحافظة على صلاح المجتمع ان كان صالحا ، واصلاحه ان اعتراه فساد أو خلل ٠

(ب) ضمان استمرار الدعوة الدينية :

تكرر القول بأن هدف الاسلام وكل الأديان السماوية ليس حمل الناس على الايمان ، وانما يتركز هدفها فى شىء واحد ، هو أن يكون الحق ظاهرا وواضحا ، ليكون هذا حجة عند الله على من يرفضه ، كما فى القرآن (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (١) ثم من شاء بعد ذلك فليؤمن ، ومن شاء فليرفض الايمان ، كما فى القرآن أيضا (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٢) ، وحساب الجميع عند الله ٠

ولكن الأديان الســابقة كانت محـــددة بزمان أو مكان معين ، أما الاســلام فهو مطلق الزمـان والمكـان الى يوم القيـامة ، والبشريـة فى معظمها قاومت وتقـاوم كل الأديان ، كما يؤكد ذلك تاريخ الأنبياء

---

(١) سورة النساء ١٦٥ ٠ (٢) سورة الكهف ٢٩ ٠

ورسالاتهم ، والاسلام ككل الأديان ، تعرض ولازال وسيظل يتعرض للمقاومة ، واذا لم توجد قوة تحمي استمرار دعوته فستنمحى أو تتضاءل الاستجابة له ، وقد انمحت رسالات سماوية سابقة لرسل نعرف أسماءهم ولكنا لا نعرف رسالاتهم وشرائعهم ٠

فلابد من وجود قوة تحمي استمرار دعوة الاسلام ، حتى تظل ظاهرة واضحة ، لتكون حجة على الناس ، وكان هذا أيضا من أسباب دعوة الاسلام الى القوة ٠

(ج) مواجهة الأعداء :

يترتب على استهداف الاسلام تكوين الأمة أن يراعى ما يترتب على ذلك ، ومما يترتب على ذلك أن يكون لهذه الأمة أعداء ، فالأمة يسرى عليها ما يسرى على الفرد حسب نظرية ابن خلدون ، والانسان بل الحيوان عامة من طبيعته التنافس على مقتضيات الغرائز ، والتنافس لابد أن يوجد صراعا ، سواء بين الأفراد والجماعات والأمم ، وهذا الصراع يحتاج بالضرورة الى قوة ، فالضعيف دائما مهزوم مسلوب الحقوق ، فكان لابد للاسلام حين يدعو الى تكوين أمة ودولة أن يدعو الى القوة لحماية حقوق هذه الأمة ، وكان هذا أيضا من أسباب دعوة الاسلام الى القوة ٠

ومدلول القوة أمر نسبى ، ولكنها ليست محددة فى شىء معين ، فالقوة فى الفرد تكون فى قوة ارادته ، وفى تكوين جسمه ، وفى قوة نفوذه بماله أو جاهه أو شيعته أو غير ذلك ، والقوة فى الأمة تكون فى وفرة وتنظيم جوانبها العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية والصناعية وغير ذلك ٠

والاسلام يدعو الى القوة المطلقة بما يعنى شمول كل جوانبها ، فمن الأحاديث النبوية فيما يتعلق بالفرد (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير) وفى القرآن مما يتعلق بالأمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (١) ٠

وينبغى أن نلحظ أن الأمر باعداد القوة فى الآية ليس لموقف معين كالقتال ، وانما لايجاد قوة دائمة يرهبها الأعداء ، وهو ما يعرف اليوم بالحرب النفسية أو الحرب الباردة ٠

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ ٠

كما أن القرآن يحذر المسلمين من العوامل التى تؤدى الى ضعف قوتهم ، ونلحظ أن القرآن يركز فى هـــذا على عاملين ، أحدهما التنازع والصراعات الداخلية ، ففى القرآن دعوة المسلمين الى الوحدة والتكتل ، ونهيهم عن التنازع لأنه يؤدى الى الفشل والضعف ، ومن ذلك فى القرآن (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (١) والريح القوة ، والعـامل الثانى التخاذل والضعف ، فالقرآن ينهى المسلمين ويحذرهم من التخاذل والميل الى الاستسلام ، فى حين أنهم فى دينهم على حق ، واعتقاد أى طرف بأنه يملك حقا يدافع عنه أو يريد الوصول اليه هو أقوى سلاح ، كما يؤكد ذلك تاريخ الحروب والصراعات ، وفى القرآن (فلا تهنـوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون) (٢) والوهن الميل الى الضعف والتخاذل ، والمراد بالدعوة الى السلم الميل الى الاستسلام والخضوع ، لأن القرآن يؤكد دائما دعوته الى السلام بشرط عدم المســـاس بالكيان أو الكرامة أو الحقـوق الاسلامية ، وذلك بأن تكون الرغبة فى الســلام متبـــادلة ، ومن ذلك (وان جنحوا للسلم فاجنح لها) (٣) وتعبير (وأنتم الأعلون) يعنى علو الحق على الباطل ٠

٤ ــ التواضــــع :

وأيضا لا تعارض بين القوة والتواضع ، بل لا تكتمل الفضيلة الخلقية فى مجالهما الا باجتماعهما معا ، فالناس يزدادون تهيبا وتقديرا للقـــوى حينما يرفض استخدام القوة مع قدرته عليها ٠

ولكن الواقع أن التواضع الذى يدعو اليه الاسلام ليس مقابلا للقوة ولا بديلا لها ، وانما هو بديل للزهو والخيلاء والكبرياء ، وسائر المعانى النفسية التى تنبع من الاعجاب بالنفس ، أو الرغبة فى التعالى على الناس ، فهذه المعانى من أبغض مظاهر السلوك فى الاسلام ، وهى فى الواقع أنواع ودرجات من الأمراض النفسية النابعة فى معظمها من الشعور بالنقص ، فيجد صاحب هذا الشعور لديه رغبة قوية فى الظهور بسلوك يخيل اليه أنه يعوض شعوره بالنقص ٠

أما النظرة الدينية فى الاسلام الى مظاهر هذا السلوك فهى أن الكبرياء لا ينبغى أن تكون فى حقيقة أمرها الا لله ، لأنه المالك الحقيقى لكل شىء ملكا ثابتا دائما ، فمن حقه أن يعتز بملكه ، وهو المنفرد بصفات كثيرة

---

(١) سورة الأنفال ٤٦ ٠ (٢) سورة محمد ٣٥ ٠
(٣) سورة الأنفال ٦١ ٠

لا يشاركه ولا ينافسه فيها أحد ، فمن حقه أن يتعالى بهذا التفرد ، ولذلك كان مما جاء فى القرآن عن الله (وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم) (١) وتعبير (له الكبرياء) وكذلك (وهو العزيز) يعنى فى اللغة أنه المنفرد بهذا ، ومعنى ذلك أنه ليس من حق أحد غيره أن تكون له الكبرياء ، أو العزة التى يتعالى بها على غيره ، والنبى صلى الله عليه وسلم يوضح هذا حيث يقول فيما يرويه عن ربه (قال الله العز ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى شيئا منهما عذبته) ٠

ومظاهر الخيلاء والغرور من أبغض المظاهر فى الاسلام ، والقرآن فى سياق النهى عن هذه المظاهر يذكر الانسان بضآلته وضعفه بجوار مخلوقات أخرى ، وهذه المخلوقات كان ينبغى أن تدعوه الى التأمل والموازنة بين قوته وقوتها وحجمه وحجمها ، وليس الى الغرور ، ومن ذلك (ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) (٢) والمراد بالمرح الغرور ، بمعنى أن كل ما حولك من مشاهد الكون اذا وازنت بينه وبينك يدعوك الى التواضع وليس الى التعاظم ، ويصوغ القرآن تنفيره من الكبرياء والتعالى فى صورة تعبيرية (كاريكاتورية) بالغة السخرية ، حيث يشبه المغرور المتكبر الذى يلوى عنقه تيها وخيلاء بالجمل المريض بالصعر ، وهو مرض معروف للعرب ، يصيب الجمل فيلوى عنقه ، ويمشى الجمل وهو بهذا الشكل ، وفى القرآن (ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا) (٣) بمعنى أنك حين تمشى بين الناس بهذا السلوك وهذا المظهر ، فكأنك جمل مريض بالصعر ، والواقع أن كليهما مريض فعلا ، غير أن الجمل مريض عضويا ، والمغرور المتكبر مريض نفسيا ٠

وفى الحديث النبوى مثال لأحد المغرورين من الأمم السابقة ، وكيف كان مصيره ، فيقول النبى (بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه ، مرجل رأسه ، يختال فى مشيته ، اذ خسف الله به فهو يتجلجل فى الأرض الى يوم القيامة) والحلة الثياب الكاملة ، والمرجل الممشط شعره ، ويتجلجل بمعنى يهوى ويهبط ، والحديث يتضمن تصويرا رمزيا لكون المغرور يتصور أن غروره يرفع من شأنه بينما الحقيقة أنه ينزل به نزولا شديدا ، ولكونه سلوكا يغضب الله ، فسيستمر هذا النزول فى منزلته بعد الموت الى ما شاء الله ، فضلا عن نزوله فى نفوس الناس فى الدنيا ، والقرآن يكرر كثيرا كراهية الله المتكبر ، ومن ذلك عن الله سبحانه (انه لا يحب المستكبرين) (٤) والقرآن يشير الى أن الله يطبع على عقول الطغاة من

---

(١) سورة الجاثية ٣٧ ٠
(٢) سورة الاسراء ٢٧ ٠
(٣) سورة لقمان ١٨ ٠
(٤) سورة النحل ٢٣ ٠

المتكبرين ، ويعمى بصائرهم ، فلا يفكرون فى العواقب ، ولا يشعرون بسوء طغيانهم وجبروتهم ، وهذا يزيدهم طغيانا وتجبرا ، وفى القرآن قول الله سبحانه (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار) (١) ٠

٥ ـ السخاء :

يدعو الاسلام بمختلف الأساليب ، وبكل وسائل الترغيب الى أن يكون المؤمن سخيا فى الانفاق من ماله ، والانفاق فى الاسلام نوعان :

(أ) انفاق واجب ، كالزكاة ، والنفقة الواجبة للزوجة والوالدين ، وهذا لا يعد سخاء ، لأنه تكليف واجب الأداء ٠

(ب) انفاق اختيارى ، وهو المقصود فى الوصف بالسخاء ، وفى ترغيب الاسلام فيه ، ولكن كما سبق القول ، فان مقياس قبول أى عمل أو رفضه فى الاسلام هو النية ، فلا يقبل العمل عند الله ، ولا يوصف بأنه خير ، الا اذا كان خالصا لوجه الله والخير ، أما اذا كان لصاحبه هدف شخصى كالفخر والرياء ، أو منفعة معينة من وراء انفاق ماله كانتظار كسب أو مصلحة ، فلن يقبل هذا الانفاق عند الله ٠

والقرآن حافل بالترغيب فى الانفاق ، وذلك بأساليب عديدة متنوعة ، منها أن الله يضمن للمنفق أن يعوضه عما أنفق ، كما فى القرآن (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) (٢) ومنها أن الله يلفت نظر الناس الى أن العبرة فى المال ليست بزيادة الحجم ، وانما برضا الله عن هذا المال ، فاذا سخط على مال محقه ومحاه مهما اجتهد صاحبه فى زيادته ، واذا رضى الله عن مال بارك فيه ونماه مهما بدا فيه من نقصان ، ومما يسخط الله الربا ، ومما يرضى الله الصدقات ، فيقول سبحانه (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) (٣) ويربى بمعنى ينمى ويزيد ، فالربا يزيد المال فى الظاهر ، ولكن الله يتوعده بأن يجعل مصيره فى النهاية الزوال ، ويمكن أن يحرم صاحب هذا المال من التمتع به لأى سبب كالمرض أو المصائب أو عدم الاستفادة به فى أى صورة ، فكأن هذا المال غير موجود ، ومن ناحية أخرى فان الصدقة تنقص المال فى الظاهر ، ولكن الله يعد بأن يجعل مصير هذا المال الزيادة والنمو ، حسيا أو معنويا ، فالحسى هو الزيادة المنظورة ، والمعنوى هو أن يجعل الله صاحب هذا المال وان كان قليلا يتمتع به فى صحة ومعافاة من البلاء ، ويشعر بنمو كل ما يستثمر فيه ٠

---

(١) سورة غافر ٣٥ ٠
(٢) سورة سبأ ٣٩ ٠
(٣) سورة البقرة ٢٧٦ ٠

والقرآن يدعو الى أن يكون الانفاق والسخاء صفة للمسلم ، تلازمه في كل موقف وكل حال ، فلا يقتصر انفاقه على موقف معين ، أو حالات خاصة ، ومن ذلك في القرآن (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (١) وفي القرآن أيضا (الذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء) (٢) وهذه الأحوال من الليل والنهار والسر والعلانية والسراء والضراء ليست مقصودة لذاتها ، وانما المقصود أن يكون السخاء بالانفاق صفة تلازم المؤمن في كل موقف يحتاج الى سخاء ٠

وليس معنى ذلك رغبة الاسلام في أن يستنزف صاحب المال ماله في السخاء والانفاق ، بل منهج الاسلام دائما التوسط والاعتدال ، ومن هذا القبيل في القرآن (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (٣) فالاسلام لا يرضى بالبخل ، ولا يرضى بالتبذير ، فكلاهما رذيلة ، والفضيلة هي التوسط بينهما ، وهي السخاء والجود ، ويوضح القرآن السبب في أنه لا يطلب من المؤمنين انفاق كل أموالهم ، وهو أنهم سيشعرون حينئذ بالتذمر والبغض للدين ، نتيجة لسيطرة غريزة حب التملك عليهم ، وهي التي ينتج عنها البخل ، ففي القرآن في سياق الحديث عن الأموال (ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) (٤) بمعنى ان يطلب الله كل أموالكم فيستنزفها ستبخلون وتظهرون كراهيتكم للدين ٠

ويحدد النبي صلى الله عليه وسلم القدر الذي يجوز رصده للخير من المال وهو الثلث ، حيث أراد أحد أصحابه أن يوصي بماله كله لينفق في سبيل الله ـ وكانت له بنت واحدة ـ فرفض النبي ، فعرض أن يوصي بثلثي ماله ، فرفض النبي أيضا ، فاستأذن في أن يوصي بالنصف ، فقال له النبي (تصدق بثلث مالك ، والثلث كثير ، لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) ٠

ورغم أن الانفاق اختياري في غير الواجبات التي فرضها الاسلام كالزكاة ، الا أن هناك مواقف يجعل الاسلام الانفاق فيها في صورة الواجب ، وخصوصا ازاء من لهم حقوق ، وممن لهم حقوق الأقارب ، والجار ، والضيف ، وكل من يتعرض لحاجة ملحة ، فان من حقه أن يعان لتخفيف كربته ، والقرآن يعدد بعضا من هؤلاء في مثل قوله تعالى (وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله

---

(١) سورة البقرة ٢٧٤ ٠
(٢) سورة آل عمران ١٣٤ ٠
(٣) سورة الاسراء ٢٩ ٠
(٤) سورة محمد ٣٧ ٠

لا يحب من كان مختالا فخورا ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) (١) فالقرآن يأمر بالاحسان الى هؤلاء جميعا ومن الاحسان الانفاق عليهم اذا احتاجوا ، بل يشير القرآن الى أن المقصود بالاحسان هو انفاق المال ، وذلك بأن جعل الحديث فى الآية التالية منصبا على البخل واخفاء المال عن المحتاجين .

وفى الحديث النبوى عن حق الضيف (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضـيفه) وكان من دعاء النبى (اللهم أعوذ بك من البخل والجبن والكسل) .

وكل ما يلحظ فى هذه الواجبات أنها من فروض الكفاية التى اذا أداها البعض سقطت عن الكل .

٦ ـ التعاون :

لما كان ايجاد المجتمع هدفا جوهريا فى الاسلام كان من آثار ذلك وجود تشريع متكامل بخلاف التشريع المتعلق بالفرد ، ومن ذلك وجوب التعاون بين أفراد المجتمع فى كل ما تقتضيه مصلحـة المجتمع أفرادا وجماعات وأمة ، بحيث كان لكل من الفرد والجماعة والأمـــة تشريعات وأحكام خاصة فى الاسلام كما سبق .

ومن هذه الأحكام وجوب التعاون بين الأفراد ، فان مصلحة المجتمع توجب التعاون بين أفراده ، ويحدد القرآن أن التعاون يجب أن يكون فيما يحقق خيرا ومصلحة ، ولا يجوز وجود تعاون يترتب عليـــه شر وضرر بأحد ، ففى القرآن (وتعاونـوا على البر والتقوى ولا تعاونـوا على الأثم والعدوان) (٢) والأمر والنهى فى الآية للوجوب وليس للتخيير ، بمعنى أن التعاون واجب فى كل ما تفرضه المصلحة غاية الأمر أنه حينئذ واجب كفاية ، اذا أداه البعض سقط عن الكل ، واذا لم يؤده أحد أثم الجميع . كما هو معروف في بحوث فرض الكفاية فى الفقه الاسلامى كما سبقت الاشارة اليه ، وخلاصته أن المطلوب حينئذ ليس تكليف الأفراد فردا فردا ، وانما المطلوب تحقيق المصلحة العامة ، أو رفع الضرر ، سواء فيما يتعلق بالفرد أو المجتمع أو الأمة ، فمتى تحقق هذا من أى أحد ارتفعت المسئولية عن الجميع ، أما اذا بقيت المصلحة العامة معطلة ، أو بقى الضرر قائما ولو بفرد ، فان كل من يملك أو يستطيع أداء هذا العمل أو الاسهام فيه ليحقق المصلحة أو يرفع الضرر ولا يفعل ذلك هو آثم .

---

(١) سورة النساء ٣٦ ـ ٣٧ . (٢) سورة المائدة ٢ .

ومن أمثلة ذلك أن يوجد شخص مريض أو عاجز أو جائع ، أو نحو ذلك ، وليس معه من يعينه ، ولا يملك ما يدفع به عن نفسه الضرر ، فيجب على جميع من يعلمون حاله حينئذ أن يعينوه ، أو يوجد شخص معرض لأى خطر أو ضرر ، ولا يستطيع دفع هذا عن نفسه ، كأن توجد امرأة تتعرض لايذائها فى عرضها أو للعدوان عليها ، فيجب على جميع من يستطيعون الاسهام فى دفع هذا أن يسهموا ، أو يوجد مكان معرض لحريق أو غرق أو سرقة أو أى ضرر ، فيجب على جميع من يستطيعون الاسهام فى دفع هذا الخطر أو الضرر أن يسهموا ٠

ومن أمثلة ذلك أن يتوقف مرفق من المرافق الحيوية الضرورية ، أو يكون هناك مشروع تصل الحاجة اليه الى درجة الضرورة ، فيجب على كل من يستطيع الاسهام فى ايجاده أن يسهم بما يستطيع ٠

وفى كل الأحوال السابقة ونحوها يكون الوجوب على المجموع وليس على الأفراد ، أو حسب تعبير فقهاء الاسلام فرض كفاية وليس فرض عين ، فاذا قام البعض ولو شخص واحد بأداء المطلوب ورفع الضرورة سقط الوجوب عن الجميع ، واذا لم يؤده أحد كان الجميع آثمين ومحاسبين أمام الله ٠

وأحق الناس فى المجتمع بالمعاونة الأقارب من ذوى الأرحام ، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تعظم من حق الرحم ، وتؤكد حق ذوى القرابة ، وقد سئل النبى ذات مرة عن أحق الناس بالبر ، فقال (أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك ثم الأقرب فالأقرب) ٠

وروى عنه أيضا (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه) ومما روى عنه أيضا فى شأن الرحم (الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ، ومن قطعنى قطعه الله) ٠

والقرآن يكرر تأكيد حق ذوى القربى فى الاحسان اليهم والبر بهم ، ويأمر بأداء هذا الحق ، ومن ذلك (وبالوالدين احسانا وبذى القربى) (١) وكذلك (وآت ذا القربى حقه) (٢) ٠

ويترتب على ذلك أن سد حاجة الأقارب واجب فيما بينهم ، بمعنى أنه حينما يكون أحدهم فى حاجة الى عون مادى أو اجتماعى فى أى شأن من شئونه الضرورية يجب عليهم أن يسدوا هذه الحاجة وجوبا ، فاذا قام أحدهم بهذا الواجب كفى عن الباقين ، واذا لم يقم به أحد كان جميع

---

(١) سورة النساء ٣٦ ٠ (٢) سورة الاسراء ٢٦ ٠

الأقارب آثمين ، ونلحظ أن تعبير القرآن يوحى كأن هذا الوجوب على كل فرد وليس على المجموع ، حيث تكرر في القرآن توجيه هذا الأمر بلفظ الأفراد مثل (فآت ذا القربى حقه) (١) وكأنه أمر موجه الى كل فرد من الأقارب ، بخلاف ما يوجه الى المجمـــوع ، مثل (وتعـاونوا على البر والتقوى) (٢) فالأمر فيه موجه الى الجماعة وليس الى الفرد ٠

ويلى الأقارب في الحقوق الجيران ، وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تؤكد حق الجار ، وتؤكد وجوب أداء هذا الحق اليه ، ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم (مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنـه سيورثه) يعنى يجعل له حق الميراث مثل ذوى الأرحام ، ومن ذلك أيضا (ما آمن بالله من بات شبعان وجاره جائع) وفي القرآن (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب) (٣) والقرآن بهـذا التعبير يحصر كل أنواع الجوار بما فيها ما يعرف اليوم بالزمالة ، وذلك أن فى (الجار ذى القربى) نوعا من الجوار ، هو جوار الاقارب ، ولاجتماع حق القرابة مع حق الجوار كان مقدما فى الترتيب ، والنوع الثانى (الجار الجنب) وهو جوار السكن دون رابطة أخرى ، وهذا النوع مهما كان دينه ، أو كانت صفته فله حق الجوار ، والنوع الثالث (الصاحب بالجنب) وهو توسع فى مدلول الجوار ، ليشمل الروابط الاجتماعية التى تربـط الفرد عادة بأشخاص قد يكون بينه وبينهم نتيجة لهذه الرابطة من الصلة أقوى مما بين المتجاورين فى السكن ، كالزمالة فى العمل ، أو السفر ، أو أى نوع من المصاحبة التى تمليها الظروف ، ولذلك كان تعبير القرآن (الصاحب) فهذا نوع من الجوار ، وله ما للجار من الحقوق ٠

وبعد هذه الأولويات فى الحقوق يأتى الواجب العام فى التعاون ، وهو يشمل كل المجتمع والأمة ، بمعنى أن التعاون فى كل ما هو ضرورى بين أفراد المجتمع أو الأمة هو أمر واجب على المجموع ، من باب فروض الكفاية ، كما سبق القول بأن كل أمر ضرورى ، فالتعاون فيه واجب على الجميع ، فاذا قام به البعض سقط الوجوب عن الباقين ، واذا لم يؤده أحد أثم الجميع ، وفى القرآن (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (٤) ٠

فمن صفات المسلم اذن الاستعداد الدائم للتعاون فى كل ما هـو خير ، مع أى فرد أو جهة ، وكل ما يحقق للاسلام قوة فى أى صورة علمية أو اقتصادية أو عسكرية أو سياسية فهو مما يجب التعاون فيه ٠

---

(١) سورة الروم ٣٨ ٠
(٢) سورة المائدة ٢ ٠
(٣) سورة النساء ٣٦ ٠
(٤) سورة المائدة ٢ ٠

٧ ـ حسن الخلق :

ومع أن كل الصفات السابقة هى من حسن الخلق ، الا أن حسن الخلق أصبح كأنه اصطلاح عرفى على الناحية الاجتماعية فى التعامل مع الناس ، أو الطابع العام لسلوك الفرد فى صلته بغيره ٠

والاسلام يجعل حسن الخلق فى قمة الأهداف التى ينبغى أن يتنافس فيها الأفراد ، ويجعل حسن الخلق لذاته درجة دينية ترفع قدر صاحبها عند الله ، بل يستشف من كثير من الأحاديث النبوية أن الحرص على حسن الخلق أفضل عند الله من الانهماك فى العبادات الروحية دون الاهتمام بحسن الخلق ، ومن ذلك فى حديث نبوى (ان العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وانه لضعيف العبادة ، وانه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة فى جهنم) وفى حديث آخر (ان الله ليبلغ العبد بحسن خلقه درجة الصوم والصلاة) ٠

وحيث كان حسن الخلق فى هذا المفهوم منصبا على الصلة بالناس فان رأى الناس فى الشخص هو الحكم على خلقه ، وهذا ليس استنتاجا ، وانما هو مفهوم الاسلام ، حيث ورد فى الأحاديث النبوية ما يتضمن أن الرأى العام للناس فى حكمهم على الشخص يمثل الوضع الدينى لهـذا الشخص عند الله ، ومن ذلك ما ورد من أن النبى كان ذات يوم جالسا مع أصحابه ، فمرت جنازة أثنى الحاضرون على صاحبها خيرا ، فقال النبى وجبت ، وسكت ، ثم مرت جنازة أخرى فقال الحاضرون عن صاحبها شرا ، فقال النبى : وجبت ، فسأله أصحابه عن معنى قوله وجبت فى الحالتين المختلفتين ، فقال : أما الأول فأثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وأما الثانى فقلتم عنه شرا فوجبت له النار ٠

ومعنى هذا أن رضا الناس عن شخص دليل على حسن خلقه ، وهذا يرضى الله ، وسخطهم عليه دليل على سوء خلقه ، وهذا يغضب الله ، ومن هذا يتبين أن ما يشيع بين عامة الناس من أن رضا الله من رضـا الناس انما هو حكم نابع من الدين ٠

وكان من أحسن ما مدح به القرآن محمدا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (وانك لعلى خلق عظيم) ٠

واذا نظرنا الى حسن الخلق من الناحية الاجتماعية نجد أن الدعوة اليه تعنى الاسهام فى تكوين مجتمع فاضل ، وهذا المعنى من الأهداف الجوهرية فى الاسلام ، فان الاسلام يهدف الى تكوين أمة لا ينبغى أن تكتفى بحسن الخلق ، وانما يكون هدفها أن تكون مثلا ونموذجا أعلى بين الأمم ، أو حسب تعبير القرآن الكريم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ٠

وحسن الخلق يتمثل فى صفات من أهمها :

(أ) لين الجانب :

بمعنى أن يكون الشخص لينا سمح النفس ، وهذا يدعو الناس الى الالفة معه ، والرغبة فى معاشرته والتعامل معه ، ولا يكون خشنا عنيف الطبع ، مما يدفع الناس الى تحاشيه والنفور منه ، وفى الأحاديث النبوية الاشادة بلين الجانب والترغيب فيه ، ومن ذلك (ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار ؟ تحرم على كل هين لين سهل) والقرآن يجعل أبرز ما يتمز به الخلق العظيم الذى وصف به النبى هو لين الجانب ، وفى القرآن عن خلق النبى من لين جانبه مشيرا الى أهمية هذه الصفة للزعامة والقيادة (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (١) ومن لين الجانب الرأفة والرحمة اللتان وصف الله بهما نبيه فى القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) (٢) ومعنى ذلك أن لين الجانب فى الصلة بالناس والتعامل معهم هو أبرز وأهم جوانب حسن الخلق ، وهذا واضـــح فى المجـــال الاجتماعى ، فان هذه الصفة أهم ما يميز الشخصية الاجتماعية ، وهناك أشخاص تنقصهم مزايا كثيرة ولكن ما يتمتعون به من لطف ولين جانب يجعل الناس يلتفون حولهم ويتعاطفون معهم فيصبحون من الشخصيات البارزة المحببة الى المجتمع ، وبالعكس من ذلك كثيرا ما يوجد أشخاص يتمتعون بمزايا وقدرات يتفوقون بها على غيرهم ، ولكن الحدة أو العنف أو ضيق الصدر الذى يتصفون به يجعل الناس ينفرون منهم ويتحاشونهم، فيعيشون وكأنهم منبوذون ، وقديما قال الشاعر الجاهلى عنترة :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

(ب) الأمانـة :

والأمانة فضيلة واسعة المدلول تنطوى على جوانب كثيرة من حسن الخلق ، ولكنها تعتمد أساسا على الصدق ، بيد أنها أوسع مدلولا من خلق الصدق ، وخلاصة الأمانة أو أثرها أن يكون الشخص موضع (ثقة) كل من يعرفونه ، لثقتهم فى خلقه .

والأمانة من خلق الايمان ، والاخلال بها فى صورة خيانتها اخلال بالايمان نفسه ، ولذلك كانت خيانة الأمانة من خلق النفاق ، كما فى الحديث النبوى (آية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ،

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩ . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .

واذا أؤتمن خان) وفي حديث آخر (من خان من ائتمنه فأنا خصمه) وفي القرآن (ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) (١) والحكم بالعدل يعد من قبيل الأمانة . لان الحق أصبح أمانة في يد القاضي أو الحاكم ، والحكم به يعني أداء الحق الى صاحبه ، وهو نوع من أداء الأمانات الى اهلها .

وكون الأمانة أوسع مدلولا من الصدق أمر واضح ، حيث يمكن ان يوصف الشخص أحيانا بأنه صادق ومع ذلك يكون في الموضوع نفسه غير أمين ، ويبدو ذلك أحيانا في نقل الأخبار ، وفي أداء الشهادة ، وكثيرا ما تترتب على ذلك أمور خطيرة ، فقد يشهد شخص بأنه رأى فلانا يعتدي على فلان ، ويسكت ، وقد يكون هذا المعتدى عليه هو الذي بدأ بالعدوان . ولكن الشاهد يشهد بجزء أو جانب من الحقيقة ، ويخفي الجانب الآخر ، وهذا الشخص لم يكذب فيما قال ، ولكنه لم يكن أمينا في نقل كل ما يعلم ، فجعل المظلوم ظالما ، والظالم مظلوما ، ومن مراعاة هذا كان موقف عمر بن الخطاب حين جاءه رجل مفقوء العين يشكو ، فقال له عمر : لا أقضي لك حتى يحضر خصمك ، فلعلك قد فقأت عينيه كلتيهما ، وقد ينقل شخص خبرا مهما ، فيروي جانبا ويخفي آخر ، وخفاء هذا الجانب يشوه الحقيقة أو يقلبها رأسا على عقب ، ومن قبيل هذا كان توجيه القرآن الكريم (يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) (٢) ولذلك كان كثير من المحاكم تراعي أن تطلب من الشاهد أن يحلف على قول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق .

والذي يخفي شيئا من الحقيقة غير أمين ، وكذلك الذي يضيف اليها شيئا .

ومن الأمانة التجرد من العواطف عند الحديث عن شخص ، أو الحكم عليه ، فالأمين حين يستدعى الموقف حديثه عن شخص يتحدث عنه كما يعتقد في قرارة نفسه ، دون زيادة قد تجعل بعض الناس ينخدعون فيه اذا كان الحديث مدحا فيتورطون معه بما يضرهم ،ودون نقص في المدح أو زيادة في الذم قد تنفر بعض الناس منه ، فيترتب على هذا اضرار بهم ، ومن هذا القبيل توجيه القرآن (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٣) والشنآن البغض ، بمعنى لا ينبغي أن تدعوكم البغضاء الى عدم انصاف من تبغضون .

---

(١) سورة النساء ٥٨ .
(٢) سورة الحجرات ٦ .
(٣) سورة المائدة ٨ .

وحين تتكامل المعانى السابقة فى شخص يوصف بأنه أمين ، سواء فى حفظ وأداء ما يؤتمن عليه ، أو فى نقل الأخبار ، أو فى الحديث عن غائب ، أو غير ذلك ٠

ج ـ الحياء :

والمراد بالحياء أن يخجل المرء من أى موقف لا يليق بالكرامة والمروءة ايجابا أو سلبا ، فالايجاب أن يفعل فعلا معيبا أو لا يليق بالخلق الحسن ، أو بمنزلة صاحبه ولو لم يكن هذا العمل محرما دينيا ، ومن أمثلة ذلك الأكل فى الطريق ، أو البول على جانب الطريق ، أو البصق فى الطريق ، أو نحو ذلك مما هو غير محرم دينيا ، ولكن صاحب الكرامة يستحيى أن يفعله ، لأنه لا يليق بكرامته ، والسلب أن يكون المرء فى موقف يقتضى منه عملا أو مشاركة ، كأن يتعرض أمامه انسان لموقف يوجب المساعدة فلا يساعده ، فهو لم يفعل شيئا ايجابيا ، ولكن عدم الفعل كان ينبغى أن يستحيى من أن ينسب اليه ، فيقال انه كان ينبغى أن يفعل كذا ولكنه لم يفعل ٠

فالحياء ليست له ضوابط محددة ، ولكنه صفة تمنع الشخص من قبول أن ينسب اليه ما يسىء الى الكرامة أو المنزلة ٠

كما أن الحياء غير الضعف ، فالضعف عجز عن عمل ما ينبغى أن يعمل ، أما الحياء فهو امتناع عن شىء مع القدرة عليه ، والفرق بينهما بعيد ٠

وتوافر الحياء فى شخص يتضمن أنه لن يصدر منه شىء قبيح ، وهذا قمة ما يهدف اليه الدين فى السلوك ، بل ان الحياء يتجاوز ما يأمر به الدين ، فان الدين وضع حدودا للحرام والحلال ، وترك أمورا كثيرة جعلها فى حكم المباح ، وقد يكون بعض هذا المباح معيبا اجتماعيا ، أو معيبا نسبيا ، بمعنى أن هناك أمورا يسيرة العيب قد يفعلها الشخص العادى فلا يعاب بها ، ولكنها معيبة بالقياس الى شخص ذى منزلة ، وقد ترك الدين الأمور المباحة ليحدد العرف الحكم عليها ، فان كان فى بعضها شىء معيب فان الحياء الذى يدعو الدين اليه كفيل بأن يصد المؤمن عنه ٠

والاسلام يدعو دعوة ملحة الى الحياء ، لأنه أقوى ضابط للسلوك الاجتماعى ، فحين يوجد الحياء فى شخص فلن يصدر منه شىء معيب ، وهذا من مضمون الحديث النبوى (الحياء لا يأتى الا بخير) كما أن فقدان الحياء يمكن أن يصدر عنه كل شىء قبيح ، وهذا أيضا من مضمون الحديث النبوى (اذا لم تستحى فاصنع ما شئت) ، ولكن الاسلام لا يجعل الحياء

من مكارم الأخلاق فحسب ، وانما يجعله مرتبطا بالايمان نفسه ، ولهذا جاء فى الحديث النبوى (الحياء شعبة من الايمان ، ولا ايمان لمن لا حياء له) بل يجعل الحديث النبوى الحياء رمزا للاسلام ، ومن ذلك ما روى عن النبى من قوله (ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء) ٠

وقد كان الحياء من أبرز صفات النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى وصف بأنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ٠

٨ ـ عفة اللسان :

من أهم الصفات التى يدعو اليها الاسلام أن يكون المسلم عف اللسان ، لا ينطق قط الا بما فيه خير ونفع ٠

ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم شديد الترغيب فى الصمت ، ومن ذلك قوله (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت) وقد سأله أحد أصحابه ذات مرة قائلا : أكلما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال (ثكلتك أمك ، وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار الا حصائد ألسنتهم ؟ انك لن تزال سالما ما سكت ، فاذا تكلمت كتب لك أو عليك) ٠

وكانت كثرة الصمت من صفات النبى ، وقد تحدث النبى بانها صفة كل الأنبياء ، حيث يقول (نحن معاشر الأنبياء كلامنا بكاء) بكسر الباء أى قليل ٠

فاذا تكلم المرء فأما أن يكون كلامه خيرا ، واما أن يكون شرا ، واما أن يكون لغوا لا خير فيه ولا فائدة منه ٠

فأما الذى لا خير فيه من الكلام كالذى يقال فى مجال العبث واللهو والمزاح التافه ، فانه ينزل بكرامة صاحبه ويحط من قدره وهيبته ، وكفى بالشىء سوءا أن يهدم منزلة صاحبه فى أعين الناس ونفوسهم ، وقد جعل القرآن من صفات المؤمنين أن يتعففوا عن النزول الى هذا اللغو أو المشاركة فيه ، ومن ذلك فى القرآن عن المؤمنين (واذا مروا باللغو مروا كراما)(١) ٠

وأما ان كان الكلام شرا فان الاسلام يحرمه تحريما شديدا ، ومن ذلك شهادة الزور التى وصف القرآن المؤمنين بأنهم لا يقعون فى وزرها ، حيث يقول سبحانه عن المؤمنين (والذين لا يشهدون الزور) (٢) وقد جعل النبى شهادة الزور من أكبر الكبائر ، حيث يقول (ألا أخبركم بأكبر

---

(١) سورة الفرقان ٧٢ ٠ (٢) سورة الفرقان ٧٢ ٠

الكبائر : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، وأخذ يكرر : وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور) ومن شرور القول الغيبة التي نهى عنها القرآن بأشد أساليب التنفير ، حيث يشبه الاساءة الى شخص غائب بأكل جيفة انسان ميت ، فيقول (ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) (١) . أما ان كان هـذا متعلقا بقذف عرض امرأة أو رجل فى عفتهما فقد جعل له الاسلام عقوبة محددة . هى جلد القاذف ثمانين جلده ، وزيادة على ذلك تنزع منه الثقة ، فلا تقبل شهادته بعد ذلك أبدا ، كما فى القرآن (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوالهم شهـــادة أبدا) (٢) والنبى يحذر من عاقبة مثل هذا الكلام فى أحاديث كثيرة . منها (ان الرجل ليقول الكلمة لا يأبه لها فيهوى بها فى جهنم سبعين خريفا) .

وأما ان كان الكلام خيرا فقد كان المفروض أن يدعو الاسلام اليه بمثل ما ينهى عن كلام الشر ، ولكننا نلحظ أن الاسلام وان كان يدعو اليه ضمنا الا أنه لا يركز على الدعوة اليه ، بل الروح العامة فى الاسلام أن الصمت هو خير الأحوال ، ثم يليه الكلام الذى فيه خير ، ويستثنى القرآن من ذلك الدعوة الى الله والخير ، فيجعلهـــا أحسن ما يتلفظ به الانسان ، حيث يقول تعالى (ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمـل صالحا وقال اننى من المسلمين) ؟ (٣) فالقرآن يجعل هذا المنهج أسمى مجالات الكلام ، ولكن ينبغى أن نلحظ أن هناك فرقا كبيرا بين أن يكون الكلام خيرا وأن يكون دعوة الى الخير .

فحين يكون الكلام خيرا فلا بأس به ، ولكن السكوت قد يكون خيرا منه ، من باب قولهم (اذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) أما الذى لا يكون السكوت ولا أى كلام خيرا منه فهو الدعوة الى الايمان والخير ، لأنها تصحيح واصلاح لأوضاع خاطئة فى المجتمع ، وهذا ما عناه القرآن بلفظ (دعا) وتعبير القرآن (وعمل صالحـــا وقال اننى من المسلمين) يعنى أن الداعى لا ينال هذه المنزلة الا اذا كان هو قدوة عاملا بما يدعو اليه .

وخلاصة هذا أن الاسلام يدعو الى عفة اللسان ، ويجعلهـــا علامة جوهرية من علامات الايمان .

---

(١) سورة الحجرات ١٢ .
(٢) سورة النور ٤ .
(٣) سورة فصلت ٣٣ .

٩ ـ السلوك المهذب :

يتضح من توجيهات التشريع الاسلامى الحرص على أن يكون سلوك المسلم نموذجا متكاملا فى كل جوانب السلوك ، بحيث يمثل ما يعبر عنه بالسلوك الحضارى فى أكمل صوره ، ولذلك يدعو الاسلام الى تحقيق هذه الغاية فى كل جانب من جوانب السلوك ، والأحاديث النبوية حافلة بالدعوة الى هذه الآداب ، فضلا عن أن النبى صلى الله عليه وسلم كان النموذج الكامل لهذا السلوك ، وكان القدوة التى أمر الله المسلمين أن يقتدوا بها ، كما فى القرآن (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) (١) .

ولكى تكون هذه الآداب أشد أهمية فان الله يضع أسسها فى القرآن نفسه ، حتى تنال أكبر قدر من الاهتمام بها ، بوصفها توجيهات صادرة من الله مباشرة .

ومن جوانب السلوك التى أبرز الاسلام الاهتمام بها :

(أ) آداب الزيارة :

الاسلام يدعو باهتمام شديد الى توثيق الصلات بين الأفراد ، كما هو معروف ، ومن توثيق الصلة الزيارة ، ولكنه لو فتح باب الزيارات على مصراعيه دون قيود قد تنتهك حرمة البيوت ، وتقلق راحة أصحابها ، ولذلك وضع الاسلام قيودا جعلها آدابا للتزاور فى البيوت .

ويفرق الاسلام بين المساكن الخاصة ، والأماكن العامة ، فالأماكن العامة لا يحتاج دخولها الى اذن ، لأنها بطبيعتها مباحة الدخول للجميع ، ومن ذلك فى القرآن (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) (٢) وتعبير (غير مسكونة) يعنى ليست مسكنا خاصا ، بل هى مكان عام كالفنادق والمطاعم ، فمثل هذه الأماكن لا تحتاج فى دخولها الى اذن ، ولكن القرآن يذكر فى هذا المقام أمرين يجعلهما كالتعليل لدخول هذه الأماكن ، أحدهما يصرح به ، وهو أن تكون هناك حاجة الى ارتياد هذه الأماكن العامة ، كالمضطر الى المبيت فى فندق ، أو المحتاج حقيقة الى مطعم ، حتى لا يكون ارتياد هذه الأماكن للتسكع أو التطفل أو ما هو شر من ذلك ، وهذا يؤخذ من تعبير (فيها متاع لكم) بمعنى لكم حاجة فى دخولها ، والأمر الآخر يشير اليه اشارة بتعبير (والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) كتحذير

---

(١) سورة الأحزاب ٢١ .

(٢) سورة النور ٢٩ .

ضمنى من أن يتخذ ارتياد هذه الأماكن وسيلة لأى شىء غير مشروع ، فالله سيعلم كل شىء حتى ما تضمرونه فى نفوسكم ، وهو تحذير واقعى فان كثيرا مما يقع من أنواع السلوك غير المشروع يكون مجاله أو بدايته فى هذه الأماكن العامة ٠

أما المساكن الخاصة فان الاسلام يجعل لها حرمـــة لا ينبغى أن تنتهك ، ومن انتهاك حرمتها الدخول بغير اذن ولو كان الباب مفتوحا ، فلا يجوز لرجل أو امرأة دخول بيت الا بعد اذن من أصحابه ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (١) وحتى تستأنسوا بمعنى حتى تستأذنوا ، ولكن دقة تعبير القرآن توحى بما هو أبعد من الاذن ، فان (تستأنسوا) توحى بمعنى الأنس ، كما تقول أنست بفلان أى أزال وحشتى وأمتعنى بلقائه ، وهذا يتضمن كأن الله سبحانه يقول لك لا تدخل بيتا حتى تشـعر بأن أصحابه يجدون فى نفوسهم رغبة فى زيارتك ، لأن الاذن لا يدل على الرغبة النفسية ، فكثيرا ما يؤذن لشخص حياء وخجلا والنفس ضيقـة بزيارته أو دخوله ، وتعبير (حتى تسلموا على أهلها) بمعنى لا تدخلوا حتى تلقوا السلام على أهل البيت ، وهو تعبير (السلام عليكم) ولكن التعبير يتضمن أيضا معنى نفسيا أعمق من مجرد الالفاظ ، لأن السلام بمعنى الأمان ، والمعنى حينئذ لا ينبغى أن تدخلوا بيتا الا اذا كان أهله يشعرون بالأمن والاطمئنان عند وجودكم فيه ، سواء أكان أمنـــا على الأعراض ، أم الأموال ، أم الأسرار ٠

فالاسلام اذن يجعل أساس الزيارة أن يكون مرغوبا فيها من أصحاب البيت ، ومع ذلك فلا بد للزائر من أن يستأذن قبل أن يدخل ، والصيغة التى وردت عن النبى فى ذلك ، أن يقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فاذا أذن له اذنا صريحا دخل ، وينبغى أن يدخل من المدخل الرئيس للبيت ، وليس من مدخل جانبى أو خلفى ، فقد يكون لأصحاب البيت فى هذا المكان ما لا يحبون أن يطلع عليه أجنبى أو زائر ، وفى القرآن (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) (٢) ولا يجوز اطلاقا أن ينظر الزائر من ثقب أو زاوية بـاب أو ستار أو يسترق النظر الى داخل البيت بأى صورة ، حتى لقد ورد عن النبى عدة أحاديث تتضمن مثل قوله (من اطلع فى بيت قوم بغير أذنهم ففقأوا عينه فلا دية له ولا قصاص) وهذا تعظيم لحرمة البيوت وأسرارها ٠

ومن حق أهل البيت أن يرفضوا الاذن بالدخول دون حاجة الى ابداء السبب ، فاذا رفضوا ، أو لم يأذنوا بالدخول فلا يجوز للزائر أن يدخل

---

(١) سورة النور ٢٧ ٠ (٢) سورة البقرة ١٨٩ ٠

ولو كان الباب مفتوحا ، ولا يشفع له أن يكون ذا قرابة أو صداقة ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو ازكى لكم) (١) —

ومما يلفت النظر أن القرآن يسوق عقب الحديث عن الزيارات فى البيوت الأمر بغض الأبصار وحفظ الفروج ، حيث يقول عقب الآيات السابقة (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن ..) (٢) وكأن هذا التنبيه اشارة الى أن زيارات البيوت اذا حدث فيها اختلاط بين الرجال والنساء قد تنبع منها آثام تبدأ من الأبصار ، وتنتهى بالفواحش .

وكأنه اشارة أيضا الى أن المرأة لا ينبغى أن تتزين أو أن تظهر زينتها لزائر ، لأن هذا قد يكون من عوامل الفساد أو بدايته ، ويحدد لها القرآن من يجوز لها اظهار زينتها أمامهم ، والمراد بالزينة كشف شىء من جسدها سوى الوجه والكفين ، وكذلك كل ما يثير فتنة منها أو من ملابسها وزينتها .

ويشير القرآن الى أوقات يجب ألا تكون فيها زيارة ، ويمنع دخول أحد فيها ، لأنها تكون عادة أوقات نوم أو راحة يتخفف أصحاب البيت فيها من ملابسهم الاجتماعية ، ويكونون فى ملابس النوم أو البيت ، أو يكونون فى حال لا يحبون أن يراهم أحد فيها ، فمما يزعجهم أن يفاجئهم أحد فى هذا الوقت زائرا ، ففى القرآن (يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) (٣) فالاستئذان فى الحكم العام واجب ، الا الأطفال والخدم فليس الاذن بالقياس اليهم واجبا ، مراعاة لوضعهم الخاص ، ولكن تستثنى من ذلك أوقات الراحة والنوم ، وهى الأوقات التى حددتها الآية السابقة ، قبل صلاة الفجر ، ووقت الاستجمام فى الظهيرة ، وبعد العشاء ، هذه الأوقات لا يصح حتى للأطفال أو الخدم أن يدخلوا فيها بدون اذن ، وينبغى أن يمنعوا من ذلك حتى

---

(١) سورة النور ٢٧ — ٢٨ .
(٢) سورة النور ٣٠ — ٣١ .
(٣) سورة النور ٥٨ .

يتعودوه ، ويصف القرآن هذه الأوقات بأنها (عورات) والعورة يجب سترها ، وهذا للتشديد فى التزام توجيه القرآن .

ويلفت القرآن النظر الى أن تعـــود الأطفال الدخول بغير اذن يجب أن يتوقف عند مجاوزتهم مرحلة الطفولة . عندئذ يجب أن يستأذنوا فى كل الأوقات كما يستأذن الكبار ، وفى القرآن (واذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم) (١) وبلوغ الأطفال الحلم هو دخولهم مرحلة الاخصاب الجنسى ، سواء الفتاة والفتى ، وهى المرحلة المعروفة بالمراهقة ، وتخصيص القرآن اياها بالذكر يتضمن اشارة الى خطورة هذه السن ، حين يتعرض أصحابها للاثارة الجنسية بما قـد يرونه من عورات ، فضلا عما تتضمنه الآية من توجيه الى ستر عورات المستأذن عليهم ، ويشير القرآن الى أن السبب الجوهرى فى هذه الأحكام يدور حول منع الفتنة والاثارة الجنسية والريبة الخلقية ، فاذا أمن ذلك كما فى النساء العجائز كان الحكم مختلفا ، كما فى الآية الكريمة (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضـــعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن) (٢) والقاعدة من النساء من بلغت الشيخوخة .

(ب) آداب الطعام :

الدعوة الى الطعام أمر مشروع ، بل مرغوب فيه ، سواء من الداعى والمدعو ، بمعنى أن الاسلام يرغب المسلم فى أن يكـــون من تودده الى اخوانه دعوتهم الى طعام ، وأن على المدعو حينئذ أن يلبى الدعوة ، ومن الأحاديث النبوية فى ذلك (اذا دعى أحدكم الى طعام فليجب ، فان شاء طعم ، وان شاء ترك) وكان من المعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يرفض دعوة الى طعام ، ولا يأبى قبول هدية ، وفى الحديث النبوى (لو دعيت الى طعام لأجبت ، ولو أهدى الى ذراع لقبلت) يعنى ذراع شاة ، أى مهما صغرت الهدية .

ولكن الاسلام ينبه حينئذ الى مراعاة المدعو لآداب الدعوة الى الطعام ، وأهم ما ينبه اليه الاسلام من هذه الآداب أمران :

١ ـ طريقة الأكل :

وردت عن النبى أحاديث كثيرة فيما يتعلق بالاكل ، ومنها ما رواه أحد أصحاب النبى ، قال : كنت غلاما صغيرا ، وكنت آكل مع النبى

---

(١) سورة النور ٥٩ .

(٢) سورة النور ٦٠ .

فكانت يدى تطيش فى الصحفة ـ وهى اناء الطعـــام ـ فقال لى النبى (يا غلام اذا أكلت فسم الله ، وكل بيمنك ، وكل مما يليك) فيأمره بأن يبدأ الأكل باسم الله ، وهو شعار اسلامى للبدء فى أى عمـــل وفى الحديث النبوى (كل عمل لا يبدأ باسم الله فهو أبتر) يعنى قليـل البركة ، ويأمره بأن يأكل بيده اليمنى وحدها ، فمن مظاهر الجشـع والنهم الأكل باليدين معا ، والاسلام يحب كل ما يتعلق باليمين ، سواء أكانت اليد اليمنى ، أم الجهة اليمنى ، وفى الحديث النبوى (كان النبى يحب التيامن فى كل شىء حتى فى التنعل والترجل) يعنى حتى فى لبس النعل ، والنزول عن الدابة ، ويأمره بأن يأكل من الجهة التى تليه ، فهـــو أقرب الى مظهر الأدب والقناعة ، بخـــلاف الأكل ممـــا هو أمام الآخرين ٠

ومن آداب الأكل عدم ملء البطن ، ففضلا عن الناحية الصحية فان ملء البطن مظهر منفر يدل على الجشع ، ومن المشهور عن النبى قوله (نحن قوم لا نأكل الا اذا جعنا واذا أكلنا لا نشبع) وهذا لا يختلف فيه علماء الطب فى العالم على أنه أفضل وسيلة صحية ، ومن الأحاديث النبوية أيضا فى التنفير من كثرة الأكل (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسبه أكيلات يقمن صلبه ، فان كان لا محالة فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه) بمعنى أن الانسان تـكفيه لقيمـات تقيم جسمه ، ومهما كانت رغبته فى الطعام فلا ينبغى أن يتجاوز ما يملأ ثلث جوفه ، ليترك مجالا للحـاجتين الضروريتين الأخريين ، وهما الشراب والتنفس ٠

والنهى عن الاسراف فى الأكل والشرب ورد صريحـــا فى القرآن نفسه ، فى قوله تعالى (وكلوا واشربـــوا ولا تسرفـــوا انه لا يحب المسرفين) (١) وكما أن من آداب الطعام فى الاســـلام البدء باسم الله فكذلك يختم الطعام بحمد الله ٠

٢ ـ بعد الأكل :

تأسيسا على أن البيوت أماكن خاصة وليست عامة ، وأن لها من أجل ذلك حرمة تجعل دخولها للغريب استثناء وليس أصلا ، فان الاسلام من أجل ذلك يشير الى أن الدعوة الى الطعام من باب هذا الاستثناء ، ولذلك ينبغى أن تنتهى الزيارة فور الانتهاء من الطعام ، فالضيف مدعو الى غرض معين هو الطعام ، وقد انتهى منه فلا داعى لبقائه فى البيت ،

---

(١) سورة الأعراف ٣١ ٠

لأن بقاءه حينئذ نوع من الاقلاق والمضايقة لأصحـــاب البيت ، والقرآن يضرب فى ذلك مثلا بالنبى وبيته ، فيجعل هذه الآداب واجبة بالقياس الى النبى وبيته ، ففى القرآن ما يتضمن أنه لا يجوز دخول بيوت النبى الا حين يدعوهم الى طعام ، فاذا انتهى تناول الطعام يجب أن ينصرفوا ، ولا يجوز بقاؤهم للتسامر والتســـلى بالحديث ، ولما كانت بيوت النبى عرضة لكل نوعيات الناس وأخلاقهم فقد أمر الله باحتجاب نسائه عـن الضيوف ، فاذا طلب منهن حينئذ شىء فيجب أن يكون من وراء حجاب ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحـــديث ان ذلـــكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم والله لا يستحيى من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) (١) .

فوجوب هذه الأحكام خاص ببيوت النبى ، وهى بالقياس الى سائر المسلمين آداب ، ولكن تسجيلها فى قرآن خالد يتضمن اشارة الى أهميتها ، وتذكيرا دائما بالأسباب التى دعت اليها ، وهـــذه الأسباب قائمة لدى الجميع عادة ، فالقرآن يجعل السبب فى الأمر بعدم البقـــاء بعد الطعام تجنب ايذاء النبى ، وكل أصحاب بيت يشعرون بعد انتهاء مأدبة طعامهم ، وما بذلوه فيها من جهد أنهم أدوا واجبهم ، ويريدون أن يستريحوا وأن يفرغوا لشأنهم ، ومما تضيق به نفوسهم بقاء الضيف بعد ذلك ، وكذلك يجعل القرآن السبب فى الأمر باحتجاب نساء النبى أن مخالطة النساء للرجال قد توجد مشاعر عاطفية لدى الطرفين أو أحدهما ، وهى حينئذ مشاعر آثمة ، وقد عبر القرآن عن ذلك بتعبيره البالغ الدقة (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) واذا كانت المخالطة يخشى أن تحدث هذا الأثر فى بيوت النبى فمن باب أولى أن تحدثه فى سائر البيوت ، ولذلك كان عدم مخالطة النساء للرجال ، وخصوصا فى الأماكن الخاصة كالبيوت من عوامل اغلاق منابع الفساد الخلقى والاجتماعى ، والشاعر يصور أطوار العلاقة بين الرجل والمرأة بقوله :

نظرة فابتسامة فسلام ... فكلام فمـــوعد فلقاء

١٠ ـ آداب اللقاء والمجالسة :

يحرص الاسلام على كل وسيلة تؤدى الى تحلى الانسان بالخلـق الحسن ، والى ايجاد المودة وحسن الصلة بين أفراد المجتمع ، وهناك عوامل

---

(١) سورة الأحزاب ٥٣ .

قد تبدو يسيرة فى ذاتها ، ولكنها تؤدى أثرا عميقا فى داخل النفوس من حيث المودة والألفة بين الأفراد ، ومن أبرز ما يوجه اليه الاسلام الاهتمام فى هذا المجال أمران :

(أ) حسن اللقاء :

العاطفة عنصر أصيل فى تكوين الانسان ، فهو يميل بطبعه الى من يمنحه اللطف والود ، وينفر ممن يواجهه بالشدة والغلظة ، والاسلام يدعو الى كل ما يستميل القلوب ويحقق الألفة النفسية بين الأفراد ، ومن ذلك فيما يتعلق بحسن اللقاء البشاشة عند اللقاء فانها من أقوى عوامل استمالة القلوب ، وقد كان من المعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يلقى بالبشاشة حتى أعداءه من المشركين ، فضلا عن المؤمنين ، وهذا هو الخلق الذى يرضاه الله ، ولذلك عاتبه الله على أنه استقبل ذات مرة بالعبوس رجلا من أصحابه ، هو عبد الله بن أم مكتوم الأعمى حين وجده يشغله حينئذ عن دعوة بعض ذوى النفوذ الى الاسلام ، ففى القرآن عن عتاب الله لنبيه (عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى) (١) وفى الحديث النبوى (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق) .

ومما يحقق الألفة تحية اللقاء ، والتحية فى الاسلام هى تعبير (السلام عليكم) ولفظ (السلام) محور جوهرى فى الاسلام يتردد كثيرا حتى فى الصلاة ، ومن الواضح أن دلالته تعنى الأمن والمسالمة ، بمعنى أن من يلقى التحية قائلا (السلام عليكم) فكأنه يقول : لكم الأمن من جانبى ، وحين يردون قائلين : وعليك السلام ، معناه : ولك أيضا الأمن من جانبنا ، وهو أمن مطلق فى كل وجه من الوجوه ، بمعنى أنه مثلا لو أفشى سرا من أسرارهم يكون قد نقض وعده بأنهم سيكونون آمنين جانبه .

واذا كان البدء بتحية اللقاء مرغبا فيه محض ترغيب ، فان رد هذه التحية يكون واجبا ، لأن عدم الرد سيلقى فى نفس من ألقى التحية نوعا من التوجس ، وستحدثه نفسه : لماذا لم أتلق ردا ؟ فيشعر بهوان أو بخوف أو ريبة أو أى شعور تضيق به نفسه ، وهذا الضيق ايذاء له ، وهو قد قدم الاحسان بالقاء التحية ، ومما يجافى الخلق أن يكون جزاء الاحسان سوءا ، ولذلك جعل القرآن رد التحية واجبا ، حيث يقول سبحانه (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) (٢) .

---

(١) أول سورة عبس .

(٢) سورة النساء ٨٦ .

(ب) حسن المجالسة :

ومن الآداب التى يدعو اليها الاسلام حسن المجالسة ، ومن ذلك أن يشعر كل من فى المجلس بأن كرامته محفوظة ، وان مشاعره مصونة من الايذاء ، ومن يخل بشىء من هذا يكون قد ارتكب فى حق أخيه المساء اليه جرما ، ويكون من ناحية أخرى قد خالف آداب الاسلام ، ويبلغ اهتمام الاسلام بهذه المعانى أن يسجل القرآن نفسه آداب المجلس ، ومن ذلك أنه حين يقدم على المجلس شخص فانه يحتاج الى مكان يجلس فيه ، والمقادم عادة دهشة ، فهو لا يعرف أين المكان الذى يمكن أن يجلس فيه ويتسع له ، وعلى الجالسين فى مجموعهم أن يفسحوا له مكانا ، وهذا من فروض الكفاية ، بمعنى أنه واجب على مجموع الجالسين ، فاذا أداه البعض وأفسح للقادم ، سقط الوجوب عن الجميع ، فاذا لم يؤده أحد مع استطاعتهم ، وتركوا القادم فى حيرته وارتباكه ، أو جعلوه يرجع خجلا منكسرا مع استطاعتهم ايجاد مكان له فكلهم آثم ، وفى القرآن (يأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم) (١) .

وكذلك من أحوال المجالس أنه قد يدعو ظرف من الظروف الى تخلى أحد الجالسين عن مكانه لقادم مريض أو لأى سبب غير عادى ، فيجب على مجموع الجالسين أيضا أن يخلوا المكان المطلوب ، فاذا أداه البعض سقط الوجوب عن الجميع ، واذا لم يؤده أحد أثم الجميع ، وفى القرآن الكريم من تتمة المعنى السابق (يأيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم واذا قيل انشزوا فانشزوا) فاذا طلب من شخص بعينه القيام فى هذا الداعى الضرورى وجب عليه أن يقوم ، وان طلب من الجميع أن يخلوا مكانا أو أكثر كان الوجوب شائعا على الجميع . ومن آداب المجالس ما يلفت النبى النظر اليه فيما ورد من نهيه عن أن يتناجى اثنان ومعهما ثالث .

١١ – الآداب العامة :

يمكن القول بأن الاسلام ، بل القرآن نفسه ، قد حدد بالتفصيل كل جوانب الآداب التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمن ، والتى اذا استطاع أن يلتزمها كان انسانا فاضلا كامل الصلاحية للدين والدنيا معا ، وثمرة الصلاحية الدينية أن يحظى برضا الله ، وثمرة الصلاحية الدنيوية أن يحظى برضا الناس ، وبلوغ الغايتين معا أقصى ما تطمح اليه نفس ، ومن الواضح الشديد الوضوح أن الاسلام يستهدف الغايتين معا .

---

(١) سورة المجادلة ١١ .

ولذلك نجد في القرآن نفسه أنواعا من الآداب قد تبدو في ظاهرها يسيرة الشأن ، والنظرة السطحية قد ترى القرآن أكبر وأجل من أن يعنى بها ، ولكن يتضح من عناية القرآن بهذه التفاصيل أمران :

أحدهما أن يرشد المؤمن الى كل الصفات والآداب التى تحقق له التكامل الدينى والخلقى ، ولذلك لو حصرنا هذه التوجيهات المتفرقة فى القرآن نجدها لا تكاد تترك جانبا من الجوانب الدينية أو الخلقية او الاجتماعية الا أرشدت اليه .

والأمر الثانى أن كثيرا من الآداب الخلقية قد تبدو مزاولتها فى ظاهر الأمر شيئا عاديا أو شبه عادى لا يحتاج الى توجيه خاص ، ولكنها فى أحيان أخرى تتضمن مزاولتها سيئة دينية أو اجتماعية .

ومثال ذلك المشى ، فقد يبدو أنه أمر فطرى لدى الفرد ، فلكل انسان مشيته التى لا تحتاج الى توجيه أو تعليم ، ولكن القرآن يتحدث أكثر من مرة فى شأن المشى ، فمن ذلك فى القرآن (واقصد فى مشيك) (١) والقصد الاعتدال ، والمشى قد يقصد به السلوك عامة ، ولكن لا بد أن يكون المشى المعروف ضمن المقصود ، والقرآن حينئذ يدعو المؤمن أن تكون مشيته متزنة معتدلة ، ليست فيها السرعة المخلة بالوقار ، وليس فيها البطء الذى يشبه التسكع والمخل أيضا بالوقار ، والقرآن فى هذا يدعو الى تطبيق القاعدة العامة التى يسير عليها ، وهى الاعتدال ، وشعاره (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) (٢) ليشمل الاعتدال كل سلوك المؤمن .

ولكن هناك أمر أشد خطورة يشير القرآن الى أنه السبب الجوهرى فى الاهتمام بهذا التوجيه فى المشى ، وهو أن المشى أحيانا يكون مظهرا للغرور والكبرياء والتعالى ، وكلها من الصفات السيئة سواء من الناحية الدينية ، أو الناحية الاجتماعية ، ولذلك نجد فى القرآن من هذا القبيل (ولا تمش فى الأرض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور) (٣) .

وواضح أن المراد بالمرح الخيلاء والغرور كما يشير ختام الآية . وفى القرآن أيضا (ولا تمش فى الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) (٤) واذن فالمشى فى بعض حالاته منكر ، فهو فى حاجة الى توجيه للتحذير من الاتجاه به الى مظهر سيء .

---

(١) سورة لقمان ١٩ .
(٢) سورة البقرة ١٤٣ .
(٣) سورة لقمان ١٨ .
(٤) سورة الاسراء ٣٧ .

ومن أمثلة ذلك أيضا الصوت ، فقد يبدو أن الصوت فى نوعيته ، وفى درجة ارتفاعه أمر فطرى فى تكوين كل شخص ، فلا يحتاج الى توجيه فى شأنه ، ولكن القرآن يسوق توجيهه فى أكثر من موضع الى الاعتدال فى درجة الصوت ، فمن ذلك ما جاء فى القرآن على لسان لقمان يوصى ابنه (واغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير) (١) بمعنى اخفض من صوتك اذا كان عاليا فلا تطلقه ليدوى ويزعج ، فيكون مصدر تنفير ٠

والواقع أن الأمر أبعد وأهم من هذا الظاهر ، فان أهمية هذا التوجيه ليست محصورة فى نطاق سلوك الأفراد فحسب ، بل ان درجة الصوت تعد من مقاييس البداوة والحضارة فى المجتمعات ، ونستطيع أن نلمس الفرق بين الريفى والمدنى فى استماع كل منهما الى مذياع ، فبينما الريفى لا يستمتع بالمذياع الا اذا كان صوته عاليا مدويا ، نجد ساكن المدينة يكتفى من صوت المذياع بمقدار ما يصل الى أذنه بوضوح ، وبينما نجد الفندق أو المقهى الشعبى يعج بالصخب والأصوات العالية نجد الفندق أو المقهى المخصص لطبقة عالية المستوى الثقافى والحضارى لا يكاد يسمع فيه همس مهما احتوى من كثرة العدد فيه ، وهكذا ٠

واذن فتوجيه القرآن الى تخفيض الصوت العالى ليس توجيها فرديا فحسب ، وانما هو توجيه حضارى اجتماعى أيضا ، ولذلك يعلم القرآن وفود البدو الذين كانوا يفدون على النبى صلى الله عليه وسلم ، فيسلكون سلوك البادية حينئذ ، من صخب الأصوات ، والنداء من خارج البيت ليخرج لهم ، فيقول (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ، ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم) (٢) ٠

---

(١) سورة لقمان ١٩ ٠ (٢) سورة الحجرات ٢ ـ ٦ ٠

حقوق الانسان فى الاسلام

اذا كانت أول وثيقة عالمية مكتوبة لحقوق الانسان قد صـــدرت فى هذا الجيل سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وألف (١٩٤٨ م) فان القرآن دون شك كان قبل ذلك بنحو أربعة عشر قرنا يسجل حقوق الانسان فى أكمل مبادىء تتطلع اليها البشرية ، حيث تشمل كل حاجات الانســان الجوهرية ، فى كرامته ، وعقيدته ، وحقـوقه المعيشية ، والاجتماعية ، والسياسية ٠

ومن أهم المبادىء الواضحة والمحـــددة من حقـوق الانســـان فى الاسلام :

١ ـ المساواة العامة

فمن بدهيات الاسلام أنه لا يفرق بين الأجناس أو الألوان أو الأوضاع بأى صفة عنصرية ، فالبشرية جميعا من حيث الحقوق العامة ســـواء فى الاسلام ، لا يمتاز أحد منهم على أحد الا بعمله ، ومع ذلك فان هذا التميز عند الله وليس عند الناس ، أما التشريع الذى يجب أن يعمل به بـين الناس فهو أن الأدميين جميعا سواء ، وفى القرآن (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) فالخطاب موجه الى الناس بجميع شعوبهم وقبائلهم ، رجالهم ونسائهم ، والهدف مشترك بين الجميع وهو التعارف وما يترتب عليه من وجوه التعامل والتعاون والاجتماع ، وفى كل هذه الأوضاع هم متساوون فيما بينهم ، والتشريع الاسلامى يحفظ هذا التساوى تشريعا وتطبيقا ،

---

(١) سورة الحجرات ١٣ ٠

ثم تأتى مرحلة التفاضل ، وهى (عند الله) كما يحدد ذلك لفظ القرآن أما لدى التشريع الاسلامى الدنيوى فهم جميعا من حيث حفظ الحقوق ، سواء ، وفى الحديث النبوى (كلكم لآدم ، وآدم من تراب) وأيضا (لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) ٠

وكانت هذه المساواة شديدة الوضوح فى التطبيق العملى فى الاسلام فان أصحاب النبى المحيطين به كانوا من أنساب وشعوب وألوان مختلفة ، ولكنهم كانوا فى الاسلام ، وفى تعامل النبى والمسلمين معهم سواء ، لا يتفاوتون الا بالايمان والعمل ، وقد ارتفع بعضهم الى منزلة كان يتمنى بعضها كثير من سادة العرب ، كبلال الحبشى الذى كان فى الأصل عبدا ، وكسلمان الفارسى ، وكصهيب الرومى ٠

ومن المهم أن يكون واضحا أن هذه المساواة الكاملة فى الحقوق فى الاسلام ليست بين المسلمين فحسب ، وانما بين المسلمين وغيرهم من أى شعب أو لون أو دين ، ومن المشهور قصة الشاب النصرانى المصرى الذى ضربه ابن الوالى عمرو بن العاص ، فأمر عمر بن الخطاب الشاب النصرانى أن يضرب ابن الوالى المسلم قصاصا منه ، وضربه فعلا ، ثم أمره أن يضرب الوالى نفسه ، لأن ابنه احتمى بسلطانه ، فرفض الشاب المصرى النصرانى قائلا قد أخذت حقى ، وقد أقر جميع أصحاب النبى مسلك عمر ، لأنه ليس موضع خلاف فى الاسلام ٠

٢ ـ الكرامة الآدمية

يسجل القرآن الكريم أن كل آدمى على الاطلاق له كرامة ، وأن هذه الكرامة ، يستمدها من كونه آدميا فحسب ، بصرف النظر عن العنصر أو اللون أو أى وضع آخر غير الآدمية ، وأن هذه الكرامة ليست منحة من أحد ، ولا هى وليدة عوامل مكتسبة ، وانما هى حق مخلوق معه منذ خلق ، وهذا مضمون قول الله فى القرآن (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١) ، وواضح من تعبير الأية أن هذه الكرامة والمزايا ليست مكتسبة ، بحيث يكتسبها البعض ويعجز عنها بعض آخر ، وانما هى نابعة من صفة الآدمية التى يحملها كل آدمى ٠

والقرآن يحمى هذه الكرامة ، وينهى عن كل ما يمسها تصريحا أو تعريضا ، فالتصريح كالسخرية من شخص أو عنصر أو لون ، وكالتنابز

---

(١) سورة الاسراء ٧٠ ٠

والتهاجي بالألقاب الشائنة ، وبكل ما يقصد به التهوين من شأن الآخرين، والتعريض كاللمز ، والتلويح بكلام مغلف يقصد به اهانة أحـد ، ففى القرآن (يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب) (١) ومن الملحوظ تعبير القرآن بلفظ القوم ، ولفظ النساء ، بما يشمل الشعوب والأجناس ، ويتضمن احترام كل العناصر والشعوب والأجناس مهما اختلفت ألوانها أو بيئاتها ، فضـلا عن الأفراد · رجالا أو نساء ·

٣ ـ حرية العقيدة :

من الواضح فى القرآن بما لا يقبل شكا أنه يحمى مبدأ حرية العقيدة للناس جميعا مهما كانت عقيدتهم ، حيث يحفل القرآن بمعان كثيرة كلها ينصب على أن مهمة الرسل والأنبياء جميعا ومنهم محمد صلى الله عليـه وسلم تنحصر فى تبليغ رسالة الله الى الناس ، وارشادهم الى الطـريق الصحيح الى الله ، وليس من مهمتهم حمل الناس على الايمان ، لأن الايمان لا يملك غرسه أو نزعه الا الله ·

ومن المبادىء المشهورة فى القرآن (لا اكراه فى الدين) (٢) ومن المحقق أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكره أحدا قط على الدخول فى الاسلام ، بل الأبلغ من هذا أن القرآن يوضح أن النبى لا يملك هذا ، فليس من حقه أن يكره أحدا على الايمان ، ويكاد القرآن يلومه على محض التفكير فى ذلك ، وفى القرآن (ولو شاء ربك لآمـن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله) (٣) ·

ويحدد القرآن صفة الرسول ، وهى أنه يحمل رسالة من الله مثل الرسل السابقين ، وليست له صفة دينية غير هذه الصفة ، ففى القرآن قول الله سبحانه (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) (٤) ويترتب على هذا بوضوح أن الرسول حين يؤدى رسالته الى الناس فهم أحرار فى أن يقبلوها أو يرفضوها ، بل ان هذا صريح فى القرآن (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٥) ويستثنى من ذلك عدم جواز الرجوع عن الاسلام بعد الدخول فيه ، فالذى يعتنق دينا آخر أو لا يعتنق مخير وله

---

(١) سورة الحجرات ١١ ·
(٢) سورة البقرة ٢٥٦ ·
(٣) سورة يونس ٩٩ ـ ١٠٠ ·
(٤) سورة آل عمران ١٤٤ ·
(٥) سورة الكهف ٢٩ ·

كامل الحرية فى أن يعتنق الاسلام أو يرفضه ، وله أن يتـــأنى اذا أراد الدخول فيه ما شاء له التأنى ، ولكن اذا قبل الاسلام واعتنقه فلا يملك أن يرتد عنه ، لأن هذا تترتب عليه اساءة اعلامية الى الاسلام ، واضرار بأتباعه ·

وفى التطبيق العملى حقق المسلمون هـذه الحـــرية الدينية لكل الشعوب التى فتحوها أو جاوروها ، فلم يكرهوا شعبا أو جماعة عـــلى الدخول فى الاسلام مع استطاعتهم ذلك ، ولم يضـــطهدوا أحـــدا رفض الدخول فى دينهم ، كما فعل غيرهم ، ولازالت الشعوب الاسلامية أرحب الشعوب صدرا بالأقليات الدينية المخالفة لها فى الدين ، ولا شك أن هذا من بقايا تأثرهم بالتشريع الاسلامى ·

٤ ـ الأمن على النفس والعرض والمال :

من أسس الاسلام أمن الفرد على نفسه وعرضه وماله ، فلا يملك أحد ولو كان الحاكم بكل سلطانه المساس بدم أحد أو عرضه أو ماله الا اذا كان تطبيقـا للتشريـع ، ومعنى ذلـك أن يشـعر كـل فرد بالأمن على نفسه وكل ما يملك ، ومن مقتضيات النفس العرض ، فكل ما يتعلق بالانسان من نفسه وعرضه وماله حق راسخ لا يملك أحـد ، ولا تملك سلطة المساس به ، الا فى نطاق التشريع ، وذلك على الأسس الآتية :

(أ) النفس :

حرمة النفس لا تساويها فى الاسلام حرمة ، كما أن قتـــل النفس لا تساويه بعد الكفر جريمة ، بل يشير القرآن الى أن النفس البشرية رمز للآدمية كلها ، فمن قتل نفسا فكأنه انتهك حرمة البشرية كلها ، وبالعكس من ذلك من عمل على احياء نفس بالمحافظة عليها أو انقاذها فكأنه أحيا البشرية كلها ، ففى القرآن (··· من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا (١) وقد تكرر فى القرآن (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق) (٢) والقتل يعنى تطبيقا للتشريع ، وفى التشريع لا يجوز الحكم بالقتل الا فى حالات معينة هى القصاص وثبوت الزنا بعد الزواج ، والردة عن الاسلام بعد الدخول فيه اختيارا ، ومن ناحية الزنا فمن المعروف أن القيود التى وضعها الاسلام لاثباته تجعله لا يثبت الا بالاعتراف ·

---

(١) سورة المائدة ٣٢ ·

(٢) سورة الأنعام ١٥١ والاسراء ٣٣ ·

وكذلك حق الفرد فى المحافظة على نفسه فى أعضائه وسائر جسده كل ذلك حق ثابت ، وقد جعل الاسلام فى كل ذلك حق القصاص ، فى النفس أو الأعضاء ، فى أى صورة من صور التعدى على الجسد ، كاللكم باليد أو الصفع على الوجه ، بحيث يقتص المعتدى عليه من المعتدى بالصورة التى اعتدى عليه بها ، وفى القرآن (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (١) .

وهذه الحقوق ليست قاصرة على المسلمين ، بل يجعلها الاسلام حقا عاما للمسلين وغيرهم ، فمن الواضح أن هذه الأحكام وردت فى القرآن بصيغة العموم ، وكذلك كان التطبيق العملى فى الاسلام ، بحيث يكون لغير المسلمين الذين يعيشون بين المسلمين من الحقوق ما للمسلمين أنفسهم ، ومن المشهور موقف عمر بن الخطاب ثانى خلفاء المسلمين بعد النبى حين شكا اليه شاب نصرانى مصرى أن ابن عمرو بن العاص والى مصر حينئذ قد ضربه حين انتصر النصرانى على ابن عمرو فى سباق بينهما ، حيث أمر عمر بن الخطاب الشاب النصرانى أن يضرب ابن عمرو قصاصا منه ، وضربه فعلا حتى استوفى حقه ، ثم زاد عمر بن الخطاب على ذلك أن أمره بضرب عمرو بن العاص نفسه ، بناء على أن ابنه انما فعل ما فعل احتماء بسلطان أبيه ، ولكن الشاب النصرانى كانت نفسه قد امتلأت غبطة بشعوره بالمساواة بينه وبين ابن الحاكم فاكتفى بذلك ، وقد حدث هذا فى مركز تجمع أصحاب النبى فى المدينة ، وأمام أعينهم ، فأقروا جميعا هذا ، بناء على أنه هو روح التشريع الاسلامى ومنهجه .

٢ ـ العرض :

حرمة العرض مصونة فى الاسلام صونا صارما ، بحيث يشعر كل فرد بأنه آمن على عرضه لا يستطيع لسان أن يمسه بسوء ، ومفهوم العرض فى لغة العرب وعرفهم أوسع بكثير من المفهوم الذى استقر عليه العرف فى العصور المتأخرة ، فقد انحصر مفهوم العرض (بكسر العين) حاليا فيما يتعلق بأنوثة المرأة ، ولكن العرض فى العرف العربى القديم يعنى كل ما يحرص الانسان على صونه من نفسه وأخلاقه وكل ما يعد انتهاكه اهانة وقذفا ، ومن ذلك وصف الشخص بأى شىء يمس كرامته ، فهو مساس بعرضه .

---

(١) سورة الشورى ٤٠ .

فالعرض اذن يشمل كل ما يتعلق بالأنوثة ، وكل ما يتعلق بالكرامة ، والاسلام يصون للفرد الجانبين معا ، ويجعل حمايتهما حقا ثابتا له ، وذلك على الوجه الآتى :

(أ) العرض فيما يتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة جعل الاسلام الشتم به من أكبر الكبائر ، وجعل له عقوبة محددة بالغة الايلام والاهانة ويسمى فى التشريع الاسلامى القذف ، فمن قذف رجلا أو امرأة فى صورة الاتهام لها أو له بالزنا دون أن يثبت ذلك بالاثبات الشرعى فعقوبته أن يجلد ثمانين جلدة ، وأن تنزع منه العدالة وهى الثقة فيه ، فلا تقبل شهادته بعد ذلك أبدا ٠

ومن المعروف أن اثبات الزنا بالشهود فى الاسلام يكاد يكون مستحيلا من الناحية العملية ، لأنه لا يثبت الا اذا شهد أربعة شهود بأنهم رأوا الأعضاء التناسلية متداخلة بين الزانيين ، فاذا شهد الأربعه بانهم رأوهما على أى وضع غير هذا ، أو شهد أقل من أربعة بالشهادة المطلوبة كان كل ذلك من قبيل القذف ، وجلد الشهود حد القذف ، وقد حدث أن شهد أربعة فى خلافة عمر بن الخطاب بأنهم رأوا المغيرة بن شعبة والى العراق يواقع امرأة ليست زوجة له ، ولكنهم اختلفوا فى رؤية الأعضاء التناسلية منهما وفى أمور أخرى ، فحكم عليهما بالقذف ، وجلد كل منهم ثمانين جلدة ، وفى القرآن (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) (١) واذا كان الزنا لا يثبت الا بشهادة أربعة شهود فى صورة معينة ، فان اثبات القذف لا يحتاج الا الشهادة العادية ، وهى شهادة اثنين ٠

على أنه ينبغى أن نلحظ أن الاسلام فى سبيل المحافظة على الأعراض سلك طريق التشدد ، وكان من ذلك :

١ ــ أن اشتراط أربعة شهود فى الصورة المعينة المشار اليها لاثبات الزنا اشارة واضحة الى رغبة التشريع فى عدم تيسير اثبات الزنا على أحد حماية للأعراض ، وفى هذا السياق نجد فى القرآن (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة) (٢) وفى مقابل هذا جعل التشريع الاسلامى اثبات القذف يسلك الطريق العادية وهى الاكتفاء بشهادة شاهدين ، فاذا شهد اثنان على شخص بأنه قذف رجلا أو امرأة فى صورة اتهام بالزنا استحق هذا الشخص حد القذف ، وهو ثمانون جلدة ٠

---

(١) سورة النور ٤ ٠

(٢) سورة النور ١٩ ٠

٢ ـ مما ينبغى لحظه أن الاسلام جعل عقوبة القذف حدا وليست قصاصا ، والفرق بينهما أن القصاص حق (مدنى) يملك المجنى عليه أن يعفو فيه عن الجانى ، ولكن الحدود حق الله ، وهو ما يعبر عنه بالحق (الجنائى) فلا يملك أحد اسقاط العقوبة اذا ثبتت الجريمة ، ومن ثم لا يملك المقذوف فى حقه أن يعفو عن القاذف اذا ثبتت جريمة القذف ، وهذا أقصى ما يتصور من حماية للعرض ٠

ومؤدى هذا أن يعيش أفراد المجتمع آمنين على حرمة أعراضهم ، فلا يستطيع لسان أن يتحرك بالمساس بها ، لأن اللسان الذى يتحرك حينئذ تنتظر صاحبه عقوبة صارمة ليس فيها شفيع ولا تخفيف ٠

(ب) : العرض فى معناه العام الذى يمثل الكرامة وما يتصل بها يحميه الاسلام من عدة وجوه ، فهو يعلى من شأن الكرامة الآدمية (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (١) فكل مساس بهذه الكرامة اجتراء على خلق الله واصطدام بمشيئته ، وفى القرآن حماية للكرامة الآدمية من كل ما يسىء اليها ، فليس من حق آدمى مهما كان له مزايا أو تفوق أن يهين غيره ممن يفقد هذه المزايا ، لأن الآدمية وحدها تسوى بين الناس فى الاسلام ، ومن هذا القبيل فى القرآن (لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب) (٢) ٠

ومن حق أى شخص يعتدى عليه بما يمس كرامته الآدمية من شتم أو اهانة أن يرفع أمره الى القضاء فيحكم له ، وتقدر العقوبة بمقدار ما أصابه من اساءة اليه ، ، ولكن التشريع الاسلامى لا يعقل أن يحدد عقوبة معينة فى هذا المجال ، لاختلاف أنواع الاساءة وتفاوتها ، بخلاف القذف بالزنا ، فانه اساءة محددة واضحة لا تفاوت فيها ٠

أما اذا وصل المساس بالعرض الى درجة التشهير باستخدام وسائل الاعلام فان الجريمة حينئذ تكون أكبر ، ومن ثم تكون العقوبة أشد ، وقد كانت أشهر وسائل الاعلام فى صدر التشريع الاسلامى الشعر ، الذى يماثل الصحافة اليوم ، والهجاء بالشعر يمثل تشهيرا بالمجهو ، وأول قضية فردية أثيرت من هذا القبيل للقضاء فيها كانت قضية الزبرقان ابن بدر أحد زعماء قبيلة بنى تميم ، حين اشتكى الى عمر بن الخطاب أن الشاعر الحطيئة هجاه بما يسىء الى كرامته ويحط من منزلته بوصفه زعيما ، وحين شهد حسان بن ثابت بصفته خبيرا فى الشعر بأن شعر

---

(١) سورة الاسراء ٧٠ ٠ (٢) سورة الحجرات ١١ ٠

الحطيئة تضمن اساءة الى الزبرقان ، حبس عمر الحطيئة ، وهدده بقطع لسانه ، من حيث ان اللسان هو أداة العدوان حينئذ ، وظل الحطيئة فى السجن ينتظر قطع لسانه ، ولكن عمر تركه وأطلقه بعد أن استوثق منه أنه لن يهجو أحدا بعد ذلك · وكان هذا الاتجاه الى قطع لسان الحطيئة على مرأى ومسمع من أصحاب النبى ، فأقروه ، ولم ينكر أحد منهم ذلك ، وصارت هذه عقوبة يحكم بها فى التشهير عن طريق الهجاء بالشعر ، وقد حكم بها معاوية بن أبى سفيان على الشاعر الأخطل ، حين شكا اليه النعمان بن بشير الأنصارى أن الأخطل هجا الأنصار بشعر قال فيه (واللؤم تحت عمائم الأنصار) وقد استهل النعمان شكواه بأن رفع عمامته وسأله : أترى تحت هذه العمامة لؤما ؟ قال معاوية : بل أرى كرما وخيرا · فعرض النعمان شكواه ، فحكم له معاوية بلسان الأخطل يقطعه اذا شاء ، وكان هذا أيضا بين أصحاب النبى فلم ينكره أحد منهم ، واذا كانت قضية الزبرقان فردية تضمنت اساءة الى شخصه فحسب فان قضية النعمان جماعية تضمنت اساءة الى الأنصار جميعا ، والنعمان واحد منهم ، ومعنى هذا الحرص على كرامة الفرد ، سواء أكانت الاساءة اليه بطريق مباشر أم غير مباشر ·

فالاساءة اذن اذا ما وصلت الى درجة التشهير بأى وسيلة اعلامية تصبح فى الاسلام من كبريات الجرائم ، حتى وصلت عقوبتها الى قطع اللسان الذى هو أداة العدوان · وهى عقوبة من باب التعزير الذى يحدده ولى الأمر أو القاضى حسب مقتضيات الأحوال ·

ومن نظرة الاسلام الى خطورة التشهير أن النبى صلى الله عليه وسلم مع شهرته بالعفو والتسامح الشديد الا أنه وصل به الغضب على الذين استخدموا وسائل الاعلام ضد الدين نفسه الى درجة الأمر بقتلهم ، ومن أمثلة ذلك أنه حين فتح مكة عفا عن كل أعدائه رغم كل ما فعلوه ضد الاسلام وضده ، الا نفرا معينين أمر بقتلهم ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة ، وكانوا ممن استخدموا التشهير ضد الاسلام ، فكان منهم شعراء، وكانت منهم جارية مغنية ، كانت تغنى بغناء يهاجم الاسلام ، وهذا الغناء يتناقله الناس فى قبائلهم ·

ومن هذا كله يتبين مدى حرص الاسلام على حماية الأعراض وجعلها حقا يعاقب من ينتهكه أو يمسه بسوء ·

المال :

حماية الملكية من الحقوق الراسخة فى الاسلام ، وكل ما ينبه الاسلام الى مراعاته أن يكون المال من مصدر مشروع ، وما دام مصدر

الملكية مشروعا فالاسلام يحمى هذه الملكية مهما بلغت ، ولا يبيح المساس بها الا فى نطاق التشريع ، والتشريع الاسلامى يجعل فى المال حقوقا يجب على المالك أن يؤديها ، ومن أوضح هذه الحقوق :

١ ـ الزكاة :

حيث جعل الاسلام للزكاة نصابا محددا اذا بلغ المال قدرا معينا ، سواء فى المال النقدى أو الزرع والثمار ، أو التجارة ، أو الماشية ، أو ما يستخرج من باطن الأرض كما فى المناجم والنفط ، مما هو مفصل فى الفقه الاسلامى فيما سبق حديثه ، وفى القرآن (والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم) (١) ويتردد فى القرآن كثيرا الأمر بايتاء الزكاة ، والزكاة حق الله يؤدى فى وجوه محددة سبق حديثها ·

٢ ـ (الحقوق الخاصة)

ولبعض الناس حقوق يجب على المالك أن يؤديها ، كالوفاء بالديون، وفى القرآن (اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) (٢) ثم عن الوفاء بالديون يقول سبحانه (فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه) (٣) وكالانفاق على الزوجة ، فان من حقوقها على الزوج أن ينفق عليها ولو كانت غنية ، حسب مقدرته المالية ، ومن القرآن فى سياق الحديث عن حقوق الزوجة (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) (٤) وكالانفاق على الوالدين اذا كانا محتاجين ، فالانفاق من المال فى هذه الحالات واجب على المالك ، وليس اختيارا ، واذا رفع الأمر الى القضاء يلزمه الحكم بالانفاق ·

٣ ـ الحقوق العامة :

اذا اقتضت ظروف المجتمع أو الأمة ضرورة الحاجة الى المال فمن حق الحاكم أن يفرض قدرا معينا يؤخذ من أصحاب الأموال ، وذلك بشرطين :

الشرط اول أن يكون ما يفرضه الحاكم بمقدار ما تقتضيه المصلحة العامة ، فالموقف حينئذ ضرورة ، ومن قواعد التشريع الاسلامى أن الرخص فى حاله الضرورة تقدر بمقدار الضرورة ، وتلغى فور زوال الضرورة ، وبحيث لا تكون للحاكم ولا لغيره مصلحة خاصة فيما يفرض ، ولا يتحقق

---

(١) سورة المعارج ٢٤ ·
(٢) سورة البقرة ٢٨٢ ·
(٣) سورة البقرة ٢٨٣ ·
(٤) سورة الطلاق ٧ ·

هذا فى مجال التطبيق الا فى صورة تشريع عام ، ينبع من المصلحة العامة ، ويتقيد بقيودها ٠

والشرط الثانى العدل ، الذى يتمثل فى ألا يكون هناك اجحاف أو قسوة على صاحب المال ، وأن تتحقق المساواة بين الجميع فى الأخذ بمقياس واحد ، بحيث لا توجد تفرقة فى الأخذ من شخصين متساويين فى وضعهما ٠

وفيما عدا هذه الحقوق المشروعة فان الاسلام يصون حق الملكية ، وحق الأمن عليها من أى عدوان ، حتى انه فرض عقوبة صارمة لمن تمتد يده بالسرقة الى مال غيره ، هى قطع هذه اليد ، وجعل هذه العقوبة من باب الحدود وليس من باب القصاص ، ويترتب على ذلك أنه حين تثبت السرقة على شخص يجب تنفيذ العقوبة فيه ، لأن الحدود حق الله ولا يملك أحد العفو فيها ، ولو عفا المسروق منه عن السارق فلا قيمة لعفوه ، لأن العفو انما يؤخذ به فى القصاص ، لأن القصاص حق لصاحبه وليس حقا لله ، أما السرقة فيراعى فيها أمن المجتمع ، وأمن المجتمع حق عام وليس فرديا ، وهو ما يوصف بأنه حق الله ٠

وفى هذا التشديد فى عقوبة السرقة ، وفى تنفيذها ترسيخ لحق الناس فى الأمن على أموالهم ، بل ان القرآن يشير الى أن الحق المشروع فى الاسلام هو الذى يبيح أخذ المال من صاحبه ، وأن السلطة سواء تمثلت فى قضاء أو فى سلطان حاكم لا تملك من الناحية الدينية أن تبيح ذلك ، وفى القرآن (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) (١) ومضمون ذلك أن من يعلم أن هذا المال ليس حقا له فلا يحل له أن يأخذه مهما حكم له القضاء ، أو حكم له حاكم ، ومعنى هذا أن حق الملكية فى الاسلام أقوى من حيث المبدأ من سلطة القضاء ، ومن سلطة الحاكم ٠

واذن فمن الحقوق الثابتة الواضحة فى الاسلام أمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، فلا يملك أحد ولو كان صاحب سلطة المساس بشىء من هذه الحقوق الا فى نطاق التشريع الاسلامى ٠

وهذا الأمن كان من أوائل أهداف الاسلام ، فقد كان من أوائل ما بشر به النبى فى مكة والمسلمون مازالوا أفرادا قليلين ضعفاء قوله عن الاسلام (والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت لا يخاف الا الله) يعنى أن الاسلام سيتم وسيحقق للناس الأمن على أنفسهم وأموالهم ٠

---

(١) سورة البقرة ١٨٨ ٠

ويبلغ الاسلام بتمكين الانسان من حقه في الأمن على نفسه وعرضه وماله أن يجعل من حقه أن يقاتل دفاعا عن هذه الحقوق ، واذا مات فى حالة الدفاع مات شهيدًا ، وفى الحديث النبوى (أن رجلا جاء الى النبى فقال يا رسول الله أرأيت ان جاء رجل يريد أن يأخذ مالى ؟ قال فلا تعطه مالك ، قال أرأيت ان قاتلنى ؟ قال : قاتله ، قال أرأيت ان قتلنى ؟ قال : فأنت شهيد ، قال أرأيت ان قتلته ؟ قال هو فى النار) وفى حديث نبوى آخر فى الدفاع عن العرض (من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد) وكذلك فى الدفاع عن النفس جاء الحديث النبوى (من قتل دون سيفه فهو شهيد) واذا كان الموت دفاعا عن السلاح شهادة فالموت دفاعا عن النفس من باب أولى ·

وموت الشهادة فى سبيل الله نوعان :

١ ــ شهيد فى سبيل الله أو شهيد الآخرة وهو من يموت فى سبيل اعلاء كلمة الله فى أى موقف أو مناسبة ولو فى غير حرب ، دون أن يكون له فى هذا هدف شخصى ، وهذا النوع له منزلة عليا عند الله ، حيث جعل لهم فى القرآن درجة خاصة ليس بينها وبين الأنبياء الا مرتبة واحدة ، حيث يقول (··· الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) (١) وجعل لهم حياة خاصة تختلف عن حياة سائر الموتى فى الآخرة ، حيث يقول (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله) (٢) فان كان له هدف شخصى أو مصلحة خاصة فلا يعد شهيدا ·

٢ ــ شهيد الدنيا ، وهو من يقتل فى موقف مشروع ، أو يموت فى حالة ألم ومعاناة شديدة كالموت فى حريق أو غرق أو هدم ، أو يموت دفاعا عن حق ، كالموت دفاعا عن عرض أو مال أو نفس ، ويسمى أيضا شهيد الآخرة ، بمعنى أنه يموت والله راض عنه ، لأن المعاناة عند الموت نوع من تكفير الذنوب ، والدفاع عن الحقوق نوع من العزة والقوة ، وهما من صفات المؤمنين ، ففى القرآن (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) (٣) وفى الحديث النبوى (المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف) والاسلام يدعو دائما الى التسامح والعفو ، ولكن هذا لا يكون فضيلة الا اذا كان العافى فى موضع قوة فيما يعرف بالعفو عند المقدرة ، فان كان فى موضع ضعف أو ذل فان الفضيلة حينئذ تقتضى أن يأخذ حقه وينتصف لنفسه ، ولذلك كان من خلق المؤمنين فى القرآن (والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون) (٤) ، وكل هذا تأكيد لحقوق الانسان ، ولمشروعية دفاعه عنها ·

---

(١) سورة النساء ٦٩ ·
(٢) سورة آل عمران ١٦٨ ــ ١٦٩ ·
(٣) سورة المنافقون ٨ ·
(٤) سورة الشورى ٣٩ ·

٥ ـ المشاركة فى الأمور العامة :

يجعل الإسلام لكل فرد حق المشاركة فى الأمور العامة ، لأن الامر اذا كان خاصا فهو من شأن أصحابه الذين يخصهم ، اما اذا كان عاما فان تعبير العموم نفسه يوحى بأن كل فرد بصفة عامة يعنيه هذا الأمر ، وبالتالى من حقه أن يشارك فيه ٠

والاسلام يجعل كل الأمور التى يديرها صاحب السلطة أمورا عامه ، كما يجعل السلطة نفسها من الأمور العامة ، ويجعل لكل فرد الحق فى المشاركة فى الأمور العامة ، والقرآن يجعل لفظ (الأمر) رمزا للسلطة ، وذلك فى سياق الأمر بطاعة ولى الأمر صاحب السلطة ، حيث يقول (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) (١) فالمقصود بأولى الأمر أولو السلطة ، ولكنه يقيد صاحب السلطة بتعبير (منكم) وهو يخاطب (الذين آمنوا) بمعنى أن طاعته انما تكون حيث يكون على نهج (الذين آمنوا) حتى يكون منهم ، ونهج الذين آمنوا هو شريعة الله ، وقد عبر أبو بكر الصديق عن هذا المعنى فى أول خطبة له عندما تولى الخلافة حيث قال (أطيعونى ما أطعت الله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم) ٠

والاسلام جعل تعبير (الأمر) أيضا للشئون العامة ، وذلك فى سياق تكليف صاحب السلطة أن يلتزم الشورى ، بأن تكون كل الشئون العامة عن طريق الشورى ، وفى القرآن (وشاورهم فى الأمر) (٢) وقد وجه القرآن هذا التكليف الى النبى نفسه ليكون أى صاحب سلطة بعده من باب أولى فى هذا التكليف ، فان النبى من الناحية النظرية لا يحتاج الى مشورة أحد ، لأنه بحكم كونه نبيا معصوم من الخطأ ، وهو متصل بالوحى يرشده اذا احتاج الى ارشاد ، وفى القرآن فيما يتعلق بعصمته من الخطأ (ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى) (٣) فكان المفروض نظريا ألا يستشير أحدا ، ولكن القرآن لا يشرع لجيل أو زمان معين ، وانما يضع تشريعا عاما لكل الأزمنة والأمكنة الى يوم القيامة ، فالنبى من ناحية السلطة رمز لكل صاحب سلطة يأتى بعده ، وتكليفه أن يلتزم الشورى هو تكليف لكل صاحب سلطة بعده من باب أولى ٠

ويجعل القرآن التزام الشورى صفة مرتبطة بالايمان ، حيث يضع الشورى بين أنواع من العبادات الجوهرية التى يختل الايمان بدون معظمها.

---

(١) سورة النساء ٥٩ ٠ (٢) سورة آل عمران ١٥٩ ٠

(٣) سورة النجم ٢ ـ ٣٠

ويوصف المؤمن بالعصيان والاثم حينئذ ، كقول الله سبحانه (وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) (١) وهذا يعنى أن القرآن يجعل الشورى سلوكا مرتبطا بالايمان ونابعا منه ، وليست أمرا اختياريا يدخل فى نطاق الأمور المباحة .

واذا اجتمع الأمران السابقان معا فان دلالتهما تتضمن أن الله يأمر صاحب السلطة أن يلتزم الشورى ، كما يوجه عامة الناس أيضا الى التمسك بالشورى ، وهذا أقصى ما يناله أمر عام من اهتمام ، ويضاف الى هذا أن الشورى اسم لسورة مستقلة فى القرآن هى سورة الشورى ، وفى هذا ما يجعل الشورى عنوانا بارزا أمام كل مسلم .

وفيما يتعلق بسياق الحديث وهو حقوق الانسان بوصفه فردا ، فان النتيجة المستنبطة من الآية الأخيرة تعنى أن مشاركة الفرد فى الأمور العامة بصورة الشورى يعطيها الاسلام درجة فوق درجة الحق المكتسب ، وهى درجةالتكليف ، بمعنى أن الشورى - بمعنى المشاركة فى الأمور العامة بالرأى - يجعلها الاسلام تكليفا وليس محض حق يملك الفرد أن يزاوله أو لايزاوله ، حيث يأمر صاحب السلطة أن يلتزم الشورى (وشاورهم فى الأمر) وكذلك يجعل التزام الشورى ومزاولتها بين سائر الناس جزءا من هيكل لا يكتمل الأيمان الا به ، كما سبق من صفات المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) .

٦ - المرأة :

لا يفرق الاسلام فى الأمور العامة من حيث الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة ، فالأصل فى التشريع المساواة بينهما ، وكل ما بينهما من تفرقة انما يأتى من مراعاة طبيعة كل منهما ، ويتضح فى هذه المراعاة طابع الرحمة بالمرأة ، ففى كل الأحكام الخاصة بالمرأة يتضح جانب الرحمة بها .

والواجبات العامة ، كالعبادات ، فى الصلاة والصوم والزكاة والحج، موجهة الى الرجل والمرأة معا ، ثم تراعى أحيانا طبيعة المرأة بصفة استثنائية ، كصلاة الجمعة ، واجبة بصريح القرآن (يأيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع) (٢) ولكن

---

(١) سورة الشورى ٣٦ - ٣٨ . (٢) سورة الجمعة ٩ .

المرأة تعفى من هذا الوجوب ، تحاشيا للزحام ، ولارتباطها بشئون بيتها ، ونحو ذلك ، ومع ذلك يصبح الأمر اختياريا بالقياس اليها ، فاذا استطاعت الحضور بدون مشقة فلها أن تؤديها ، والا اعفيت منها ٠

وفى كل الأمور التى لا تناسبها طبيعة المرأة ، أو تختلف فيها عن الرجل ، يختلف التشريع تبعا لذلك ، ولكنها أمور محددة فى التشريع الاسلامى تأخذ طابع الاستثناء الطارىء ، ولا تخل بالأصل ، وهو المساواة بين الرجل والمرأة ٠

وكذلك فى الحقوق العامة ، فالثواب والعقاب فى الآخرة ليس فيه تفرقة بين الرجل والمرأة ، وكذلك فى كل الحقوق ، الا ما يراعى فيه أيضا وضع المرأة وظروفها ، كالميراث ، فان الاسلام يجعل للمرأة نصف نصيب الرجل فى الميراث ، وفى مقابل هذا يوجب على الرجل الانفاق على الأسرة ، وعلى المرأة بصفة أخص ، فان كانت ابنة فنفقتها واجبة على أبيها حتى تتزوج ، وان كانت زوجة فنفقتها واجبة على زوجها وان كانت غنية ، فقد أعفاها الاسلام من أعباء المعيشة ، وفى نظير هـــذا كان لها نصف نصيب الرجل فى الميراث ٠

وفى ادارة الأسرة يجعل الاسلام للرجل ولاية على المـرأة ، ليس بهدف الرئاسة ، ولكن بهدف تحقيق حسن الادارة ، ومن المعروف أن الرجل أكفأ فى الادارة من المرأة ، والأسرة كأى تجمع بشرى لا بد له من مدير أو مسئول ، فكان الرجل هو المدير المسئول ، وفى مقابل هذا حمله الاسلام مسئوليات ضخمة ، أوضحها وجوب الانفاق على الاسرة ، وعلى الزوجة بالذات ، مهما كان لديها من غنى ، ويبرز القرآن السببين السابقين فى اسناد الولاية والادارة للرجل فى قولـه تعـالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضـهم على بعض وبما أنفقـوا من أموالهم) (١) فالسبب الأول هو الأفضلية ومن أبرزها كفاية الرجل فى الادارة ، والسبب الثانى تحمل عبء الانفاق على الأسرة ٠

ويتضح فى القرآن بصفة عامة عدم التفرقة بين الرجل والمرأة ، بل تتضح المساواة بينهما فى الوضع العام ، ومن ذلك (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (٢) وكذلك قوله تعالى (ان المســلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقـانتات والصـــادقين والصـــادقات

---

(١) سورة النساء ٣١ ٠ (٢) سورة النحل ٩٧ ٠

والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) (١) وأيضا عن الواجبات العامة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) (٢) ومن كل هذا يتضح أن الاسلام يساوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات ، وفى أصول التشريع بصفة عامة ٠

(١) سورة الأحزاب ٣٦ ٠

(٢) سورة الاحزاب ٣٧ ٠

الأمور المحرمة

الأمور المحرمة فى الاسلام واضحة معلومة ، كما فى الحديث النبوى (الحلال بين والحرام بين) حيث حددت الشريعة الاسلامية حكم كل ما يعرض فى حياة الناس من الأمور الأساسية ، وفضلا عن ذلك فان الله أودع فى النفوس الاحساس بالخير ، والاحساس بالشر ، حيث يشعر مرتكب الشر بوخز ضميره أو احساس واضح فى نفسه على الأقل بأن ما فعله شر ، وفى مقابل هذا يجد الانسان السوى راحة نفسية لعمل الخير ، أو على الأقل يجد شعورا واضحا بأن ما فعله خير ، وفى الحديث الشريف (البر ما اطمأنت اليه النفس ، والاثم ما حاك فى الصدر) ٠

والقرآن الكريم حدد كل المحرمات الأساسية ،اما بلفظ التحريم ، مثل (انما حرم عليكم الميته والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) (١) والذى أهل به لغير الله هو ما ذبح قربانا لأى معبود غير الله ، ومثل (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ٠ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا الا وسعها واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (٢) وكقوله تعالى أيضا (وأحل الله البيع وحرم الربا) (٣) ٠

واما بأسلوب النهى والتحذير مثل (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (٤) والميسر

---

(١) سورة البقرة ١٧٣ ٠
(٢) سورة الأنعام ١٥١ ـ ١٥٢ ٠
(٣) سورة البقرة ٢٧٥ ٠
(٤) سورة المائدة ٩٠ ٠

لعب القمار ، والأنصاب الأصنام ، والأزلام القداح التى يضربونها للتطير فتخرج فألا حسنا ، أو شؤما ، وكان من عادتهم اذا عزم أحدهم على أمر مهم ضرب قداحا فاذا خرجت على وجه معين معروف لديهم تفاءل ومضى فى أمره ، واذا خرجت على وجه آخر تشاءم وانصرف عن هذا الأمر ، فبين الله لهم أن هذا من عمل الشيطان ٠

وفى الأحاديث النبوية تفصيل لكل المحرمات ، ولدرجة كثير منها فى التحريم ، وبعض المحرمات توصف بأنها كبائر ، ومن ذلك فى الأحاديث النبوية قوله صلى الله عليه وسلم (ألا أخبركم بأكبر الكبائر ، الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور) ومن الكبائر ما وصف بالموبقات ، وفى الحديث النبوى (اجتنبوا السبع الموبقات ، الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها الا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) وبشىء من التفصيل نجد من المحرمات الجوهرية فى الاسلام ما يلى :

فى الدين :

أشد المحرمات وأخطرها على الاطلاق الشرك بالله ، لأنه يخرج صاحبه من دائرة الايمان ، ويجعله عدوا لله ولرسله جميعا وللمؤنين ، وبهذا يكون قد هدم العقيدة التى هى أساس الصلة بالله ، والتى لا عذر ولا مغفرة على الاطلاق فى الاخلال بها ، أما اذا صحت العقيدة فان كل ما دونها أمره أيسر ، وفى القرآن الكريم (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١) والشرك اهانة للنفس واهانة للعقل معا ، اهانة للنفس لأن الكرامة الآدمية تقتضى ألا يسلم الانسان قياده كله فى صورة العبادة الا لله ، فهو وحده سبحانه الذى تنعدم الحرية فى الصلة به ، فاشراك أحد أو شىء معه فى العبادة سلب خاطىء للحرية فى أخطر مواطنها وهى العقيدة وما يترتب عليها ، وهو اهانة للعقل ، لأن العقل السليم يوجب أن الخالق لكل شىء هو الله ، وجميع من عداه مخلوقون متساوون فى أنهم خلق من خلق الله ، والذى يعبد أى شىء غير الله معناه أنه عبد مخلوقا مثله ، فأسلم قياده ومحا حريته وكيانه المعنوى فى الصلة به ، ولذلك يصف القرآن الشرك بأنه ظلم عظيم للنفس ، لأنه قمة الاهانة لها ، ففى القرآن قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) (٢) ٠

---

(١) سورة النساء ٤٨ ، ١١٦ ٠ (٢) سورة لقمان ١٣ ٠

فى المجتمع :

أبرز كبائر المحرمات فى العلاقات الاجتماعية أمران :

١ ـ عقوق الوالدين :

فالواقع أن عقوق شخص لوالديه لا ينظر اليه فى الناحية الخلقية من زاوية جزئيه ، كاساءة شخص الى شخص ، أو ارتكاب معصية معينة ، وانما هو مقياس عام للخلق والوفاء ، فالذى يجحد فضل والديه ، ويتجاهل حقوقهما التى لا تحصى لا ينتظر منه قط وفاء لغيرهما ، ولا مراعاة لأى حق من الحقوق ، ومعنى ذلك أن الأساس والمنبع الخلقى لديه مختل ، فالفرق بين الاساءة الى الوالدين والاساءة الى غيرهما كالفرق بين الكفر بالله ومعصية الله ، فالكفر بالله يتضمن اختلال أساس العقيدة ، أما معصية الله فهى اخلال بما يترتب على العقيدة ، فان الايمان بالله تترتب عليه طاعة الله ، والفرق كبير بن الأصل والفرع ، وكذلك عقوق الوالدين يتضمن أن أساس الخلق ومنبعه لدى العاق لوالديه مختل ، بخلاف الاساءة الى غيرهما فانها كالفرع وليس الأصل ٠

ومن خطورة عقوق الوالدين نجد أنه يأتى دائما فى القرآن ، وفى الأحاديث النبوية تاليا للشرك بالله ، كما فى الحديث السابق ، ومن ذلك (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا) (١) ، ومن تعليل ذلك أنه لا يشارك الله سبحانه فى صفة الانعام الا الوالدان ، فالله ينعم ولا ينتظر من عباده مقابلا ، والناس جميعا حين ينعمون ينتظرون المقابل الا الوالدين ، فهما فى ذلك ينفردان بصفة من صفات الله ٠

٢ ـ قتل النفس :

وأيضا قتل النفس لا ينظر اليه على أنه جريمة اعتداء على الغير فحسب ، وانما ينظر اليه على أنه انتهاك لحرمة البشر كلها ، فالشخص الآدمى هو فرد آدمى من ناحية ، ولكنه من ناحية أخرى رمز للآدمية كلها ، فالاعتداء على عضو من أعضائه ، أو على شىء يملكه هو من قبيل الاعتداء على شخصه ، أى من ناحية كونه فردا آدميا ، أما قتله فهو اعتداء عليه من ناحية كونه رمزا للآدمية من حيث هى ، لأن قتله اعدام ومحو لشخصه فهو لم يعد يوصف بأنه شخص اعتدى عليه ، لأن شخصه انعدم ، وهذا المحو لشخصه هو المساس بجنس الآدمية ٠

---

(١) سورة النساء ٣٦ ٠

والقرآن يشير الى أن هذه النظرة ليست خاصة بالاسلام ، وانما هى نظرة انسانية عامة ، وأن الله أمر بنى اسرائيل بمراعاتها ، ففى القرآن الكريم (... من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) (١) .

ولذلك يجعل الاسلام قتل النفس أكبر جريمة بعد الكفر ، فلا يجوز قتل نفس الا بما يقتضيه التشريع ، وهى حالات ثلاث لولى الأمر قتل النفس فيها ،القصاص ، والزنا بعد احصان أى بعد زواج ، والاصرار على الردة عن الاسلام ، ولم يقرن عقوبات متعددة بجريمة كما قرن بالقتل ، حيث يقول سبحانه (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (٢) فالعقاب جهنم ، مع الخلود فيها ، ومع ذلك غضب الله ، ولعنته ، وعذاب موصوف بأنه عظيم ، وهذا العذاب غير محدد الزمن ولا النوع ، فقد يكون فى الدنيا أو فى الآخرة ، وقد يكون عذابا نفسيا أو بدنيا أو غير ذلك .

فى المعيشة :

فيما يتعلق بالحياة المعيشية حرم الاسلام أشياء من المأكل والمشرب والملبس ، وأهمها :

فى الطعام :

يحرم الاسلام من المأكولات أشياء ورد ذكرها فى القرآن ، وفى الحديث الشريف ، ففى القرآن (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله) وفى الحديث النبوى أن النبى صلى الله عليه وسلم (نهى عن أكل كل ذى ناب من السباع) ومن هذا يتبين أن ما حرمه الاسلام من المأكولات :

١ ـ الميتة : يحرم الاسلام أكلها لأن الاسلام لا يحل أكل الحيوان الا بالذبح أو ما فى حكمه ، فالذبح اسالة دم الحيوان عن طريق قطع عروق عنقه بآلة حادة ، وهى عروق أربعة ، مجرى الطعام والشراب ، ومجرى التنفس ، وعرقان حولهما يضخان الدم ، ويسميان الودجان ، ويكفى قطع أغلب هذه العروق ، سواء أكان القطع فى أعلى العنق ويسمى ذبحا ، أم فى أسفله فى اللبة ويسمى نحرا ، وما فى حكم الذبح هو اسالة الدم من

---

(١) سورة المائدة ٣٢ .

(٢) سورة النساء ٩٣ .

أى موضع فى الحيوان عند عدم التمكن من ذبحه ، كالصيد ، يكفى أن يصيبه الصائد ولو عن بعد بأى اصابة قاتلة فى أى موضع بحيث يسيل منه دم ، فاذا مات من هذه الاصابة حل أكله ٠

أما الحيوان الذى يموت بدون هاتين الوسيلتين فلا يحل أكله ، وقد عدد القرآن أنواعا من الميته بوسائل مختلفة لا يجوز أكل شىء منها ، ففى القرآن (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب) (١) والمنخنقة هى التى ماتت مخنوقة أو مختنقة بأى سبب من أسباب الخنق أو الاختناق ، والموقوذة هى التى ماتت بسبب الضرب بعضا أو غيرها ، والمتردية هى التى ماتت بسبب سقوطها من مكان مرتفع ، والنطيحة هى التى ماتت بسبب افتراس وحش اياها ، وتعبير (الا ماذكيتم) يتضمن أن المانع من أكل الأنواع السابقة موتها بهـذه الأسباب ، فاذا بقيت فيها درجة كبيرة من الحياة يمكن معها ذبحها وذبحت جاز أكلها ، فاذا سقطت مثلا بهيمة من مرتفع وبقيت فيها حياة بدرجة قوية فذبحت جاز أكلها ، فان لم يبق فيها من الحياة الا مقدار احتضار الموت لا يجوز أكلها لأنها فى حكم الميتة ٠

٢ ـ الدم : لا يجوز أكله أو شربه فى أى صورة الا ما يتبقى من الدم فى لحم الذبيحة ، والدم يعد من الأشياء النجسة ، ككل الفضلات التى تخرج من الانسان والحيوان كالبول والبراز ، واذا خالطت هذه الأشياء شيئا آخر كالماء أو الطعام أصبح نجسا ، واذا أصابت جسد الانسان أو ثوبه لا تصح صلاته الا اذا غسلها ، ما عدا الأشياء القليلة ، التى تقدر فى حجمها بما دون باطن الكف ، فهى معفو عنها رغم الحكم بنجاستها من باب التيسير على الناس ، وهذا التيسير جعل الفقهاء يحكمون بالتجاوز عن فضلات الحيوانات المأكولة كالبقر والغنم اذا أصابت الثوب حتى تبلغ ربع الثوب ، مراعاة لكثرة مخالطة العمال للماشية فى بيئات الرعى والزراعة ، ولكن هذا العفو لا يسرى على مخالطة الشراب والطعام ، فاذا خالط شىء من هذه الأشياء مهما قل مشروبا أو مطعوما صار كله نجسا لا يجوز شربه أو أكله ٠

٣ ـ لحم الخنزير : حرمه الاسلام تحريما قاطعا لا استثناء فيه ، وبهذا أصبح من باب الأشياء النجسة ، بمعنى أنه فضلا عن تحريم أكله ، فانه اذا خالط غيره أصبح الكل محرما ونجسا ، فاذا وضعت قطعة من لحم الخنزير لتطهى فى قدر مليئة بلحم آخر أصبح كل ما فى القدر محرما ونجسا ٠

---

(١) سورة المائدة ٣ ٠

٤ ــ ما أهل به لغير الله : فالاسلام يشترط لتكون الذبيحة حلالا أن يذكر اسم الله عليها عند الذبح حقيقة أو حكما ، فذكره حقيقة أن يتلفظ الذابح باسم الله عند الذبح بأى صيغة ، والأفضل أن يقول (باسم الله ، الله أكبر) ، وذكره حكما أن ينسى أو يجهل هذا الحكم ، ففى كل هذا يحل أكل الذبيحة ، فاذا تعمد عدم ذكر الله لا يجوز أكلها ٠

أما اذا قصد بالذبيحة أحدا أو شيئا غير الله ، كالذى يذبح قربانا وتعظيما للأصنام ، أو لأى أحد أو شىء غير الله ، ومن هذا تتبين خطورة ما يذبح قربانا لبعض الأضرحة دون أن يقصد به وجه الله ، وما يشيع فى عادات بعض البيئات من أنه اذا قدم زائر عظيم الشأن ذبحوا فى طريقه الذبائح تعظيما له ، فكل هذا مما (أهل به لغير الله) وهو محرم أكله بصريح القرآن ، وهو المقصود بقوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) (١) والفسق فى اللغة الخروج عن شىء ، والتقرب الى غير الله بهذه الصورة خروج عن عبادة الله وحده باشراك غيره ، والنية هى المحور الأصلى فى تحديد هذا المعنى ٠

ومن هذا يتبين أنه لا يجوز أكل ما يذبحه شخص لا يدين بدين سماوى ، فالمسلمون والنصارى واليهود يفترض فى كل منهم أنه يؤمن بالله ، وبالتالى يجوز لنا أكل ما يذبحونه ، دون أن نسأل : هل سموا عليها ؟ أما غيرهم من أى مذهب وثنى أو الحادى فلا يجوز أكل ذبائحهم ٠

٥ ــ السباع والجوارح : حيث لا يجوز فى الاسلام أكل السباع الوحشية من الحيوان ، ولا الجوارح من الطير ، فالسباع الوحشية كل ذى ناب مفترس من الحيوان ، وهى أكلة اللحوم كالأسد والذئب والضبع والكلب والثعلب ، وكذلك كل ذى مخلب مفترس من الطير ، وهى أيضا آكلة اللحوم ، كالصقر والحدأة ، فكل ذلك لا يجوز أكله ، كما ورد فى الحديث الشريف من النهى عن أكل كل ذى ناب من السباع ، ويقاس عليه كل ذى مخلب مفترس من الطير ٠

فى الشراب (الخمر)

يحرم الاسلام الخمر تحريما قاطعا ، وقد جعل لشربها عقوبة شديدة ، هى الجلد ثمانين جلدة ، وجعل هذه العقوبة حدا وليس تعزيرا ، والحد حق الله ، ولا يملك أحد العفو فيه ، أما التعزيز فهو حق المجتمع ، ويملك ولى الأمر العفو فيه بصفته نائبا عن المجتمع اذا رأى ذلك مصلحة ٠

---

(١) سورة الأنعام ١٢١ ٠

وفى القرآن عن تحريم الخمر (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) (١) فمن التشديد فى تحريمها أن قرنها بالأصنام ، ووصفها بالرجس ، وبأن شربها من عمل الشيطان ، ثم جعل التحريم بلفظ الاجتناب ، وهو يقتضى عدم التلاقى أبدا ، لأن المجانبة كأن الشىء فى طريق ، والمجانب له وان كان فى جنبه قريبا الا أنه فى طريق آخر يوازيه ، فيسيران متجانبين لا يلتقيان أبدا ٠

ولهذا أخذت الخمر حكم النجاسة ، كما فى لحم الخنزير ، بحيث لا يكتفى بتحريمها ، وانما يحرم أى شىء تخالطه ، فاذا خالطت ماء أو مشروبا آخر أو طعاما صار كل ذلك نجسا ، لا يجوز شربه أو استعماله ٠

ولفظ الخمر يطلق أصلا على كل ما هو مصنوع من العنب خاصة ، وهى التى ينصب عليها تحريم القرآن ، وتوصف بالنجاسة ، ويقام الحد على من شرب منها قليلا أو كثيرا ، طالما كانت له رائحة ، وأول ما أقيم الحد فى شرب الخمر كان فى خلافة أبى بكر ، وأجمع الصحابة على جعله ثمانين جلده ٠

ويلحق بالخمر فى الحرمة شيئان :

١ ــ المشروبات التى تسكر كالنبيذ الذى يصنع من بعض الفواكه والتمور ، وبعض الحبوب وغير ذلك ٠

٢ ــ المخدرات من أى نوع كالحشيش والأفيون وغير ذلك مما يؤثر على العقل والأدراك أى تأثير بأى درجة عن الوضع العادى ٠

والعلة الحقيقية فى تحريم الخمر وكل ما يلحق بها هـــو الاسكار المؤثر على الادراك ومن حكمة التشريع الاسلامى فى تحريم الخمر أنه راعى سيطرة عادة شربها على المجتمع حينئذ فحرمها بالتدريج ، وكانت المرحلة الأولى فى التحريم تحريمها عند التهيؤ للصلاة ، كما فى القرآن الكريم (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) (٢) ولكن لما كانت القاعدة أن ما ينص عليه القرآن صراحة لا يحتاج الى تعليل ، وقد نص القرآن على النهى عن الخمر ، فأصبحت محرمة دون حاجة الى علة ، أى سواء أسكرت أو لم تسكر ، وتبع ذلك أحكام النجاسة واقامة الحد ٠

ولكن الأنواع الأخرى التى قيست على الخمر وألحقت بهـا ترتبـط بالعلة وهى الاسكار والتأثير فى الادراك ، وتدور حول هذه العلة ، فاذا كان المشروب أو المأكول مسكرا فهو حرام ، سواء القليل منه والكثير ،

---

(١) سورة المائدة ٩٠ ٠ (٢) سورة النساء ٤٣ ٠

كما فى الحديث الشريف (ما أسكر كثيره فقليله حرام) فالحرمة ثابتة فى كثيره وقليله ، ولكن لا يلحقه حكم النجاسة ، بمعنى أنه لا يوصف بأنه نجس كالخمر ، ومن باب أولى اذا اختلط بغيره لم يكن هذا الغير نجسا ، فاذا سقطت قطرة نبيذ فى ماء أو طعام مثلا لا يكون نجسا ، وكذلك مع ثبوت الحرمة فان الحد لا يقام على متعاطيه الا اذا بلغ حد السكر ، بخلاف الخمر المصنوعة من العنب ، فان شرب أى شىء منها يوجب اقامة الحد ، واذا أنكر الشارب أنه شرب ، فان وجود الرائحة كاف لاقامة الحد عليه .

ولكن ينبغى أن يعلم أنه فى الحالات التى لا تصل الى وجوب اقامة الحد فليس معنى ذلك عدم وجود عقاب ، بل باب التعزير مفتوح ، والتعزير هو العقوبة التى يحددها ولى الأمر – عن طريق المختصين بوضع القوانين لكل مخالفة لم ترد لها عقوبة محددة فى التشريع الاسلامى .

وكل عقوبات القانون الوضعى تعد من باب التعزير الا ما كان مخالفا لنص شرعى .

فى الأوانى :

يحرم فى الاسلام استخدام الذهب والفضة فى أوانى الطعام والشراب لأنه مظهر ترف وأسراف ، والاسراف محرم فى الاسلام ، لأن الاسلام بصفة عامة يقوم على الاعتدال ، كما سبق ، وفى القرآن الكريم (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) (١) وكذلك فى القرآن الكريم (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا) (٢) ولأن الذهب والفضة نقد يتعامل به ، وينتفع به فى أغراض أخرى خير من الترف والتباهى .

وهذا التحريم اذا كانت الأوانى من الذهب أو الفضة الخالصة ، أما اذا كانت محلاة بالذهب أو الفضة فلا بأس به اذا كانت حال من يستخدمهما وحال مجتمعه تسمحان بذلك .

فى الملابس :

يحرم على الرجال فى الاسلام لبس الحرير ، وكذلك التحلى بالذهب والفضة ، لأن هذا مظهر ترف ونعومة ، وهما لا يناسبان الرجال ، ويستثنى من ذلك جواز لبس خاتم الفضة للرجال ، أما النساء فيجوز لهن التحلى والتزين بكل هذا ، لأن من طبيعة المرأة حاجتها الى الزينة .

---

(١) سورة الأعراف ٣١ .

(٢) سورة الاسراء ٢٧ .

والاسلام يهدف الى تربية أبنائه على القوة فلا يرضى لهم أن ينغمسوا في مظهر يليق بالنساء ولا يليق بالرجال ، وقد لعن النبى صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال ·

وقد وردت أحاديث كثيرة فى تحريم الذهب والحرير على الرجال ، ومن ذلك أن النبى أخذ حريرة بشماله ، وذهبا بيمينه ثم رفع بهما يديه وقال (ان هذين حرام على ذكور أمتى حل لاناثها) ·

والمحرم فى الملابس أن يكون النسيج كله حريرا خالصا ، فاذا كان الحرير حلية فى الملابس فلا بأس به ، وقد أهدى المقوقس ملك مصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أهدى جبة أطرافها من ديباج فلبسها ·

وكذلك لو كان الذهب أو الفضة حلية يسيرة فى شىء فلا بأس باستعماله ، وقد روى أنه كانت فى مقبض سيف النبى حلية من فضة ، وكان خاتم النبى من فضة ، وقد نقش عليه (محمد رسول الله) ·

الاحتكار :

مما يتعلق بالحياة المعيشية من أحكام التحريم الاحتكار ، وهو حبس سلعة ضرورية عند الحاجة اليها بقصد رفع ثمنها ، وهو أسلوب معروف فى التجارة ، فان بعض التجار يستغل أحيانا فرصة الحاجة الى سلعة معينة مع قلة المعروض منها ، فيما يعرف بقلة العرض وزيادة الطلب ، فيحتكر هذه السلعة ، ويمتنع عن عرضها ، حتى يشتد الطلب عليها ، فيتحكم فى سعرها ، وهذا اضرار بالناس ، ومبدأ الاضرار فى الاسلام ممنوع (لا ضرر ولا ضرار) فلا يكلف أحد أن يتقبل ضررا من غيره ، ولا يجوز له أن يضر بغيره ·

وقد وردت أحاديث كثيرة فى النهى عن الاحتكار ، ومنها (من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منه) وقد ورد فى القرآن ضمنا النهى عن الاحتكار فى مكة ، حيث تشتد الحاجة الى السلع مع زحام اجتماع الحجيج ، ففى القرآن الكريم (·· والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) (١) وقال عمر بن الخطاب لا تحتكروا الطعام بمكة فانه الحاد ، والالحاد فى اللغة الميل ، والسياق فى الآية يجعل مضمون المعنى أن الله جعل المسجد الحرام فى مكة وجهة للناس سواء المقيم والقادم من

---

(١) سورة الحج ٢٥ ·

البادية ، فالذى يميل الى الظلم فيه توعده الله بعذاب أليم ، ومن الظلم الاحتكار لأنه اضرار بالناس ، والحج الى الكعبة قديم قبل الاسلام ، ويبدو أن بعض التجار تعودوا منذ الجاهلية انتهاز فرصة موسم الحج وتجمع الوافدين ليحتكروا بعض السلع الضرورية حتى يتحكموا فى سعرها ، فجاء نهى القرآن عن أى ميل عن الوضع العادى فى مكة كانتهاز الفرص للاحتكار ، ومما يشير الى أن سياق الآية منصب على تنظيم الحياة المعيشية وحمايتها وليس على الناحية الدينية فى الحرم تعبير (والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء ...) فهو مزار ووجهة لكل (الناس) وليس للمؤمنين فقط ، وقد كان فعلا وجهة لكل العرب فى كل العصور قبل الاسلام .

وقد كان مضمون هذه الآية هو أساس النهى عن الاحتكار فى الاسلام ، وقد أحسن المسلمون فهم هذه الآية ، فما دام حديث الآية عن (الناس) عامة بصرف النظر عن ديانتهم فان الاحتكار اذن محرم لذاته ، ما دام فيه اضرار بمجتمع من الناس فى أى مكان ، وأيا كانت ديانتهم .

فالتاجر المسلم لا يجوز له أن يحتكر شيئا يضر احتكاره بأى مجتمع ولو كان مجتمعا غير مسلم ، لأن أشارة القرآن الى النهى عن الاحتكار كانت لحماية (الناس) عامة ، وليس المؤمنين فحسب ، وكذلك الأحاديث النبوية كان واضحا فيها هذا الاتجاه .

وكل سلعة لا يستغنى عنها الناس يشملها تحريم الاحتكار ، كالملابس والطعام ، سواء أكان طعاما للناس أم للماشية ، والاحتكار لا يوصف بانه احتكار الا اذا كان فيه اضرار بالناس ، سواء فى حرمانهم أو رفع السعر عليهم رفعا مغالى فيه ، ولذلك يرى فقهاء الاسلام أن من حق صاحب السلطة أن يحدد الأسعار اذا لجأ التجار الى المغالاة فيها ، بل من واجبه ذلك حماية للناس اذا تبين الاضرار بهم .

ومن دقة علماء الفقه الاسلامى القدماء وادراكهم أن مجال التجارة والاقتصاد علم له أصوله وخبراته ولا تصلح فيه الأوامر الفردية أو القوانين الجزافية أنهم يشترطون فى تدخل صاحب السلطة حينئذ الاستعانة بأهل الخبرة ، ومن عباراتهم التى صيغت من قرابة ألف عام (ولا ينبغى للسلطان أن يسعر على الناس الا أن يتعدى أرباب الطعام تعديا فاحشا فى القيمة فلا بأس بذلك بمشورة أهل الخبرة) (١) .

---

(١) كتاب الاختيار فى الفقه الحنفى للموصلى ٤/٢٥٥ (فصل الاحتكار) .

الربـا :

من أبرز ما يبغضه الاسلام ويحرمه فى التعامل بين الناس الربا ، وصورته ـ كما سبق ـ هى اشتراط الزيادة عند التبادل فى سلعة أو نوع معين ، كأن يقترض شخص من آخر مبلغا نقديا فيشترط الدائن أن يرد اليه المدين النقود بزيادة عما اقترضه ، فاذا اقترض مثلا مائة جنيه يشترط عليه أن يردهـــا مائة وعشرين ، وكذلك فى أى سلعة ، كأن يقترض أردب قمح ، فيشترط الدائن على المدين أن يرده اردبا وربعا ، فهذا هو الربا ، أما اذا اختلفت الســلعة كأن يقترض نقودا فيشــترط الدائن ردها سلعة أخرى بزيادة فى القيمة فليس ربا ، وكذلك اذا رد المدين الدين بزيادة فيه دون أن يكون هذا شرطا فليس أيضا من الربا ٠

ومن الحكمة فى تحريم الربا أن الاسلام يوجب التعاون بين أفراد المجتمع ، ومن ذلك قوله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) (١) فالتعاون واجب بصريح هذا الأمر ، ولكن الربا يناقض التعاون ، لأنه اســتغلال لحاجة المحتاج ٠

والقرآن يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع المؤمن أوثق علاقة ، وهى علاقة الأخوة (انما المؤمنون اخوة) (٢) بينما يؤكد أن أخوة النسب ليست صلة ولا رابطة اذا لم يصاحبها الايمان ، وذلك فى قصة نوح عليه السلام مع ابنه الكافر ، حيث وعد الله نوحا أن ينجيه وأهله ، وأراد الله أن يغرق الابن الكافر فدعا نوح ربه قائلا (رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق) (٣) يعنى أنت وعدتنى بأن تنجى أهـــلى ، فيقول له ربه سـبحانه بأســلوب التأكيد (يا نوح انه ليس من أهلك ٠٠٠) (٤) والمسلمون الأوائل طبقوا هذا الاتجاه عمليا ، فقد كانت الرابطة بينهم هى الايمان ، فاذا انعدم انعدمت كل صلة ورابطة مهما بلغت من القرابة ، حتى ان الواحد منهم كان لا يتردد فى قتل ابنه أو أبيه أو أخيه الكافر فى أى حرب دينية ، ومن هذا أن أحد أبناء أبى بكر الصــديق قاتل مع الشركين ضد المسلمين فى موقعة بدر ، وبعد أن أسلم قال لأبيه أبى بكر ، لقــد عرضت لسيفى يوم بدر فحدت عنــك ، يعنى كنت فى متناول سيفى فلم أقتلك ، فقال له أبو بــكر ، ولكنك والله لو عرضـــت لسيفى يومئذ ما حدت عنك ٠

ومقتضى هذه العــلاقة بين المؤمنين ألا تلطخهـــا صـــورة الاضرار والاستغلال كما فى الربا ٠

---

(١) سورة المائدة ٢ ٠ (٢) سورة الحجرات ١٠ ٠
(٣) سورة هود ٤٥ ٠ (٤) سورة هود ٤٦ ٠

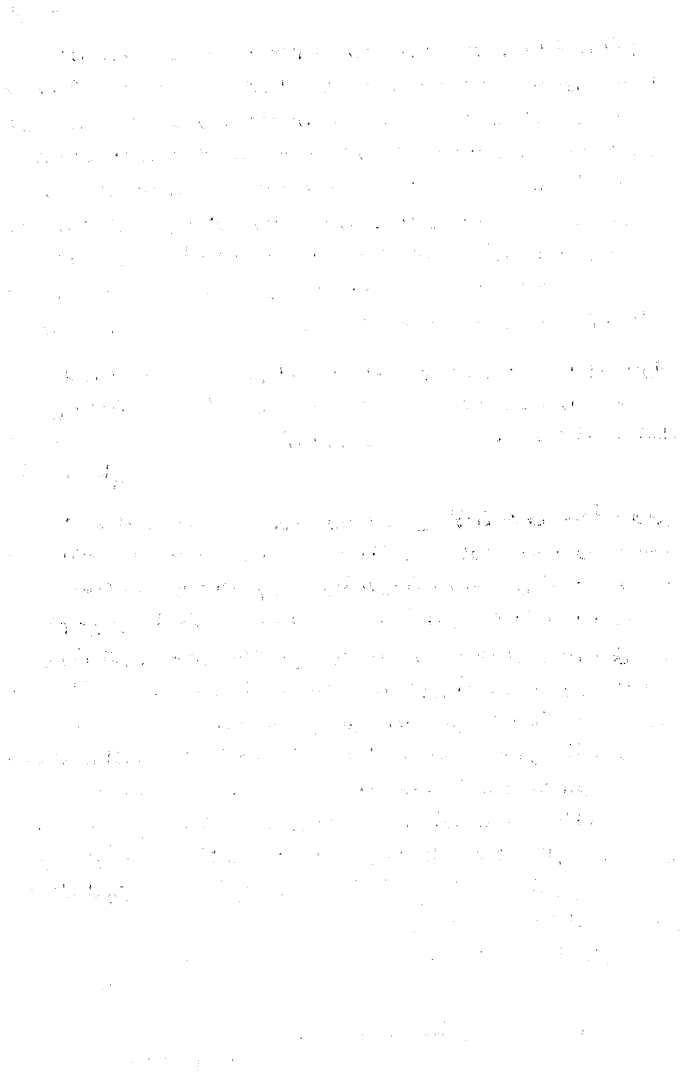

الغيبيات

المراد بالغيبيات ما ورد فى القرآن أو الأحاديث النبـــوية من أمور غيبية لم يطلع عليها الناس ، ولكنهم مطالبون بالايمان بها ، كالملائكة والجنة والنار والقيامة .

والايمان بهذه الأمور الغيبية من أسس الايمـــان ، فكل ما ورد فى القرآن من الغيبيات فالايمان به أساس فى الاسلام ، وانكاره كفر ، وكذلك ما ورد فى الأحاديث النبوية مما يصل الى درجة أن يكون معلوما من الدين بالضرورة ، وفى القرآن الكريم (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (١)

والايمان بالغيبيات يدور حول أمرين :

١ ـ أحدهما أن الايمان بالله يستوجب فيما يستوجب تصديق كل ما يقوله الله سبحانه ، وكذلك تصديق رسول الله فيما ثبت صدوره عنه، وقد جعل القرآن من صفات المؤمنين ايمانهم بالغيب ، أى بالأمور الغيبية التى عرضت عليهم دون أن يروها ، وفى القرآن الكريم (ذلك الكتـــاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب) (٢) وذلك أن يؤمنوا بكل ما يخبرهم به الله دون حاجة الى دليل ، ودون حاجة الى عرض الموضوع على العقل ، لأن العقل البشرى رغم أنه أعظم ميزة يحملها مخلوق على الأرض الا أن ادراكه قاصر ونسبى ، فهو فى حقيقة الأمر وسيلة من وسائل الادراك التى منحها الله لبنى آدم وميزه بها عن سائر الحيوان ، وغـاية أمره أنه وسيلة ادراك معنوية ، بينما هناك وســائل حســية للادراك

---

(١) سورة النساء ١٣٦ .

(٢) سورة البقرة ٢ .

كالحواس المعروفة ، كالسمع والبصر ، فالعين تدرك المرئيات وتحكم عليها من حيث تحديد الرؤية ، والأذن تدرك المسموعات وتحكم عليها من حيث السمع ، وهما وسيلتان حسيتان للادراك ، والعقل أيضا وسيلة للادراك ولكنه ادراك معنوى ، وكل وسائل الادراك البشرى حسية كانت أو معنوية لها مجال معين ، ونطاق محدد مهما تفاوت الأفراد فيها ، ولكن بعض العقول قد يخيل اليها الغرور أو الجهل أنها تدرك كل شيء أو أنه لا حدود لادراكها ، مع أنه من المسلم به أن الانسان مهما بلغ من العلم فان في داخله سواء من تكوينه الحسى أو المعنوى ما لا يكاد يعرف عنه شيئا ·

واذا كان الناس لا يدركون حقيقة أشياء فى تكوينهم ، وأشياء يحسونها فى حياتهم فليس غريبا أن تكون فى الكون أشياء ومخلوقات لا يعرفونها ·

وما دامت العقول لا تنكر الغيبيات من حيث المبدأ ، فورود الغيبيات اذن فى الدين لا غرابة فيه ، وما دام حديثها صادرا عن الله أو رسوله فلا محيص للمؤمن عن الايمان بها ·

٢ ـ الايمان بالغيبيات ينبغى أن يقتصر على القدر الذى ورد فى شأنها فى القرآن أو الحديث النبوى الثابت ، لأن من عدا هذين المصدرين لا يملك الحديث عن الغيبيات ، حيث لا مصدر لعلم شيء منها الا من الله ورسوله ، وقد أضيفت الى بعض الغيبيات تفاصيل هى أقرب الى الخيال منها الى الدين ، فينبغى التقيد فيما يتعلق بها بما ورد فى القرآن والحديث النبوى الصحيح ، دون جدال أو مراء فى التفاصيل ·

وكما مدح القرآن المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب فانه أنحى بالنكير على الذين رفضوا الايمان بالغيب ، وأصروا على ألا يؤمنوا الا بالماديات ، ومن هؤلاء اليهود الذين ينقل القرآن من مواقفهم فى حديث الله الى رسوله ، كما فى القرآن الكريم (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) (١) فهم يرفضون الايمان بالله سبحانه بصفته غيبا ، ويصرون على أن يروه جهارا رؤية مادية حتى يؤمنوا به ·

ومن أبرز الغيبيات فى الاسلام :

---

(١) سورة النساء ١٥٣ ·

الملائكة :

ورد ذكر لفظ الملائكة فى القرآن فى نحو ثلاثة وسبعين موضعا تتضمن الحديث عن طبيعتهم وعملهم ، والمهام التى يكلفهم الله اياهـا ، وضرب المثل بهم ونحو ذلك ·

فأما طبيعتهم فيؤخذ من حديث الدين عنهم أنهم مخلوقات نورانية، ومعنى ذلك أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ، ولا تسرى عليهـم قوانين الحياة المادية التى تحكم حياة الجسد الحيوانى ، وهم يمثلون طبيعة الخير المطلق ، الذى لا يتصور معه صدور شر قط ، لأنه ليس فى تكوينهم غرائز تدعو الى الشر ، وكل ما لدى الانســـان من شرور انما ينبع من غرائزه المختلفة ، أما الملائكة فليست لديهم غريزة التملك التى تدفع الى الحرص والتنافس والصراع ومـــا ينتج عن ذلك من خصومات وعدوان وجرائم سرقة وقتل وغير ذلك ، وكذلك سائر الغرائز البشرية هى معدومة عند الملائكة ، ولذلك لا يصدر منهم شر قط ، وكما يقول الله سبحانه على لسانهم فى ســـياق الموازنة بينهم وبين بنى آدم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) (١) ·

وأما عملهم فهو العبـــادة الدائمة المستمرة طول الزمن ، دون أن يتخللها فتور أو تعب أو انشغال ، لأن تكوينهم يجعلهم لا يعرفون التعب ولا النوم ، وليست لديهم مشـــاغل تشغلهم عن العبادة ، وفى القرآن الكريم (وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يســـتكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٢) ·

ومن المهام التى يكلفهم الله اياها فى الدنيـــا الوحى الى الأنبياء والرسل ، وقبض أرواح الناس عند الموت ، وتثبيت المؤمنين فى المواقف التى يريد الله تثبيتهم فيها كالقتال وانزال العقاب الدنيوى بمن يريد الله به العقاب ، وغير ذلك ·

وفى القرآن كثير من الآيات عن اســـناد مهمة قبض الأرواح الى الملائكة ، ومن ذلك قوله تعالى (حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) (٣) وعن تثبيت المؤمنين فى مواقف القتال فى القرآن (اذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) (٤)

---

(١) سورة البقرة ٣٠ ·
(٢) سورة الأنبياء ١٩ ـ ٢٠ ·
(٣) سورة الأنعام ٦١ ·
(٤) سورة الأنفال ١٢ ·

وعن انزال العقاب بمن يريد الله بهم عقابا دنيويا نجد هذا فى القرآن الكريم كثيرا ، ومن ذلك فى قصة اهلاك الملائكة قرية قوم لوط (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهـل هـذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين) (١) .

وقد ذكر القرآن جماعات معينة من الملائكة لهم اعمال يختصون بها ، وهذه الأعمال لا ينبغى أن تقاس على أعمال الدنيا المعروفة لدينا ، فان الله سبحانه يقرب فهم الأشياء الغيبية للناس بقياسها او تشبيهها بامور الدنيا المألوفة لديهم ، فلا ينبغي اعمال العقول فيها لأنها خارجة فى حقيقتها عن مجال ادراك العقول ، والتفكير قد يفيد فى تأمل الحكمة منها ولكنه لا يفيد فيها لذاتها شيئا جديدا .

ومن الجماعات المحددة من الملائكة خزنة جهنم . وهم تسعة عشر ملكا ، ومهمتهم ليست حقيقية بما يوحيه لفظ الخزنة وهم الحراس بالمعنى المألوف فى الدنيا ، لأن جهنم ليس فيها شىء يحتاج الى حراسة ، حيث لا يطمع أحد فى شىء مما فيها ، ولا يستطيع الهروب منها أحد ، فالحراسة هنا صورة رمزية ، وقد وضح القرآن الكريم الهدف من تحديد عددهم بتسعة عشر ، وهو أن يجعل الله هذا فتنة لمن يريد الكفر ، حيث يقول سبحانه عن المشرك (سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النـار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا) (٢) وكان من اعجاز القرآن أن هذا العدد أصبح فتنة دينية فى كل العصور منذ نزول القرآن ، وحتى اليوم نجد مذهبـا الحاديا كالبهائية يقوم على تقديس العدد (تسعة عشر) ويجعله محورا لمذهبه الإلحادى .

ومن جماعات الملائكة حملة العرش ، وهم ثمانية ملائكة ، وفى القرآن الكريم (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) (٣) .

كما أن فى الملائكة أفرادا لكل منهم مهمة وكل بها ، ومنهم جبريل الموكل بالوحى الى الأنبياء ، وميكائيل الموكل بالسحاب والمطر ، وقد ورد ذكرهما فى قوله تعالى (من كان عدوا لله وملائكته وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) (٤) ومالك خازن النار ، وقد ورد ذكره فى قولـه تعالى على لسان الكافرين فى جهنم (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك

---

(١) سورة العنكبوت ٣١ .
(٢) سورة المدثر ٢٦ ، ٣٠ وسـورة غافر ٤٩ .
(٣) سورة الحاقة ١٧ .
(٤) سورة البقرة ٩٨ .

قال انكم ماكثون) (١) وتحدث القرآن عن ملك الموت الموكل بقبض الأرواح فى قوله تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) (٢) وقد ورد أن اسمه غزرائيل ، وقد تحدث القرآن عن النفخ فى الصور الذى يعلن بعث الموتى من قبورهم ، وقد ورد أن اســم الملك الموكل بالنفخ اسرافيل ٠

وجبريل هو الذى كان ينزل بالوحى على النبى صلى الله عليه وسلم، وفى أغلب الأحيان كان يأتى غير مرئى ، وأحيانا كان يأتى فى صـــورة مرئية ، هى صورة آدمى حسن الشكل ، ومن ذلك ما ورد فى حديث نبوى مشهور عن بعض أصحاب النبى قال كنا جلوسا عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاء رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، ليس عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس بين يدى النبى ثم سأله : ما الاسلام ؟ قال : أن تشهد ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا ، قال : صدقت ، فعجبنا كيف يسأل ويصدق ، ثم قال : ما الايمان؟ قال النبى صلى الله عليه وسلم : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره ، حلوه ومره ، قال : صدقت ، ثم قال : ما الاحسان ؟ – يعنى ما أحسن درجة فى الدين – قال النبى : أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ، قال : صدقت ، ثم انصرف فلم يره أحد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم ٠

وبصفة عامة فان الملائكة فيما يفهم من حديث الاسلام عنهم هم أرقى وأنقى المخلوقات الخفية ممن ورد حديث عنهم ٠

الجن :

المدلول اللغوى للفظ الجن يوحى بالاستتار والاختفاء ، وهذا المعنى فيما يبدو هو المقصود بهذه التسمية ، بمعنى أن الجن ليست لهم صفة محددة ولا نوعية معينة فى الاسلام كالملائكة ، وانما هم مخلوقات خفية ، غير محددة الطبيعة ولا الصفة ، وبعضهم مؤمن ، وبعضهم غير مؤمن ٠

وقد وردت فى القرآن ســـورة باسم الجن فيهـا حديث عن الجن يتضمن أن مجتمع الجن من حيث الايمان والكفر كمجتمع البشر ، وان

---

(١) سورة الزخرف ٧٧ ٠ (٢) سورة السجدة ١١ ٠

عددا منهم استمع الى القرآن فآمنوا به حين بهرهم مضمونه ، وأن نزول القرآن عنـد مبعث النبى أحدث انقلابا شـديدا فى حياة الجن ، حيث حجبوا حينئذ عن التصنت ، بعد أن كانوا يستطيعون التقاط بعض المغيبات من استماعهم لما يدور في السماء ، وهذه الغيبيات كانوا يضللون بها أتباعهم من الانس ، فيوهمونهم بأنهم يعلمون الغيب ، أما اليوم بعد مبعث النبى ونزول القرآن فان من يحاول منهم الاستماع يجد الشهب فى انتظاره ، وتحدثوا بأن فيهم غير المؤمنين ، وهذه القصة في القرآن الكريم (قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وانه تعالى جد ربنا ما اتخـذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا ، وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ، وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ، وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعـد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ، وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ، وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ، وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ، وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا ، وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) (١) .

والحكمة فى منع الجن من استماع الغيبيات بعد مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن هى تأكيد كمال الثقة فيما ينزل من الوحى على النبى ، فالنبى يوحى اليه ، وفى بعض ما يوحى اليه غيب ، ولو أن الجن أخبروا بغيب وكانوا صادقين لحدث لبس لدى النـاس بين قولهم وما يوحى به الى النبى من حيث المصدر ، وقد يعتقد بعض الناس أنـه لا فرق بين ما يقوله النبى وما يقوله الجن من غيبيات ، وقد زعم بعض المشركين فى حياة النبى هذا فعلا ، ولكن الناس لم يصدقوا هذا الزعم ، لأن الجن حينئذ لم تستطع أن تدلى الى الناس بما يدعى معه أنه غيب حقيقى ، ولذلك كان من الملحوظ أن الذين ادعوا النبوة فى حياة النبى وكان بعضهم ممن لهم صلة بالجان كالأسود العنسى اليمنى الذى ادعى النبوة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لم يستطع أحد منهم أن يذكر شـيئا غيبيا محددا يقتنع الناس بأنه خارج عن نطاق علم البشر العاديين ، وحتى الكهان الذين ذاع أمرهم بين العرب قبل الاسلام وكان فى بعض قولهم

---

(١) سورة الجن ١ ـ ١٥ .

شيء من الغيبيات نتيجة لصلتهم بالجان كالقصص التى روتها عنهم كتب التاريخ ، حتى هؤلاء لم يؤثر عن أحد منهم أو من غيرهم بعد ظهور النبى صلى الله عليه وسلم شيء ذو قيمة مما كان يخبر به الكهان من بعض الغيبيات ٠

وفى القرآن الكريم أن من الجن دعاة الى الله كما في الناس ، ومن ذلك قوله تعالى (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى صراط مستقيم) (١) ٠

ويحدد القرآن المادة التى خلق منها الجان ، وهى النار ، بينما خلق آدم من طين ، ففى القرآن الكريم (خلق الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار) (٢) ٠

وقد ورد فى الأحاديث النبوية ما يفيد امكان ظهور الجن فى صورة اجساد مادية حيوانية ، ومن ذلك ما ورد من أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث أصحابه ذات يوم عما حدث فى الليلة الماضية مع أحد الجان ، فقال (تفلت على البارحة عفريت من الجن ، فهممت أن آخذه فأربطه الى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا فتروه جميعا ، فذكرت قول أخى سليمان رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) ومضمونه أن النبى كان معتكفا فى المسجد فظهر له ذات ليلة جان يروى أنه كان فى صورة قط ، ففكر النبى أن يمسكه فيربطه فى أحد أعمدة المسجد ، لأن الجان ما دام قد تقمص صورة جسد مادى تسرى عليه أحكام الجسد المادى طالما هو فى هذه الحال ، ولكن النبى تذكر دعوة سليمان عليه السلام التى استجاب الله لها فخصه بأن يحكم الجان ، ولو أن النبى تحكم فى هذا الجان لشارك سليمان فى هذه الميزة ، فانصرف النبى عما فكر فيه ٠

ومما لا شك فيه أنه ليس لأحد من الجن سلطان على أحد من بنى آدم ، الا من يضع نفسه من بنى آدم باختياره فى هذا الموضع ، فقد حرر الله بنى آدم من أن يكون لشيء من مخلوقاته قط سلطان عليهم ٠

وقد وردت تفاصيل وأخبار كثيرة فيما يتعلق بالجان وطبيعتهم وحياتهم وأعمالهم ، بل وأنسابهم وقبائلهم ، ولكن ذلك كله ، فيما عدا ما ورد فى القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة لا يعدو أن يكون نوعا

---

(١) سورة الأحقاف ٢٩ ـ ٣٠ ٠ (٢) سورة الرحمن ١٥ وسورة الحجر ٢٧

من الوهم أو التخمين أو ترديد الأساطير والخرافات المتوارثة ، وهذا لا يمنع أن يكون الجان أحيانا مرئيا أو مسموعا كما ورد فى الأحاديث وفي القرآن ، ولكن لا يصح قط الاعتقاد بأن لهم سلطانا أو تأثيرا على أحد ، أو أنهم يملكون نفعا أو ضررا مباشرا أو غير مباشر لأحد ·

وقد سبقت الاشارة الى أن كل ما يتعلق بالغيبيات والعالم الخفى يسوقه الدين لأسباب قد تكون كثيرة ، ولكن ليس من بينها أن تكون هذه الغيبيات أو المخفيات علما أو معرفة مطلوبة للبحث واعمال العقول فيها كما يطلب الدين ذلك فى الأمور الحسية أو الكونية ، وقد يكون من أسباب ايرادها اظهار قدرة الله وعظيم خلقه ، وتنوع مخلوقاته ، ليكون هذا من دواعى عمق الايمان ، وقد يكون منها اختبار مدى ايمان المؤمن بما يحدثه به الدين ولو لم يكن مشاهدا أو محسوسا لديه ·

الشياطين :

الشيطان رمز معروف للبشرية كلها ، من حيث انه عنوان للشر والخطيئة والضلال وكل الأديان تحدثت بتفاصيل كثيرة عنه وعن طبيعته ، والشيء المهم فى كل ما ورد من ذلك ، بل المطلوب معرفته واليقين به . هو أنه دائم التزيين للبشر ، ومحاولة دفعهم الى كل ضلال وخطيئة ، سواء فى العقيدة وفى السلوك ·

والقرآن الكريم تحدث عن اسمين فى هذا المجال ، هما ابليس ، والشيطان ، ولكن هدفهما واحد ، وان اختلفت بعض التفاصيل ازاء كل منهما ·

فأما ابليس ـ ويسميه القرآن أيضا الشيطان ـ فهو صاحب قصة صراعه مع آدم ، وقد تكررت قصته هذه فى القرآن الكريم ، ومؤداها أن الله سبحانه خلق آدم وميزه عن الملائكة والجن بكثير من المزايا ، ومنها اكتساب العلم المتجدد ، حيث ان المخلوقات الأخرى العاقلة كالملائكة والجن معلوماتهم ثابتة لا تتجدد ولا تزيد ولا تنقص ولا تتغير ، فمنذ أن يخلق أحدهم حتى يفنى معلوماته ثابتة ، وليس فى استطاعته توليد معلومات أو اكتسابها أو التنقيب عنها ، بخلاف آدم وذريته ، وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم رمزا لتعظيمه والاعتراف بمزاياه ، فسجدوا ، ولكن ابليس استنكف أن يسجد معلنا أن الوضع مقلوب ، حيث يرى أنه أفضل من آدم ، وأصر على تحدى ربه سبحانه ، فحلت عليه لعنة الله وغضبه ، وكان الله قد بين طبيعة آدم للملائكة ولابليس ، ومع أن الله سبحانه أثبت لهم

فى اختبار عملى تفوق آدم وظهور مزاياه عليهم ، الا أن ابليس كأنه أراد أن يستغل ما عرفه من طبيعة آدم وذريته وما فى هذه الطبيعة من ضعف واستعداد للغواية ، وكأنه يرد على الله سبحانه بأنه سيريه أن هذا الذى كرمه عليه لا يستحق هو وذريته كل هذا التكريم ، وذلك حين يدفعهم ابليس الى عصيان الله فيستجيبون ، وقد تعهد ابليس أمام الله أن يضل آدم وذريته أجمعين الا من يعصمهم الله ، وهم قلة ضئيلة بالقياس الى المجموع ، وقد نجح ابليس فى غواية آدم وزوجه ، فعصيا الله بالأكل من الشجرة التى حرمها الله عليهما ، ومن حديث آدم وابليس فى القرآن (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك لعنتى الى يوم الدين ، قال رب فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين، الى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين) (١) ولكن الله يؤكد لابليس أنه ليس له سلطان على آدم أو ذريته الا من يريد اتباعه باختياره ، من ذلك فى القرآن (ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين) (٢) .

وهذا التعبير يوحى بأن سلطانه لا يسرى الا على من تتوافر فيه نزعتان ، احداهما أن يكون الآدمى بطبيعته غاويا ضالا ، والأخرى أن يكون قاصدا اتباع الشيطان ، بمعنى أن يكون عارفا وراضيا بأنه يسير فى ضلال ، وعن اغواء ابليس وتزيينه لبنى آدم ، وكذلك عن تحذير الله آدم من الغواية ، نجد فى القرآن الكريم عدة مواضع منها (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه

---

(١) سورة ص ٧٠ ـ ٨٥ . (٢) سورة الحجر ٤٢ .

ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) (١) ٠

ويذكر القرآن الكريم أن ابليس له ذرية ، فى قوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو) ؟ (٢) ٠

وأما لفظ (الشيطان) فقد ورد ذكره فى القرآن كثيرا على أنه رمز للشر المطلق ، فلا يأتى منه خير قط ، وانما هو قرين السوء والضلال دائما ، ويؤكد القرآن فى أكثر من موضع أن الشيطان عدو لدود للانسان، ومن ذلك (ان الشيطان للانسان عدو مبين) (٣) وهى عداوة نابعة من الطبع فلا تنفك أبدا ٠

ولذلك كان الشيطان عنوانا للشر والغواية فى الانسان ٠

وابليس والشيطان متفقان فى هذه الغاية ، ولكن ليس من الواضح على وجه اليقين فى القرآن ، هل هما شىء واحد أو هما شيئان متفقان ؟

والشيطان يأتى فى القرآن بلفظ الجمع ، مثل (ولكن الشياطين كفروا) (٤) ٠

وفي الأحاديث النبوية كثير جدا من تصوير أعمال الشيطان ومحاولاته غواية الانسان ، ودفعه دائما الى الشر أو التقصير فى الخير على الأقل ، ومن الأحاديث النبوية المشهورة فى تأكيد مخالفة الشيطان للانسان ، بل ملازمته فى تزيين الشر له قوله صلى الله عليه وسلم (ان الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم) ٠

وقد ذكر القرآن الكريم أن الله سبحانه خص النبى سليمان بأن سخر له الجان ، وجعل الشياطين تحت امرته ، وسخرهم سليمان فى الصناعة ، وقد صنعوا له أنواعا كثيرة كانت عجائب فى حينها ، كما صنعوا الصرح الممرد من قوارير ، والذى حسبته ملكة سبأ لجة من الماء ، وفى القرآن من صناعاتهم (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) (٥) ٠

---

(١) سورة طه ١١٥ ـ ١٢٣ ٠
(٢) سورة الكهف ٥٠ ٠
(٣) سورة يوسف ٥ ٠
(٤) سورة البقرة ١٠٢ ٠
(٥) سورة سبأ ٣٤ ٠

وكما استخدمهم سليمان فى المهن والصـــناعات السابقة من عمل الأماكن الخاصة لاعتكاف الفرد فى عبادته وهى المحاريب أو فى النحت فى التماثيل وصناعة أوانى الطعام وهى الجفان • وأوانى الطبخ وهى القدور ، كذلك استخدامهم فى مهنة العمارة والتشييد ، ومهنة الغوص لاستخراج اللؤلؤ ومعادن البحار ، وفى القرآن الكريم فى هذا السياق (والشياطين كل بناء وغواص) (١) •

ولكن القرآن يضرب لصلة الجن بسليمان عليه السلام مثلا رائعا يصطدم بالواقع السيء لبعض الناس ، فبعضهم يتصور أن الجن لهم قدرة على علم الغيب أو بعض الغيب ولكن الجن وهم مسخرون لسليمان ظلوا فى رهبة سلطانه عليهم حتى وهو ميت ، حيث كانوا يحسبونه حيا ، وذلك أن سليمان أدركه الموت فجأة وهو مستند الى عصاه فى محرابه الذى يخلو فيه الى عبادة ربه معتكفا ، وظل سليمان ميتا وهو فى هذا الوضع ، والجن خاضعة لسلطانه ، ماضية فيما سخرها فيه ظانين أنه حى ، وظل كذلك حتى نخرت الأرضة العصا المستند اليها ، فلما تآكلت العصا وانقصفت خر سليمان الى الأرض ، فعرفت الجن عندئذ أنه كان ميتا طوال ارتكانه الى العصا ، وفى القرآن الكريم عن هذه القصة (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) (٢) وفى هذا المثل عبرة للذين يخدعون بالدجالين الذين يصورون للناس أن لهم صلة بالجان ، وأن الجان يعلمون الغيب ويستطيعون أن يخبروا بما لا يعلمه غيرهم •

وبعد هذا كله فان الدين لا يسوق هذه الأنواع من المخلوقات للعلم بتفاصيل أمرها ، فان ذلك لا يفيد الناس شيئا ، وانما يفيدهم ما عناه القرآن من شأنها ، وأوضح ما عناه القرآن فى هذا المجال أمران :

١ ــ تحذير بنى آدم من أن لهم أعداء بالغى الخطورة من مخلوقات غير محسوسة ، وان كان أثرها فى بعض الأحيان محسوسا ، وكل عمل هذه المخلوقات ، بل كل هدفها هو افساد حياة بنى آدم فى الدين وفى السلوك •

٢ــ الاشارة الى هذه المخلوقات تفتح مجالات وآفاقا لعقول الناس للتدبر فى خلق الله وملكوته الواسع الذى لا تحيط العقول بسعته ولا بتنوعه ، وفى هذا مدعاة لايمان غير المؤمن بالله ، ولعمق الايمان لدى

---

(١) سورة ص ٣٧ • (٢) سورة سبأ ١٤ •

المؤمنين ، وفى هذا أيضا سبيل لتواضع غرور المغترين بعلومهم وعقولهم وليعلموا مثل قوله تعالى (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) (١) ٠

وينتهى هذا كله بأن القرآن الكريم يسوق مدلولى الشيطان وابليس فى غاية واحدة هى كونهما رمزا للشر المطلق ، وليس لهما من عمل أو هدف الا افساد بنى آدم ودفعهم الى الشر ، وأنه يستخدم مدلول الجن فى معنى أوسع ، هو الدلالة على العالم الخفى من المخلوقات العاقلة ، وبعض الجن مؤمن صـــالح كما ورد فى القرآن الـكريم وفى الأحاديث الشريفة ٠

القيـــامة :

القيامة حدث رهيب يتغير معه كل شىء فى معالم الكون المنظور ، سواء فى الأرض وفى السماء ، وقد وردت فى القرآن الكريم صور عديدة من مشاهد القيامة وآثارها المدمرة لكل شىء ، فالأرض تهتز هزة عظيمة يتحدث عنها القرآن بقوله تعالى (اذا زلزلت الأرض زلزالها) (٢) ثم كل شىء يفقد نظامه ثم طبيعته ، ثم وجوده فى الصورة التى هو عليهـا حينئذ ، حيث يعقب الهزة العظيمة أن يفقد كل شىء فى الأرض نظامه وتماسكه ، فلا جاذبية ولا انصهار ولا تماسك ، حتى ان الجبال تتحول الى كثبان رملية منهارة ، كما فى القرآن (يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا) (٣) ثم تكون فى عدم تماســكها كأنها الصــوف المنفوش قبل أن يغزل ، وعن هذه الصورة فى القرآن (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) (٤) ثم يترتب على ذلك تغير معالم كل شىء ، وفى القرآن الكريم عن ذلك (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) (٥) ٠

والعلمـــاء يعرفون أن الأرض وكل الأجرام والكواكب فى الكون المعروف تسير على نظام ثابت ، ودوران دقيق التحديد حول نفســـها ، وبعضها حول بعض ، ولو أن شيئا اختل فى أساس هذا النظام لحظة لوقعت كل مشاهد القيامة ٠

ويطلق على القيامة فى القرآن أيضا الساعة ، وقد جعلها الله سبحانه من خصائص علمه ، فلا يعلم موعدها الا هو ، وقد كان النبى صلى الله

---

(١) سورة الاسراء ٨٥ ٠
(٢) أول سورة الزلزلة ٠
(٣) سورة المزمل ١٤ ٠
(٤) سورة القارعة ٤ ـ ٥ ٠
(٥) سورة ابراهيم ٤٨ ٠

عليه وسلم يسأله بعض الناس عن موعدها فيقول (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) بمعنى أن كل من عدا الله سبحانه متساوون فى عدم العلم بموعدها ، وفى القرآن (ان الله عنده علم الساعة) (١) ٠

ولكن القرآن يتحدث فى أكثر من موضع بأنها قريبة . وهو بطبيعة الحال قرب نسبى فى الزمن بالقياس الى الله ، وليس بالقياس الى الناس ، ويورد القرآن تعبيرا رمزيا لهذا الفارق النسبى فيقول سبحانه (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (٢) وكونه تعبيرا رمزيـــا لأن عدد الألف فى الآية ليس مقصودا لذاته بوصفه عددا محددا ، وانما يقصد به مدلول السياق ، وكأن المراد أن اليوم عند الله كأقصى وأطول ما يعرفه الناس من أرقام وأعداد فى الحساب ، ومن المعروف لدى المفسرين أن العدد فى القرآن فى مثل هذا السياق لا مفهوم له على وجه التحديد ٠

ولكن هذا التقريب الزمنى يعنى أن الكرة الأرضية نفسها فى الطور الأخير أو المرحلة الأخيرة من حياتها ٠

ومع ذلك فقد ورد فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية أن هناك علامات تسبق القيامة ، وتدل على قربها ، وبعض هذه العلامات يوصف بأنها علامات صغرى ، وبعضها يوصف بأنه علامات كبرى ، وهى التى تسبق القيامة مباشرة ، ومن العلامات الصغرى ما تحدث به النبى صلى الله عليه وسلم لبعض سائليه عن موعد القيامة بأن علمها عند الله ، ولكن لها علامات منها فى السياسة أن يولى الناس الحكم من لا يصلح له . ومنها فى مجال العلاقات الاجتماعية فقدان القيم الدينية والخلقية بأن يعامل الابن أمه معاملة السيد لأمته ، ومنها فى مجال الحياة الاجتماعية أن تنقلب الأوضاع فيصبح أقل الناس شأنا هم الطبقة العليا فى المجتمع ، وكان حديث النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك (اذا وسد الأمر الى غير أهله ، واذا ولدت الأمة ربها ، واذا رأيت الحفاة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان فانتظر الساعة) ٠

وأما العلامات الكبرى فهى خمس :

١ ــ ظهور المسيخ الدجال ، وهو شخص مفسد يضلل الناس فى دينهم كأن يدعى النبوة أو الألوهية ، ويتبعه خلق كثير ٠

---

(١) سورة لقمان ٣٤ ٠ (٢) سورة الحج ٤٧ ٠

٢ ـ رجوع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام داعيا بدعوة الاسلام ، ليصلح فساد الدين والدنيا ، ومن المعروف فى الاسلام أن المسيح بن مريم لم يقتل ولم يصلب ، ولم يمت ، وانما رفعه الله اليه بكيفية وفى مكان يعلمهما الله سبحانه ، كما فى القرآن عن المسيح (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه) (١) ومن علامات الساعة أن يعيده الله الى الأرض مرة أخرى مصلحا داعيا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن رجوعه يقول الله تعالى (وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) (٢) .

٣ ـ ظهور يأجوج ومأجوج ، وهم قوم مفسدون فى الأرض ، وقد ساق القرآن قصتهم فى سياق أن (ذا القرنين) بنى أمامهم سدا منيعا ليمنع شرهم عن الناس الذين شكوا اليه افسادهم ، كما فى القرآن الكريم (حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) (٣) وهم قوم يعلم الله طبيعتهم ومكانهم ، وقد بنى ذو القرنين السد عليهم ، ومن علامات الساعة أن يفتح هذا السد أو ينهار فيظهروا ، والقرآن ينقل عن ذى القرنين قوله بعد أن بنى عليهم السد (قال هذا رحمة من ربى فاذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ، وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا) (٤) .

٤ ـ ظهور دابة تكلم الناس ، وتبصرهم بأنهم حينئذ فى ضلال ، وهذه الدابة تخرج من الأرض ، وهى من قبيل الحيوانات العجماء ، وقد وردت أخبار كثيرة فيما يتعلق بشكلها وصفاتها ومكان خروجها ، وبعض هذه الأخبار ليس له سند صحيح ، وليست له أهمية ، والمهم الذى لابد من الايمان به هو ما ورد فى القرآن الكريم (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) (٥) ولعل كلامها هذا رمز واشارة الى أن الضلال يكون قد وصل الى درجة تدركها حتى الدواب . وان النهى عن المنكر انعدم فى الناس فلم يبق الا أن تتولاه الدواب العجماء .

---

(١) سورة النساء ١٥٧ ـ ١٥٨ .
(٢) سورة النساء ١٥٩ .
(٣) سورة الكهف ٩٣ .
(٤) سورة الكهف ٩٨ ـ ٩٩ .
(٥) سورة النمل ٨٢ .

٥ ـ شروق الشمس من المغرب ، فان الشمس حينئذ تظهر من المغرب بدل المشرق ، ولعل هذه آخر علامات الساعة ، فان معنى حدوث ذلك أن الأرض قد فقدت نظامها الكونى ، حيث أصبحت تدور عكس دورانها الحالى ، فتفقد خواصها وكل نظامها الحالى من جاذبية وتماسك وغير ذلك مما تترتب عليه كل المشاهد التى أوردها القرآن عن القيـــامة ، واختلال نظام دورانها يجعلها تصطدم بغيرها من الكواكب ، وفى هذا دمار لها ، وقد يكون لغيرها أيضا ٠

وعند ظهورها يغلق باب التوبة لأن الناس حينئذ يوقنون بانتهاء الحياة الدنيا ، فلا فائدة من التوبة ، كما لا تقبل توبة شخص عنـــد شعوره باحتضار موته ٠

ويلمح القرآن الى أن نهاية الأرض تقع بعد أن يبلغ التقدم الحضارى فيها غايته ، وحين يصل بالناس تقدمهم العلمى الى أن يعتقدوا أنهم سيطروا على الأرض حتى أصبحت فى قبضتهم ، وذلك فى قوله سبحانه (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من الســماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصـــيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) (١) ومن الواضح أن التقدم الحضارى اليوم يسير فى هذه الطريق ، وأن التقدم العلمى والصـناعى وخصوصا فى مجال الأسلحة النووية بدأ يوحى بتطلع بعض الشعوب الى السيطرة على الأرض ، ولا شك أن هذا التطور سيؤدى الى مراحل أكبر وأقوى ، وقد تخترع أسلحة تصغر بجوارها الأسلحة النووية وكل ما اخترع حتى الآن على بشاعته ، وقد ينفرد شعب بهذه المقدرة ، وعندئذ يتحقق قول الله تعالى (حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرها) وقد وضع بعضهم صيغة حروف جعلها رموزا لعلامات الساعة الخمس ، وهى (معى دش) فالميم رمز للمسيخ الدجال ، والعين لعيسى بن مريم ، والياء ، يأجوج ومأجوج ، والدال للدابة ، والشين لشروق الشمس من المغرب ٠

البعث والحشر :

البعث هو احياء الموتى ، وهذا الاحياء بعد القيـــامة حيث يكون الجميع قد ماتوا ، والحشر هو جمع البشر جميعا فى موقف واحد لحسابهم على ما قدموا من ايمان أو كفر ، ومن خير أو شر ٠

---

(١) سورة يونس ٢٤ ٠

فبعد القيامة لا يبقى أثر لحيـــاة بني آدم ، ويذهب كل ما كانوا يدعونه من ملك أو جاه أو سلطان أو مال أو غير ذلك ، ويبدو حينئـذ واضحا أن الأمر رجع الى أصله وحقيقته وهو ان المالك الحقيقى هو الله وحده ، ولذلك يثير القرآن سؤالا يبرز فى هذا الموقف لا يجد مجيبـا الا الله ، لأنه لا يوجد أحد حينئذ غيره ، وهو (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار) (١) .

ويبدأ البعث بالنفخ فى الصور ، وهذا النفخ موكل به أحد الملائكة وهو اسرافيل ، والنفخ على مرحلتين ، النفخة الأولى تعيد الموتى أجسادا بعد تجميع ذرات هذه الأجساد وما تناثر أو تفرق أو تآكل منها ، وتصبح هذه الأجساد كأنها فى حالة اغماء ، ثم ينفخ فى الصور مرة أخرى فاذا هذه الأجساد تنبعث من مراقدها منتشرة كما يصفها القرآن (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) (٢) والنفختان يعبر عنهما القرآن بقوله سبحانه (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون) (٣) .

وبعد ذلك يجمع الناس الى موقف الحشر ، ويصـــور القرآن قيام الناس من البعث الى الحشر بقوله تعالى (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) (٤) ولابد لكل انسان أن يقف هـذا الموقف ، وقد تكرر فى القرآن تأكيـد أن الحشر يضم الجميـــع كقوله تعـــالى (ويوم نحشرهم جميعا) (٥) ومثل (واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) (٦) وكذلك (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) (٧) .

وقد وردت روايات وأخبار كثيرة فى وصف الحشر ، وصـــورته ، وحالة الناس ، وما يعانونه ، ولكن المهم من هذا كله أمران :

١ ـ ان الهدف من الحشر هو حساب كل انسان على ما قدم من خير أو شر ، فكل انسان لابد أن يرى كل أعماله واضحة ، خيرها وشرها ، والقرآن الكريم يوضح هذا فى قوله تعالى (يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمـــل مثقال ذرة شرا يره) (١) فالهدف من جمع أشتات الناس يومئذ أن يريهم الله أعمالهم (ليروا أعمالهم) وكل امرىء لابد أن يرى كل ذرة عملها من خير أو شر ،

---

(١) سورة غافر ١٦ .
(٢) سورة القارعة ٤ .
(٣) سورة الزمر ٦٨ .
(٤) سورة النبأ ١٨ .
(٥) سورة الأنعام ٢٢ وسورة يونس ٢٨
(٦) سورة البقرة ٢٠٣ .
(٧) سورة الكهف ٤٧ .
(٨) سورة الزلزلة ٦ ـ ٨ .

مع مراعاة أن التوبة المقبولة تجب ما قبلها ، فمهما كان حال الانسان فى الدنيا من كفر أو عصيان ، ثم رجع الى الله مؤمنا تائبـــا اليه ، فان كان صادقا مخلصا فى هذا فان الله يمحو عنه كل ما سبق وكأنه لم يكن ، ولا يعرض هذا ضمن أعماله يوم الحشر والحساب ، وقد كان هذا المعنى مقلقا للذين دخلوا الاسلام فى حياة النبى بعد أن أفسدوا وحاربوا الله ورسوله ، وقد سأل بعضهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال (الاسلام يجب ما قبله) يعنى يمحوه ·

٢ ـ أن الحشر موقف بالغ الصعوبة والشدة ، وبصرف النظر عن أوصاف الشدة الحسية التى أوردتها الروايات كشدة الحر والمعاناة الجسدية يومئذ ، فان الصعوبة النفسية حينئذ أشد وضوحا ، فانه موقف يتقرر فيه مصير كل فرد فى مستقبل لا آخر ولا حدود له ، لأنه سيمضى اما الى جنة أو الى نار ، وكلتاهما واضحتان ماثلتان يومئذ ·

الجنـــة :

هى ما أعده الله من ثواب للصالحين من عباده ، وقد حفلت آيات كثيرة فى مواضع عديدة من القرآن بأوصاف الجنة وما فيها من نعيم ومتع ، فكل ما يخطر على البال من جمال أو متعة موجود فيها ، وكذلك ما لا يخطر فى العقول تصوره فهو موجود فيها ، لأن العقول انما تتصور الأشـــياء النابعة من معارفها ، وحتى الخيال انما تكون صوره منسوجة من المعارف ، وما فى الجنة بعضه لم يره ولم يعرفه أحد ، ولذلك كان ايجاز وصف الجنة أن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن ايجاز القرآن فى وصف الجنة ونعيمها (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون) (١) وهذا التعبير يجمع كل عناصر المتعـة والسعادة الكاملة ، فالذى تشتهيه الأنفس هو مصدر المتعة النفســـية أو المعنوية ، والذى تلذه الأعين هو مصدر المتعة الحسية ، والشعور بالخلود مصدر الاستقرار والطمأنينة ، وهذا الكمال فى المتعة أو السعادة لا يتحقق للعقلاء قط فى الدنيا ، فلو فرض اجتماع المتعة الحسية والنفســـية فلن يجتمع معهما الدوام والخلود ، فالعاقل حين يتصور انقضاء هذه المتعة ثم حاله بعد زوالها لابد أن يشعر بفقدان عنصر جوهرى فيها ·

وقد كان بعض الناس يقفون حيارى أمام بعض أوصاف الجنة فى القرآن كوصف سعتها ومساحتها بأن (عرضها السموات والأرض) (٢) ومقتضى

---

(١) سورة الزخرف ٧١ ·

(٢) سورة آل عمران ١٣٣ ·

هذا أن مساحتها أكبر من السماوات والأرض ، وهذا في النظرة السطحية غير مستساغ في العقول ، ولكن معرفة الناس اليوم بأن الفضاء الكونى أكبر وأوسع من أن تحيط به أو بتصـــــوره العقـــول ، يجعل الأرض وما حولها من سماء أو طبقات هى السموات ، كل ذلك شيء صغير يسير في الكون العظيم ٠

جهنم :

هى العقاب الذى أعده الله لمن غضب الله عليهم ، والقرآن الكريم أيضا حافل في آيات كثيرة ومواضع عديد بأوصاف جهنم ، وما فيها من ألوان العذاب التى لا تحيط بها العقول ، ولا يتصور مدى بشاعتها وتنوعهـــا أحد ، وتدور أوصاف جهنم في القرآن في معظمها حول أمرين :

١ ــ ابراز شدة هذا العذاب وقسوته وايلامه الذى لا يحيط بـه وصف من حيث هو ، وانما توصف بعض آثاره ، كقوله تعالى (ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب) (١) وذلك حتى لا يتصور أحد أن من يدخـل جهنم سيحترق وينتهى أمره ، ولكن القرآن يؤكد أن العذاب مستمر ومتجدد ، ومع أن النار ستحرق الجسد كله الا أن القرآن يركز التصوير على الجلد فقط ، وهذا يعد من الاعجاز العلمى للقرآن ، فقد عرف العلم بعد نزول القرآن بكثير أن منطقة الشعور بالألم هى الجلد فقط ، ولذلك حينما تغرس ابرة في الجسم فان الشعور بالألم يكون في الجلد فقط ، فاذا تجاوزت الابرة الجلد فلا يوجد شعور بالألم مهما توغلت في الجسم ، ومقتضى تجديد جلود المعذبين في جهنم أن آلامهم دائمة لا تنقطع ، كما أن التركيز على تعبير (ليذوقوا العذاب) يوحى بشدة شعورهم واحســـاسهم بالعذاب كشعور المتذوق بطعم ما يتذوقه ٠

٢ ــ التنوع ، وذلك بسرد أنواع من التعذيب ، كالنار التى تتلظى بها الأجسام ، والماء الحميم الذى يقطع الأمعاء ، والطعام المقتطع من نار كشجرة الزقوم في جهنم ، وغير ذلك حتى لا تستقر النفس على صورة واحدة للعذاب قد تتخيل ترويض نفسها على تحمل شيء منها ، بل ان القرآن يسوق من وسائل التعذيب الشيء وضده ، فاذا كانت النار هى العنصر الجوهرى الذى يقوم عليه التعذيب في جهنم فهناك عذاب عكس النار ، وهو البرد الشديد في جهنم ويوصف بالزمهرير ، فقد يكون في

---

(١) سورة النساء ٥٦ ٠

المناطق الباردة من تكون النار غير بغيضة فى خياله من شدة شـــعوره بالبرودة ، فيقول له القرآن ان عصـــيت فان فى جهنم عذابا من نوع ما يؤلمك فى الدنيا ولكنه أشد ٠

وكل هذا ليكون تخويفا وزجرا للذين يحيدون عن طريق الله حتى يرجعوا اليها ٠

على أن القرآن فوق ذلك يتخذ من جهنم وسيلة لتبصـــير المخدوعين ، وارشاد الضالين ، كالواقعين تحت نفوذ السادة والحاكمين الضـــالين ، والأتباع المنقادين لهم بدون بصيرة أو تفكير ، فالقرآن يصور محاورات كثيرة بين الأتباع وسادتهم فى جهنم ، مبرزا أن السادة لن يغنـــوا عن أتباعهم حينئذ شيئا ، بل يركز القرآن على اظهـــار ذل هؤلاء السادة وضعفهم ساخرا من حالهم حينئذ ، حتى يوقظ عقول الأتباع ليفكر كل منهم فى مصلحته اليوم قبل فوات الأوان ، وقبل أن يقولوا ما يصوره القرآن فى جهنم (وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) (١) ٠

٣ ـ توضيح درجات العذاب حتى لا يظن الأشرار أنهم سواء ، وأن الواحد منهم مهما فعل فهو متساو فى العذاب مع من هو أقل منه شرا ، فالقرآن يبين أن كل نوع من الشر له درجة فى العذاب ، وكل جرم له عقابه المحدد ، ومن أمثلة ذلك حديث القرآن عن المنافقين (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) (٢) فالنار درجات وطبقات ، والمنافقون فى أسفل وأشد طبقة فيها ، وهذا يشير الى أن جرمهم أكبر وأشد من أى جرم ، وكفرهم أسوأ من أى كفر ، وخلقهم أحط من أى خلق ٠

---

(١) سورة الأحزاب ٦٧ ـ ٦٨ ٠ (٢) سورة االنساء ١٤٥ ٠

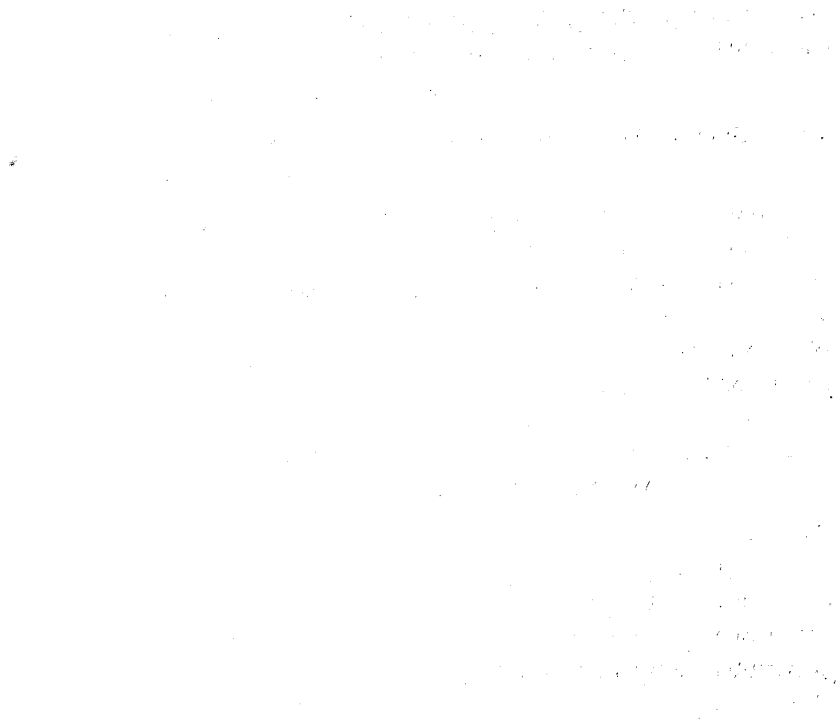

القدوة الاسلامية

قد يكون الهدف من هذا الحديث أوسع دلالة من العنـــوان ، فان الهدف الأول هو ابراز الجانب التطبيقى فى الاسلام ، من حيث ان الاسلام بوصفه تشريعا وأحكاما يمثل الجانب النظرى فيه ، وهناك فرق جوهرى بين الجانب النظرى والجانب التطبيقى ، فكثير من القوانين ومبادىء المذاهب جيدة فى جانبها النظرى ، ولكنها تفقد قيمتها من الناحيـــة التطبيقية ، اما لمحض مخالفتها ، واما للادعاء بأن تطبيقها غير ممكن ، أو غير ميسور ٠

وقد كانت الفجوة لأول وهلة فى الاسلام بين النظرية والتطبيق واسعة شديدة الاتساع ، فقد قلب الاسلام كل أسس الأوضاع حينذاك ، سواء فى العقيدة ، وفى السلوك ، وفى العادات والتقاليد ، وتغيير عادة واحدة فى أى مجتمع شىء ليس باليسير ، فمما يعرفه علماء الاجتماع أن للعادات والتقاليد على المجتمعات سلطانا أقوى من سلطان الدين وسلطان القانون ، فكيف يتغير وجه الحياة الجاهلية كله بعقيدته وسلوكه وعاداته كما يطلب الاسلام ؟ ٠

عندئذ تبدو الفجوة ، ويتاح للقائل أو الظان الظن بأن تطبيق هذا الدين غير ممكن ، أو غير ميسور ٠

ومن هنا يبدو بروز حكمة الله فى أن يجعل الاســلام متكاملا فى ناحيتيه النظرية والتطبيقية ، فالجانب النظرى كامل فى أحكامه التى تشمل كل جوانب الحياة الروحية والاجتماعية، وكذلك يكمل الله الجانب التطبيقى، سواء فى مجال الفرد ، ومجال الأمة ، بمعنى أن كل ما استهدفه الاسلام فى أحكامه النظرية جعل له نموذجا تطبيقيا ليثبت للناس أن تطبيق هذه الأحكام ممكن ، وأن نجاحها عند التطبيق واقع وليس افتراضا ، فكما أن

الاسلام طالب الأفراد بواجبات وتكاليف نظرية ، كذلك جعل لهم نماذج عملية تطبق هذه التكاليف فى أكمل صورها مقرونة بكامل النتائج المستهدفة من هذه الواجبات ، وكان قمة هذه النماذج وأكملها على الاطلاق شخص محمد صلى الله عليه وسلم ، وزيادة فى ظهور حجة الله على عباده ، فقد جعل أيضا نماذج أخرى غير النبى فى قمتها الشيخان أبو بكر وعمر ، حتى لا يدعى أحد أن النبى وحده بما آتاه الله من مزايا هو الذى يستطيع أن يطبق هذا الدين على نفسه · وعلى غيره ، ومن ناحية الأمة أيضا ، كما أن الاسلام كان من أسس أهدافه ايجاد المجتمع والأمة ، ووضع لهذا أحكاما وتشريعا ، كذلك جعل له نموذجا تطبيقيا تتحقق فيه كل الأهداف التى استهدفها الاسلام فى هذا المجال ، وكان هذا النموذج هو جيل النبى صلى الله عليه وسلم وبخاصة أصحابه الذين يعرف التاريخ ـ ولا ينازع فى هذا منصف حتى من غير المسلمين ـ أنهم بلغوا فى مجموعهم وبوصفهم شعبا وأمة قمة النجاح فى كل المجالات الدينية والسياسية والعسكرية ·

وباجتماع الجانبين النظرى والتطبيقى يكون الكمال ، ولعل هذا ما عناه القرآن فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) (١) فقد كانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن فى أخريات حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان الاسلام قد كمل فى كل أحكامه وتشريعه ، وكمل فى القدوة الفردية بتطبيق النبى كل ما استهدفه الاسلام ، وفى القدوة الجمعية بتطبيق المسلمين بوصفهم أمة ما استهدفه الاسلام من نظامه الاجتماعى ·

وبلغ النبى صلى الله عليه وسلم من كمال تطبيقه أن وصفه الله سبحانه بقوله (وانك لعلى خلق عظيم) (٢) والوصف الخلقى هنا عام فى كل أوضاع النبى الدينية والاجتماعية والقيادية ، فالنبى كانت له كل هذه الأوضاع مجتمعة ، ومقتضى وصف القرآن اياه بالخلق العظيم ، أنه بهذه الدرجة فى كل أوضاعه ، وليس هناك ما يقيد دلالة الخلق ويحصرها فى الجانب الاجتماعى ، وبلغ جيل النبى من كماله فى التطبيق أن وصفه الله سبحانه بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (٣) وهذه الخيرية أيضا عامة غير مقيدة وذلك لأنهم سلكوا من الوسائل ما رفعهم الى هذه المنزلة الفريدة كما تذكر الآية الكريمة فى ختامها ·

والقدوة لها أهمية بالغة من حيث تأثيرها فى سلوك المجتمعات ، فان من طبيعة الانسان ، بل الحيوان عامة ، الميل الى التقليد ، وخصوصا

---

(١) سورة المائدة ٣ ·
(٢) سورة القلم ٤ ·
(٣) سورة آل عمران ١١٠ ·

من تقليد من يكون فى موقع القيادة والزعامة ، أو فى موقع السيطرة والتسلط ، وابن خلدون يؤكد هذا المعنى فى تعبيره المشهور (المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) ٠

ومن هنا كانت أهمية أن يوجد الله نماذج تطبق الاسلام ، وتكون قدوة للناس يهتدون بهم ٠

وقد أراد الله أن تحدث فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مواقف تبرز فيها أهمية القدوة ، ويبدو فيها الفرق بين الأحكام التشريعية بدون قدوة ، وبينها مع القدوة ومن ذلك موقف المسلمين حينما أمرهم النبى أن يقصوا شعرهم فى أثناء مناسك الحج ، وكانوا قد تعودوا ألا يقصوا الا بعد انتهاء كل مناسك الحج فلم يستجب أحد من المسلمين متخوفين من تغيير شىء تعودوه فى الحج ، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم الى بيته غاضبا وهو يردد (هلك المسلمون هلك المسلمون) فسألته احدى زوجاته عما حدث ، فقال النبى (أمرتهم فلم يطيعوا) وقص عليها ما حدث ، فقالت : يارسول الله : هلا قصصت أنت شعرك أمامهم ، فأيقن النبى بصواب رأيها ، وخرج فقص شعره ، فتدافع المسلمون الى قص شعورهم حتى كأنهم من شدة تزاحمهم يشتجرون أو يقتتلون ٠

فأمر الرسول للمسلمين كان واضحا ، وهو أمر تشريعى ملزم ، وهم يعلمون ذلك ، ولكن القدوة كانت أقوى تأثيرا فى نفوسهم ، وكذلك شأن القدوة بصفة عامة ٠

القدوة العظمى

محمد صلى الله عليه وسلم

كانت عائشة رضى الله عنها فى قمة الوعى وبلاغة الايجاز معا حينما سئلت عن خلق النبى صلى الله عليه وسلم : فقالت : كان خلقه القرآن ، تعنى أن كل ما يصدر عنه كان تطبيقا للقرآن ، وهذا أشمل وأوجز وصف لخلق النبى ، وهو فى الوقت نفسه تأكيد لمضمون الحديث السابق عن حكمة الله فى أن يجعل الاسلام كاملا فى جانبيه النظرى والتطبيقى ، من حيث ان خلق النبى كان تطبيقا عمليا للقرآن ٠

والقرآن يوجه المسلمين الى الاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ويجعل الاقتداء به هو السبيل الى الله والى الآخرة المرجوة ، فيقول

تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) (١) ٠

ولكن الذى يحتاج الى شىء من تأمل ، والذى قد ينظر اليه بعض الناس نظرة قاصرة هو موضع القدوة فى خلق النبى وسلوكه ، فبعض الناس قد يتصور من النظرة السطحية أن مجال الاقتـــداء بالنبى هو العبادات ونحوها مما هو فى محيط الدين مباشرة ، ولـــكن الواقع أن النبى كان يتمثل فيه كل ما استهدفه الاسلام من تشريعه ، كما تكررت الاشارة الى ذلك فيما سبق ، من أن الاسلام يستهدف عدة أهداف بصفة أصلية وليست فرعية ، فيستهدف ايجاد العلاقة الفردية الصالحة فيما بين المؤمن وربه ، وايجاد المجتمع المحلى الصـــالح ، وايجاد الأمة الصالحة ، بما يقتضيه كل ذلك من متطلبات ، وقد كان النبى المثل الأعلى والكامل الصلاح فى كل هذه الجوانب ، فكان القمة التى يقتبس منهـــا محض اقتباس فى الجانب الفردى وهو العبادات ، وكان القمة التى يقتبس منها محض اقتباس فى مجال المجتمع المحلى ، بما يقتضيه من خلق اجتماعى ، وعلاقات انسانية ، وغير ذلك ، وكان القمة التى يقتبس منهـــا محض اقتباس فى مجال قيادة الأمة ، بما يقتضيه ذلك من خلق القيادة السياسية والعسكرية ٠

والحديث فى هذه المجالات بالقياس الى النبى صلى الله عليه وسلم أو فى أحدها لا يوفيه بحث أو بحوث محددة ، فضلا عن حديث فرعى جانبى كهذا الحديث ، ولذلك يقتصر الحديث عن الالمام ببعض الأمثـلة للجوانب الجوهرية فى الموضوع ، ولكن قبل الدخول فى أى تفاصيل ينبغى عدم اغفال الاشارة الى أن أعظم ما فى هذه القدوة هو اجتماع كل الجوانب مكتملة فيها ، فقد يتاح لشخص أن يبلغ القمة فى مجال العبادة الروحية ، ولكنه لا يستطيع أن يجمع بينها وبين المقـدرة على صراعات الحياة الاجتماعية واغراءاتهـــا وعثراتها ، واذا اســـتطاع الجمع بينهما فلا يستطيع أن يضيف الى ذلك المقدرة على صعوبة القيـــادة ومشاكلها وأعاصيرها وكهوفها ، واذا استطاع الجمع بين ذلك كله فلا يستطيع أن يبلغ فيها مجتمعة درجة عالية ، فضلا عن التفوق ، ولكن النبى صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى والقمة الشاهقة فى كل فضـــائل المجالات البشرية ، دون أن يكون له سواء قبل مبعثه وبعده شىء قط من مساوئها ، وقد يكون الجانب الدينى فى حياة النبى مشهورا للعامة والخاصة فلا يحتاج الى حديث عنه ، فيبقى أن نلم الماما سريعا بجانبين :

---

(١) سورة الأحزاب ٢١ ٠

الجانب الاجتماعى :

وهو يشمل عنصرين ، عنصر الأسرة ، وعنصر المجتمع المحلى ، وفى كليهما كان النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى والقدوة المثلى ، ومن أمثلة ذلك :

١ ـ فيما يتعلق بالأسرة ، قضى النبى معظم حياته ، حتى جاوز الخمسين من عمره مع زوجة واحدة هى خديجة ، وحين تشعبت الصلات بالقبائل ، وتعددت ظروف المسلمين ومشاكلهم كالهجرة والحاجة والاستشهاد تعدد أزواج النبى حتى بلغن تسعا ، وفى كل الأحوال ، سواء مع الزوج الواحدة ، والأزواج العديدات كان النبى مثالا لرب الأسرة ، وللزوج البالغ الحكمة والعدل وحسن العشرة ، ومن الأحاديث النبوية فى ذلك (خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى) وقد بلغ من حسن معاشرته لزوجاته أنه حينما كان ينشأ بينه وبين عائشة زوجه كما ينشأ بين كل زوجين كان أحيانا يستدعى أبا بكر أباها ليحكم أو ليسوى الخلاف بينهما ، وذات مرة تطاولت عائشة فى بعض قولها طالبة من النبى أن يعدل ، فلطمها أبوها حتى سال الدم من وجهها ، فلامه النبى قائلا (ما لهذا دعوناك) وأخذ يجفف دمها .

وفى رفقه بالأطفال كان مثالا رائعا ، ومن ذلك أنه كان يصلى بالناس فى المسجد فجاء الحسن ابن بنته وهو طفل صغير ، فركب فوق ظهر جده النبى صلى الله عليه وسلم ، فأطال سجوده طولا غير عادى ، حتى قال بعض أصحابه : لقد خشينا أن يكون قد حدث له شىء ، ثم سألوه عن سبب طول سجوده فقال (ان ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله) وارتحلنى أى جعلنى راحلة يركبها ، وكان ذات مرة يقبل بعض أولاده فعجب أحد الحاضرين من زعماء قبائل البادية وقال والله ان لى عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم ، فقال النبى (من لا يرحم لا يرحم) وفى رواية (وماذا أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة) .

٢ ـ فيما يتعلق بكونه صلى الله عليه وسلم عضوا فى المجتمع ، كان مثالا بالغ الاثارة للاعجاب والتأمل ، فقد كان له من المهابة والسلطة وحق الطاعة ما ليس لزعيم أو ملك أو ذى سلطان ، انه كان نائبا عن الله فى الأرض من حيث التشريع ، وطاعته طاعة لله ، وبالعكس من ذلك مخالفته ، وفى القرآن الكريم (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (١)

---

(١) سورة النساء ٨٠ .

ومع ذلك فقد كان يلغى كل هذه الفوارق من حيث آثارها حينما يكون عضوا فى المجتمع فى أى موقف يحتاج الى عمل أو تعاون ، وكانت هذه صفة دائمة له ، وليست مواقف فردية ، ومن المشهور مثـــلا أنه كان يحرص فى السفر على أن يكون كأى فرد آخر فى وضعه الاجتماعى ، فكان يتعاقب ركوب دابة مع أحد أصحابه ، كل منهما يركب مرحلة ثم ينزل للآخر ، فأراد صاحبه أن يؤثره بالركوب وحده ، فرفض النبى قائلا (لست أولى منى بالفضل ، ولا أقدر منى على المشى) وكانوا يهيئـــون الطعام ، فيتولى كل منهم عملا ، كل منهم يقول على أنا عمل كذا ، فقال النبى مرة (وأنا على جمع الحطب) وحينما تجمعت قبائل العرب نتيجة لجهود اليهود فى تجميعهم ضـد النبى والمســـلمين فى موقف الأحزاب المعروف ، حين حاصروا المدينة بقصد مهاجمة النبى والمسلمين فى عقر دارهم والقضاء على كيانهم الدينى ، ويتبع ذلك محو الاسلام ، واستشار النبى أصحابه وانتهت مشورتهم الى حفر خندق حول المدينة ، وأخـــذوا يحفزون ، كان النبى يحفر معهم كواحد منهم ، بل كان يبذل جهدا فوق طاقة أى منهم ، ومن ذلك ما يروونه حينذاك من أنه عرضت لهم فى أثناء الحفر كدية (كتلة شديدة الصلابة) لا تأخذ فيها المعاول ، فجاء النبى فضرب فيهـــا ضربة أو ضربتين ، فعادت كثيبا مهيـــلا ، أى رملا غير متماسك .

وكذلك فى كل موقف اجتماعى خيرى على الاطلاق ، ومن ذلك فى النجدة واغاثة المستغيث ، يصرخ ذات ليلة شخص فى أطراف المدينـة مستغيثا ، فيخرج الناس لنجدته ، فاذا النبى عائد من هناك على فرسه ، حيث سبقهم وعاد يطمئنهم ، وهو فى كل هذا ونحوه لا يفعل ما يفعل بصفته نبيا ولا متميزا بأى شىء ، وانما بصفته عضوا فى المجتمع ، ليعلم الناس أن أداء الواجب الاجتماعى فوق كل اعتبار ، ولا تحول دونه أية ميزة يحملها المرء ، بل ان الميزة أشد الزاما لصاحبها فى أداء هـــذا الواجب .

جانب القيادة :

من الواضح أن النبى صلى الله عليه وسلم بالاضافة الى صفته فى النبوة والرسالة ، كانت له وحده كل أزمة القيادة للمسلمين من جميع جوانبها السياسية والعسكرية وغير ذلك ، وكان بصفته (رسول الله) وباتصاله بالوحى واجب الطاعة ، ولا يحتاج فيما يأمر به الى توضيح أو تعليل ، فضلا عن المراجعة أو المحاورة ، على أساس أن كل ما يأمر به

هو من عند الله ، وفى القرآن الكريم عنه (ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى) (١) ، ومع ذلك اذا ألقينا نظرة عجلى على أسلوب قيادته تبهرنا جوانب العظمة فيها ، وللالمام ببعض الأمثلة فقط يبرز أمامنا ما يلى :

الشـــورى :

يبدو من النبذة السابقة أن النبى لم يكن فى حاجة الى الشورى ، ويتلخص هذا فى سببين :

١ ــ علمه وعلم المسلمين بأنه معصوم من الخطأ ، لاتصاله بالوحى ، فلم يكن يخشى أن يخطىء حتى يحتاج الى مشورة ، وهذا فى الناحيـة الدينية لا مجال لتعقيب قط فيه ، وكذلك فيما يتعلق بأمور الدنيا لم يكن الله ليتركه يخطىء ، خصوصا اذا كان الأمر يتصل بصفة القيادة ٠

٢ ــ علمه وعلم المسلمين بأن طاعته واجبة وجوبا يتصل بجوهر الدين وأساسه ٠

ومع ذلك كله كان النبى يلتزم التزاما واضحا لكـل المسـلمين ألا يقطع أمرا يتعلق بالمسلمين دون أن يستشيرهم فيه ، وكان شعاره حينما يهم بأمر عام (أشيروا على أيها الناس) وهو بهذا التعبير يفتح باب المشورة لكل المسلمين خاصتهم وعامتهم ، وليس لنفر أو طائفة منهم ، والسبب فى هذا واضح ، وهو أن النبى قدوة فى كل مجال ، فسلوكه فى القيادة قدوة لكل القادة فى حياته وبعد موته وأمثلة الشورى فى حياة النبى أشهر من أن تعرف ، ولكن الجانب الأعظم فيها أنه لم يكن يتردد فى النزول عن رأيه اذا رأى ما هو أصلح من رأيه ، ومن ذلك ما حدث فى موقعة بدر ، حين هيأ المسلمين للقتال ، فوضعهم فى مكان معين ، فجاء شخص من عرض الناس اسمه الحباب بن المنذر ، فقال : يارسول الله، هذا المنزل الذى أنزلت فيه الناس ، أهو وحى أوحى اليك ، أم رأى رأيته ، قال : بل رأى رأيته ، وكانت مياه بدر أمام المسلمين وفى متناول المشركين ، يستطيعون أن يحولوا بين المسلمين وبينها ، قال الحباب ، اذن فليس هذا بالرأى ، انما الرأى أن تجعل الماء خلف المسلمين ، حتى يحولوا بينه وبين المشركين ، ثم تغور ما أمام المسلمين من آبار ، فلم يتردد النبى فى أن ينزل عن رأيه وينفذ رأى الحباب الخبير بأرض موطنه

---

(١) سورة النجم ٢ ــ ٤ ٠

وطبيعتها ، بل كان يفعل ما هو أشد من ذلك ، ومن هذا موقفه عند الاستعداد لموقعة أحد ، فقد كان رأى النبى أن يبقى المسلمون داخل المدينة ، ويتركوا المشركين يهاجمونهم داخل المدينة ان أرادوا ، فيطبقوا عليهم من دروبها ومرتفعاتها ، ولكن المسلمين كانوا قد انتشوا بنصرهم فى بدر قبل ذلك ، فأصروا على الخروج لمواجهة أعدائهم خارج المدينة ، ومع أن النبى كره هذا الرأى ولم يقتنع به ، الا أنه نزولا على رأى غالبية المسلمين واصرارهم دخل بيته ولبس سلاحه ، وخرج ليقود المسلمين الى خارج المدينة ، وحينما رأى المسلمون الكراهية فى وجه النبى أرادوا أن يتراجعوا عن رأيهم لينزلوا على رأيه ، ولكن النبى يقول لهم (ما كان لنبى لبس سلاحه أن يضعه حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه) ومضى معهم نازلا على رأيهم رغم كراهيته له .

وحكمة القدوة واضحة فى هذه الأمثلة فان المبادىء العامة فى حياة الأمم أهم من المواقف العارضة ، بمعنى أن النبى يريد بمثل هذا الموقف أن يثبت مبدأ الشورى ولو ترتب عليه ضرر فى موقف عارض ، فهذا الضرر عارض يمكن تلافى آثاره ، ولكن انهيار المبادىء التى تقوم عليها حياة الأمم لا يمكن تلافى آثارها ، وقد أراد الله أن تكون الشورى من الأسس التى تقوم عليها سياسة الأمة الاسلامية ، ولذلك سجلها فى دستور الاسلام القرآن ، فجعل التزام الرسول الشورى بوصفه القائد والحاكم للأمة أمرا واجبا وليس اختيارا ، فى قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) (١) ويشير الى لمسلمين بوجوب التزامها ، بينهم ، حيث يجعلها صفة من صفات الايمان ، فى قوله تعالى (.. وأمرهم شورى بينهم) (٢) .

وقد كان تطبيق النبى صلى الله عليه وسلم للشورى أكمل تطبيق ، ففى كل أمر عام كان يلجأ الى الشورى ، الا أن يكون وحيا أوحى اليه .

الأمانة :

لا يقصد بصفة الأمانة بالقياس الى النبى صلى الله عليه وسلم الأمانة الخلقية الفردية ، فهذه كانت صفته منذ صغره وقبل أن يبعث رسولا ، وانما يقصد بها أمانة القيادة والمحافظة على الشئون العامة ، والحديث فيها ليس لنسبته الى النبى لذاتها ، وانما لكونه قدوة فيها لغيره ولمن يأتى بعده ممن يتولى أى مسئولية عامة للمسلمين .

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩ . (٢) سورة الشورى ٣٨ .

وأى حديث فى هذا المجال لا يستطيع أن يحصى الجوانب التى ضربها النبى مثالا لأمانة القيادة ، ومن أمثلة هذه الجوانب الزهد فى الدنيا ، والتعفف عن المال العام ، فهما من أشد الجوانب اغراء وغواية لذوى السلطان ، حتى ان بعض من يتولون المسئولية العامة يبدون فى أول أمرهم شبه زاهدين ومتعففين ، ويكونون حينئذ صادقين مخلصين ، ولكن اغراء السلطان ، وبريق المال العام ، يتسربان الى نفوسهم شيئا فشيئا ، فاذا أوداجهم منتفخة بطغيان السلطة ، واذا شهيتهم مفتوحة لابتلاع المال العام .

وقد كانت قدوة النبى فى هذا مثالا أعلى ، ليس بالقياس الى شخصه فحسب ، وانما ألزم أهل بيته وأقاربه هذا المسلك طوال حياته ، ومن أمثلة ذلك أن النبى مات ولم يترك فى بيته شيئا يورث ، وكان بيته لا يكاد يحوى أكثر مما يسد الرمق من الطعام ، وفى كثير من الأحيان كان هذا القدر الضئيل فيه غير موجود ، ومن المشهور أنه كان كثيرا ما يدخل بيته يسأل عن طعام يأكله فلا يجد شيئا قط يؤكل ، فيقول (اللهم انى صائم) ويتم يومه صائما ، وكان أهل بيته يحتملون معه هذا الجهد المعيشى ، حتى ان بعض زوجاته تؤكد قولها (ما شبع آل محمد من طعام البر يومين متتاليين قط) والبر هو القمح ، ولم يكن هذا عن عجز أو فقر فقد كانت كل أموال المسلمين ، بالاضافة الى المال العام من الزكاة والغنائم ، كل ذلك كان تحت سلطان النبى ، وعائشة زوج النبى تصف معيشتهم فى حياة النبى لابن أختها مصعب الزبير فتقول : كنا نرى الهلال ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما توقد فى أبيات رسول الله نار ـ تعنى لا يصنعون خبزا ، ولا يطبخون شيئا ، فيقول لها متعجبا : وماذا كان يعيشكم يا خالة ؟ ، قالت : الأسودان التمر والماء ، وأحيانا شىء من اللبن نشربه ، وأما عن أقاربه فمع بر النبى بهم ، وضربه المثل الأعلى فى صلة الأرحام الا أنه لم يتح لأحد قط منهم أن يستغل صلته به فى شىء قط من جاه أو سلطان أو مال أو شىء على الاطلاق ، فلم يكن يقدم أحدا منهم فى أية ميزة قط ، وانما يقدمهم فى مواقف التضحية ، ومن ذلك تقديمه عمه حمزة وابنى عمه عليا والحارث يوم بدر للمبارزة قبل اشتعال القتال ، ليواجهوا أعتى فرسان قريش ، ومن ذلك أنه بعد أن قسم الغنائم فى موقعة حنين ، جاءه أخواله من الرضاعة بنو سعد يتوسلون اليه أن يرد اليهم ما سبى من نسائهم وأولادهم ، وكانوا قد وزعوا ضمن الغنائم وأصبحوا ملكا لمن أخذهم ، فقال النبى لوفد بنى سعد (ما كان لى ولبنى هاشم من ذلك فهو اليكم) ثم شفع لهم لدى المسلمين فردوا اليهم ما أخذوه منهم ، ولكنهم بالقياس الى أقاربه بنى هاشم أمر أمرا برد

ما أخذوه ، وهكذا كان يجعل أقاربه دائما فى موقف التضحية ، وليس فى موقف المنتفع ، ليكون فى هذا قدوة لمن يتولون أمور المسلمين • ومن الأمثلة الباهرة فى ذلك أن ابنته فاطمة كانت زوجا لعلى بن أبى طالب ، وكانت ابنته الوحيدة حينئذ ، وكانت كل أعباء خدمة البيت عليها ، وليس لديها خادم ، وكان من أشق أعبائها السقى من البئر بالدلو ، حتى مجلت يداها من كثرة العمل والسقى ، والمجل ما يظهر فى باطن الكفين من آثار كثرة العمل ، وجاءت غنائم الى النبى وفيهـــا جوار اماء ، فقالوا لفاطمة : لو سألت أباك أن يعينك بخادم تخفف عنـــك بعض جهدك ، فذهبت الى أبيها صلى الله عليه وسلم وطلبت منه ذلك ، فرفض قائلا لها (ألا أدلك على خير من خادم ، تسبحين وتحمدين وتكبرين عقب كل صلاة ثلاثا وثلاثين) ، وعادت فلذة كبده لتعاود الجهـــد والكدح من جديد •

بل ان منع أقاربه صلى الله عليه وسلم من استغلال مكانته وسلطته لم يكن خلقا من النبى فحسب ، وانما أصبح تشريعا فى صلب الأحكام الاسلامية ، وذلك أن المورد المالى الثابت والدائم للدولة الاسلامية هو الزكاة التى تعادلها الضرائب فى النظم الأخرى ، ومن الأحكام التى طبقها النبى تحريم الصدقة على بنى هاشم ، ومن الصدقة الزكاة ، وليس لهم من المال العام حق فى شىء الا فى نصيب محدد من الغنائم التى يغنمهـــا المسلمون فى حروبهم الدينية ، وهذا مورد غير ثابت ولا محدد ، أما المورد الثابت الوحيد فهم محرومون منه ، وكل فقير من المسلمين له حق فى الزكاة الا بنى هاشم مهما بلغ أحدهم من الفقر فلا يحق له أخذ شىء من الزكاة ، وقد يبدو هذا تكريما لبنى هاشم ، ولكنه فى حقيقة الأمر ، وفى أهم ما يتضمنه ، حرمان لهم ، وكف لأيديهم عن مال الدولة ، لأن هذا المال حين يصل الى بيت المال يفقد صفة الصدقة والزكاة ، ويصبح مال المسلمين ، وميزانية الدولة ، وحرمانهم منه حرمان من مال الدولة ، وموضع العبرة والقدوة فى هذا واضح •

وأخيرا من روائع أمثلة القدوة فى قيادة النبى صلى الله عليه وسلم انه وهو فى قمة انتصاره وسلطانه ، وحينما أصبحت الدولة العربيـــة كلها فى قبضته ، وما حولها ترتعد أوصاله من قوته ، حينئذ يقف فى أخريات أيامه فى حجـــة الوداع ليقول للناس جميعـــا فيما قاله (من كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليشتمه ، ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليجلده) ومدلول هذا أنه بوصفه صاحب السلطة ينفـــذ شريعة الله ولا يجامل فى هذا أحدا ، أما فيما يتعلق بشخصه فانه من حيث الحقوق يضع نفسه فى مستوى أى فرد من المسلمين مهما صغر •

القيادة السياسية :

ومع أن هذا الجانب كغيره من جوانب حكمة النبى صلى الله عليه وسلم يحتاج الى بحوث مستقلة ، الا أن هذا الحديث يلتزم أن يكون عرضا لأمثلة فقط ، أو اشارة الى بعض العناصر ٠

وفيما يتعلق بالقدوة فى قيادة النبى السياسية ، فان من جوانبها أنه مع أن حب النبى جزء جوهرى من الايمان نفسه ، ومع أن تعظيم النبى واجلاله والتهذب فى معاملته واجب دينى أمر به القرآن نفسه ، فى مثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) (١) مع ذلك فان النبى نفسه فى كل موقف ، وفى الموقف الذى يتعلق بمصلحة المسلمين بصفة خاصة كان يتجاوز كل ما يتعلق بشخصه ، حتى ولو كان فى بعضه اساءة أو محاولة انتقاص من قدره من جانب عدوه ، وبينما بعض الزعماء القادة يجعلون صفتهم الشخصية ، بل وأحيانا مصالحهم الشخصية فى مقدمة ما يراعى فى تعاملهم مع الجهات الأجنبية ، فان النبى كان يجعل مصلحة الاسلام والمسلمين هى محور سياسته وتعامله مع أى جهة ، ومن أمثلة ذلك أن النبى والمسلمين جميعا كانوا يعلمون مدى حقد اليهود على النبى بصفة خاصة ، وما ينشرونه من اشاعات وتكذيب وسخرية منه ، بل تكررت منهم محاولة اغتياله صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة ، فمرة دسوا له السم فى طعام وهو فى ديارهم ، ومرة حاولوا القاء حجر ضخم عليه من سطح أحد بيوتهم بينما كان جالسا ، وكان اليهود أقلية فى المدينة ، وكان يستطيع أن ينتقم منهم لو أنه فكر فى مصلحته أو صفته الشخصية ، ولكنه رأى مصلحة الاسلام والمسلمين فى أن يوادعهم فى هدنة ، لعلهم يستقيمون ويكفون شرهم ، وقد وادعهم فعلا ، ولكنهم ازدادوا شرا ٠

ومن أمثلة ذلك فى صلح الحديبية ، أن سهيل بن عمرو مندوب قريش فى كتابة الصلح رفض أن تكتب فى وثيقة الصلح صيغة (محمد رسول الله) وقال : لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك ، فزمجر المسلمون غاضبين ، ولكن النبى رأى فى اتمام هذا الصلح بأى صيغة مصلحة للاسلام والمسلمين ، فطلب من على بن أبى طالب كاتب الوثيقة أن يمحو

---

(١) سورة الحجرات ٢ ٠

(رسول الله) فأبى على أن يمحو أعظم صفة تربط المسلمين بالنبى ، واشتد غضب المسلمين الذين كانوا أساسا غاضبين على الصلح نفسه من حيث المبدأ ، مصرين على أن يدخلوا مكة ، وألا يعودوا خائبين ، ولكن الرسول يمسك الصحيفة ويمحو بنفسه كلمة (رسول الله) ولم يكن غريبا أن يعرفها وهو أمى ، لأنها آخر كلمة أملاها ، فضلا عن أنها منقوشة على خاتمه الذى كان يحمل نقش (محمد رسول الله) ، ولو نظر النبى الى صفته الشخصية لرفض أن يمحو الصفة الوحيدة التى تربطه بالمسلمين ، والتى تقوم عليها مكانته بينهم ، ولكنه نظر الى مصلحة الاسلام والمسلمين ، وقد أيده القرآن فى نظرته ، وسمى هذا الصلح فتحا مبينا ، ونزلت فيه سورة من القرآن ، هى سورة الفتح .

وكذلك موقف النبى من زعماء قريش ، وزعماء كثير من القبائل مع أنهم وجهوا اليه كل عداوة ، وكل اساءة ، وقد استمرت حروب بعضهم ضده أكثر من عشرين عاما ، ومع ذلك حين أمكنه الله منهم لم يعر صفته الشخصية أى اهتمام فيما يتعلق بعواطفه نحوهم ، بل كان يسبغ عليهم من عطاياه فيضا هائلا كان يملأ نفوسهم عجبا منه ، فميلا اليه ، فدخولا فى دينه ، وأيضا كان هذا الخلق فى النبى صلى الله عليه وسلم تطبيقا للقرآن ، فقد أشار له القرآن بأن مثل هذه النوعية من الناس انما تقاد نفوسهم بالعطاء وشعورهم بالنفع ، كقوله تعالى (ومنهم من يلمزك فى الصدقات فان أعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذا هم يسخطون) (١) وقد سماهم القرآن المؤلفة قلوبهم ، وجعلهم مصرفا من مصارف الزكاة التى حددها الله سبحانه فى قوله (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله) (٢) ولا شك أن النبى لم ينس اساءتهم اليه ، ولا أن نفسه كانت تجيش ألما بما يصدر منهم ، وقد سجل القرآن هذا فى مثل قوله تعالى (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) (٣) ولكن مصلحة الاسلام أو المسلمين عنده هى كل شىء ، وفى التودد اليهم كسب للاسلام والمسلمين ، فضلا عن أن هذا كان أثرا من آثار خلقه العظيم .

---

(١) سورة التوبة ٥٨ .
(٢) سورة التوبة ٦٠ .
(٣) سورة الحجر ٩٧ .

القدوة الثانية

خليفة رسول الله أبو بكر

وقبل الحديث عن الخليفة الصديق نقول :

ليس الهدف من هذا الحديث سرد تاريخ أبى بكر رضى الله عنه ، فقد كتبت فى ذلك وفى مزاياه سواء قبل خلافته وبعدها كتب كثيرة ، وانما الهدف من هذا الحديث ينحصر فى زاوية معينة ، هى زاوية تكامل النموذج الاسلامى ٠

ويمكن اجمال أهم معالم تكامل النموذج الاسلامى من حيث التسلسل فيما يأتى :

١ ـ الاسلام ـ كأى دين سماوى ـ ليس القصد منه قط أن يعتنقه الناس عن طريق الالزام مهما كان ذلك ممكنا ، وانما القصد الوحيد أن يكون الدين الحق واضحا ومفهوما للكافة ، وبعد ذلك كل انسان له كامل الحرية فى أن يدخله أو يرفضه ، وفائدة هذا الوضوح أن يكون حجة على الناس يوم الحساب ، أما دخول الناس فيه فلو كان الله يريده لتحقق هذا دون جهد من أحد ، وكل هذه المعانى شديدة الوضوح فى القرآن نفسه ، بل تكررت كثيرا ٠

وقد تحقق هذا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث اكتمل الاسلام فى حياته عقيدة وشريعة بصورة شديدة الوضوح للجميع ، واستمرار هذا التوضيح للناس واجب على المسلمين ٠

٢ ـ تلى الوضوح مرحلة أخرى هى تيسر الدخول فى الاسلام لكل من يريد الدخول فيه ، حتى تكتمل حجة الله على الناس ، وذلك أن الحق قد يكون واضحا ، ولكن بعض الناس لا يستطيعون اعتناقه أو اعلانه خوفا من أى ظروف محيطة بهذا الحق ، وقد اقتضى هذا ضرورة أن توجد قوة تحمى من يريد الدخول فى هذا الدين الحق ، ومادام الله سبحانه يريد أن يكون هذا الدين حجة على الناس جميعا فلابد أن توجد دولة اسلامية قوية ، تحمى المؤمنين بهذا الدين فى داخلها ، وتيسر الدخول فيه لكل من يريد من خارجها ، ولو ظل الاسلام دينا نظريا بدون قوة تحميه ، لتعرض الداخلون فيه للاضطهاد ، كما حدث فى بدء الاسلام ، ولمنع الخوف والضعف كثيرا من الناس أن يدخلوه ، كما حدث أيضا فى بدئه قبل أن يكون أمة ودولة ، فلما تحقق وجود القوة التى تحميه تيسر دخول الناس فيه أفواجا ، كتعبير القرآن الكريم (اذا جاء نصر الله

والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره) (١) ، وهذه القوة التى يسرت لأفواج الناس أن يدخلوا فى دين الله تحققت أيضا فى حياة النبى ، فى صورة دولة متكاملة ٠

واستمرار وجود هذه القوة ـ لحماية المسلمين ، ولتيسير الدخول فى الاسلام لكل راغب ـ واجب على المسلمين ، وهذا من جوانب حكمة الله فى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (٢) ٠

٣ ـ الجانب التطبيقى للاسلام يقتضى اثبات أن هذا الدين ميسور التطبيق لكل الناس ، لأنه لا يخاطب طائفة معينة ، ولا مستوى خاصا ، وحتى لا يدعى أحد أن تطبيق هذا الدين غير ميسور ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، فقد أوجد الله له النماذج الفردية ، وفى قمتها النبى صلى الله عليه وسلم ، والنموذج الجماعى فى صورة الأمة الاسلامية ، لتكون هذه النماذج أيضا حجة لله على الناس ، بأن هذا الدين ميسور التطبيق العملى ، وهذه هى النماذج الفردية ، والنموذج الجماعى كلها قائمة فى أكمل صورها ، وقد حدث هذا أيضا فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وبهذا يكون النبى قد ترك الاسلام كاملا من ناحيتيه النظرية والتطبيقية ٠

أبو بكر الصديق

كان الله سبحانه أراد أن يغلق كل أبواب الحجة على عباده بايجاد هذين القمتين بعد النبى صلى الله عليه وسلم ، أبى بكر وعمر ، وذلك فى المجال التطبيقى ٠

ففى المجال التطبيقى قد يقال أن قدرة النبى ـ بوصفه قائدا وصاحب سلطة ـ على تطبيق الاسلام تطبيقا كاملا فى قيادته وسلطته ، هى قدرة فوق طاقة الناس ، ولا يستطيع غيره أن يفعل ما فعل ، وتكون هذه حجة للذين يريدون التفريط فى تطبيق الاسلام ، فأراد الله أن يبطل هذه الحجة ، فيوجد لهم أكثر من نموذج بعد النبى ، وكان هذا أكمل ما يكون فى قيادة أبى بكر وعمر بالذات ، حيث استطاعا أن يحافظا على الطابع الاسلامى للدولة كاملا ، كما تركه النبى ، بل حدثت بعد النبى أوضاع وبرزت مخاطر ، فاستطاعا أن يخضعاها للطابع الاسلامى الكامل الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم ٠

(١) سورة النصر ٠ (٢) سورة الأنفال ٦٠ ٠

وافراد أبى بكر وعمر بهذا الحديث دون بقية الخلفاء الراشدين مع أنهم جميعا أعلام الاسلام وقممه الشامخة ، لأن أبا بكر وعمر هما اللذان استطاعا أن يحافظا على طابع الدولة الاسلامية كما تركها النبى ، أما فى خلافة عثمان وعلى رضى الله عنهما فقد نبتت فى الدولة أشواك من جذور الجاهلية العربية وعصبياتها ، كما بدأت تتدفق عليها فتن من الأقطار الأعجمية التى أدخلها الاسلام تحت رايته ، وأثمر هذا كله ما هو معروف من الفتن والانقسامات وما تلى ذلك ·

وسياق هذا الحديث يقتضى الاقتصار فيما يتعلق بأبى بكر رضى الله عنه على المواقف والمزايا التى انفرد بها ، والتى توحى بأن اختيار الله له ليخلف النبى كان فى أبرز ما يدل عليه أن الله يريد باستخلاف أبى بكر أن يكمل نموذج الدولة الاسلامية ليبقى طابعها الاسلامى كاملا كما تركه النبى ·

ومن أبرز المواقف التى انفرد بها أبو بكر ، والتى يشهد التاريخ ويشهد الصحابة أنفسهم أن أحدا منهم لم يكن ليملأ مكان أبى بكر ، وكذلك مما يدل على آثار حكمة الله فى اختيار أبى بكر حينئذ خليفة ، أن أبا بكر كان فى كل هذه المواقف التالية على غير طبيعته ونهجه المعروف عنه :

١ ــ غلق باب الفتنة ، ومنع انقسام المسلمين ، ومع أن وحدة المسلمين من أبرز الأهداف التى أكد الله سبحانه الأمر بالتزامها ، الا أنه فور موت النبى صلى الله عليه وسلم بدأت بوادر الانقسام ، وتمثل هذا في تجمع الأنصار فى سقيفة حى من أحيائهم هم بنو ساعدة ، ليناقشوا تولى الحكم ، وجثمان النبى مسجى لم يدفن بعد · والمهاجرون غارقون فى ذهولهم من مفاجأة موت النبى ، حتى بلغ الذهول من عمر بن الخطاب أن أخذ يصول ويجول مزمجرا بقوله : من زعم أن محمدا قد مات ضربت عنقه ·

وكان المفروض أن يكون أبو بكر أشد الناس ذهولا ، لانه لا نزاع فى أنه كان أوثق الناس على الاطلاق صلة بالنبى ، سواء قبل بعثته وبعدها ، ولا نزاع فى أن كلا منهما كان أحب الى الآخر من أى رجل آخر على الاطلاق ، ولكن أبا بكر حين أحس بالفتنة تفغر فاها ، استجمع كل ما لديه من قوة ، ونزع كل ما فى نفسه من ذهول ليغلق أخطر باب فتنة فى الاسلام ، وذلك أن كل انقسام بين المسلمين بعد ذلك كان انقساما فى السلطة ، أما فتنة الأنصار لو نجحت فستكون انقساما يؤدى

الى وجود دولتين فى الجزيرة العربية نفسها ، فقد بلغ حماس الأنصار لتولى السلطة أن كان مما قالوه حينئذ للمهاجرين ، منا أمير ومنكم أمير ، وبطبيعة الحال ستنقسم القبائل ، بعضها يتبع الأنصار ، وبعضها يتبع المهاجرين ، لا سيما أن المهاجرين من مضر ، والأنصار من ربيعة ، وبين النسبين ما بينهما من صراعات الجاهلية ، فستكون لربيعة دولة ، ولمضر دولة ، ولن توجد القوة الموحدة التى توجه الى الصراعات العديدة خارج الجزيرة ، كما حدث فى الفتوحات الاسلامية .

فاذا أبو بكر يكون أسرع الناس افاقة من الذهول ، بل يفيق جميع المسلمين من ذهولهم حين يقف بينهم قائلا بأشد الحزم : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حى لا يموت ، ثم تلا عليهم قوله تعالى (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ومع أن عمر كان قد سمع هذه الآية كثيرا الا أنه قال يومئذ : والله كأنى أسمعها لأول مرة ، وانطلق أبو بكر ليغلق باب الفتنة تاركا جثمان النبى صلى الله عليه وسلم ، واصطحب معه عمر وأبا عبيدة ، وقد وفقه الله فعلا فى حسم الفتنة ، وانتهى الموقف باجماع المسلمين على اسناد الخلافة اليه ، وما كان أحد غيره ليحسم هذه الفتنة ، وهذا عمر أقوى المسلمين صلابة وحزما كان غارقا فى ذهوله الى الدرجة المشار اليها ، وكان يمكن حينئذ أن يعلن الأنصار توليهم السلطة ـ وقد حاولوا فعلا ـ ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث من انقسام .

وكما بدأ أبو بكر خلافته بغلق باب الفتنة ، كذلك ختمها فى آخر لحظات حياته بغلق باب آخر من الانقسام كان يوشك أن يفتح على مصراعيه ، وذلك فى استخلافه عمر بن الخطاب بعده .

وموضع العبرة فى هذا الموقف ، أن أبا بكر كان فيه مخالفا لما كان ينتظر منه ، فأبو بكر أعلم الناس بأن كل الأمور العامة فى الاسلام تقوم على الشورى ، التى أكدها القرآن ، وطبقها النبى ، وكان أبو بكر أحرص الناس على أن يلتزم خطى النبى خطوة خطوة ، بل أنملة أنملة ، ولكن الموقف حافل بالخطورة من أبواب عديدة ، ففتنة الأنصار وتطلعهم الى الحكم مازال قائما ، والمرتدون الذين ارتدوا عن الاسلام ثم عادوا اليه يمكن أن يرتدوا مرة أخرى اذا اضطرمت الفتن واختلت قوة الدولة الاسلامية ، وهناك باب آخر من أشد الأبواب خطورة فى انقسام المسلمين كان يوشك أن يفتح ، وهو تطلع بنى هاشم الى السلطة وخلافة النبى ، وقد تحدثت ألسنة بهذا منهم ، وتحدثت ألسنة أخرى تحرضهم ، كما حرض خالد ابن سعيد بن العاص بعض بنى هاشم ، لائما لهم على أنهم تركوها

لأبى بكر ، وحين يقوم بنو هاشم فى هذا الجو المضطرم بالفتن سينافسهم آخرون كما حدث بعد ذلك .

كل هذا ونحوه جعل أبا بكر يضطر الى اغلاق هذه الأبواب جميعا باستخلاف عمر بن الخطاب بالذات ، فقد استدعى أبو بكر وهو يحتضر عثمان بن عفان ، وأملى عليه استخلاف عمر ، فرحب المسلمون بهذا الاختيار ، لأنه لم يكن هناك خلاف يومئذ فى أن عمر أصلح المسلمين لهذا الموقع ، وفى أنه الرجل التالى لأبى بكر فى المنزلة عند النبى صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ ومن المواقف التى انفرد بها أبو بكر ، ولم يكن غيره ليغنى فيها غناءه ، موقفه فى حروب الردة ، فقد فوجىء المسلمون أن القبائل ما ان علمت بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم حتى بدأت تتمرد اما على الاسلام نفسه معلنة رجوعها عنه ، واما على سلطة قريش معلنة امتناعها عن أداء الزكاة ، لأنها فى تصورهم ، أو ادعائهم هى جزية واتاوة تفرضها قريش عليهم ، وعدم الاعتراف بفرضية الزكاة بوصفها من صلب التشريع الاسلامى كفر بالاسلام ، ومن المعروف أنه لم يثبت على الاسلام حينئذ الا مكة والمدينة ، وأن سائر القبائل أصبحت حربا على المدينة ، بوصفها عاصمة الاسلام ، وتجمعت حشود القبائل حول المدينة لمهاجمتها ، وأحس المسلمون بأنهم قلة قليلة بالقياس الى حشود القبائل التى تمدها من خلفهم حشود أخرى ، فأخذوا يستكينون الى السلامة والخوف من الحرب وآثارها على المدينة ، وأخذ أبو بكر يستشير المسلمين فيما يفعل ، فكلهم أشار عليه بعدم الحرب ، وأخذ بعضهم يتلمس لذلك من الحجج ما يعلل به وجهته ، ومنها أن كثيرا من القبائل لم ترفض الاسلام من حيث هو ، وانما رفضت أداء الزكاة ، وأبو بكر يحاورهم مؤكدا لهم أن رفض الزكاة على هذه الصورة هو كفر بالاسلام ورجوع عنه ، وكان عمر حينئذ غائبا ، وأبو بكر يمنى نفسه بأن عمر بقوته وصلابته المعروفة سينصر رأيه فى الاتجاه الى الحرب ، وجاء عمر ، فعرض أبو بكر عليه الموقف ، وطلب رأيه ، فمال عمر الى عدم الحرب ، محتجا بأن المدينة لا طاقة لها بقبائل العرب ، فاذا أبو بكر يثور ثورة جامحة ، يصب مقدمتها على عمر ، قائلا له فى تأنيب شديد : أجبار فى الجاهلية ، خوار فى الاسلام ؟ ، والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم يقاتل معى أحد لقاتلتهم وحدى ، ما قام هذا السيف فى يدى ، وشهر أبو بكر سيفه ، ومضى ناحية حشود القبائل ، فامتلأ المسلمون حماسا للقتال ، وعادت اليهم روح الجهاد التى كانت تظلها راية رسول الله صلى الله

عليه وسلم ، ثم كان ما كان من بلاء المسلمين فى هذه الحروب العاتية التى كاد يفنى فيها صفوة أصحاب النبى ، ومع أن هذه الحروب انتشرت وتفرقت فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، من جنوبها فى اليمن الى شرقها فى مناطق البحرين ثم نجد ، الى شمالها فى التخوم المحاذية لأرض فارس والروم ، ومع أن أبا بكر جعل لكل جيش من جيوشه هذه قائدا الا أنه كان القائد الحقيقى لهذه الجيوش ، بمواصلة توجيهاته وأوامره ، بل وبخططه العسكرية أيضا ، بحكم معرفته الواسعة بطبائع القبائل وعلاقاتها ومواقعها ، وما يقتضيه هذا من خطط معينة .

وموضع العبرة البالغة فى هذا الموقف ، أن موقف أبى بكر حينئذ كان مخالفا لطبيعته التى عرف بها ، فقد كان أبو بكر معروفا باللين ورقة الطبع ، فكيف يتحول الى أشد المسلمين صلابة وشدة ، وكيف تصغر بجواره حينئذ قوة كل الأقوياء ، وبطولة كل الأبطال ، وقد شهد له على كرم الله وجهه بهذا ، وكان على أعظم فرسان العرب ومقاتليهم غير منازع ، فخطب ذات يوم يقول للمسلمين : ناشدتكم الله ، من تعلمون أشجع الناس ؟ قالوا : أنت ، قال : أما انى ما بارزت أحدا الا انتصفت منه ، ولكن أشجع الناس أبو بكر ، وكرهم بموقف أبى بكر من حروب الردة ، وكأنه يقول كرم الله وجهه ان شجاعة الفروسية شىء ، وشجاعة المواقف التاريخية شىء آخر ، كادت تهتز أو تتداعى عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وليكون قدوة لمن يريد أن يقتدى .

وفى هذا أثر من آثار حكمة الله فى اختيار أبى بكر بالذات للخلافة حينئذ ، ليكون بمواقفه المخالفة لطبيعته تثبيتا لقواعد الدولة الاسلامية التى كادت تهتز أو تتداعى عقب وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وليكون قدوة لمن يريد أن يقتدى .

٣ ــ ومن المواقف التى انفرد بها أبو بكر بدء الفتوحات الاسلامية خارج الجزيرة العربية ، وكان بدء ذلك تصميمه الشديد على تسيير جيش أسامة ابن زيد .

فقد كان أبو بكر أعمق الناس فهما لما يصدر عن النبى ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى آخر حياته قد جهز جيشا صغير العدد ، لا يتجاوز ثلاثة آلاف ، ولكنه يضم عددا كبيرا من صفوة أصحابه ، وجعل على قيادة هذا الجيش أسامة بن زيد ، وهو غلام فى نحو الثامنة عشرة من عمره ، ووجهه نحو تبوك على مشارف أرض الروم ، وتوفى النبى صلى الله عليه وسلم والجيش مازال فى ضاحية المدينة لم يبرحها ، واضطرب المسلمون اضطرابا شديدا بموت النبى ، ثم بظهور ارتداد العرب عن الاسلام ، وجيش

أسامة مازال لم يبرح المدينة ، وحدث شبه اجماع من المسلمين على أن مصلحة المسلمين تقتضى عدم انفاذ جيش أسامة لحاجة المدينة اليه فى الدفاع عنها ضد حشود المرتدين ، بالاضافة الى بلبـــلة أخرى فى داخل الجيش تتعلق بعدم راحة نفوس بعض من كبار المسلمين لتأمير غلام ناشىء عليهم ، وكانت كل الظروف تستدعى فى واقعها عدم تسيير هذا الجيش ، ولكن أبا بكر الذى كان أعمق الناس فهما لكل ما يصدر عن النبى ، وأشـــدهم حرصا على ترسم خطاه أنملة أنملة ، فهم أن اعداد النبى لهذا الجيش الصغير لا يقصد به الغزو أو الفتح ، وانما هو رمز واشارة من النبى للمسلمين أن يتجهوا بالاسلام الى خارج الجزيرة العربية كما كان جيش مؤتة ، فأصر على تسيير هذا الجيش مهما كانت الظروف ، وقد رد على مخاوف المسلمين من مهاجمة المرتدين المدينة قائلا بكل ما يملك من قوة واصرار : والله لو علمت أن السباع ستتخطفنى بالمدينة لأنفـذت جيش أسامة . وأنفذ جيش أسامة كما أعده النبى ، وكل ما فعله أن استأذن أسامة فى أن يبقى معه عمر بن الخطاب مستشارا له ، وقد حقق هذا الجيش هدفه ، فى القبائل العربية التى حاربها على حدود الروم ، وأحدث صدى نفسيا فى القبائل الأخرى ، وعلى الأخص فى الروم أنفسهم ، حيث بدأوا يشعرون بخطورة القوة الاسلامية الجديدة .

ثم اشتعلت الحروب بين جيوش أبى بكر والمرتدين من قبائل العرب فى كل أنحاء الجزيرة ، وما ان استقر الاسلام فى الجزيرة العربية بعودة المرتدين الى الاسلام حتى دفع أبو بكر بثقل جيوشه الى خارج الجزيرة ، فبدأ بالفرس ثم بالروم وهما أكبر قوتين فى العالم حينئذ ، وذلك فى المواقع والأحداث التاريخية المعروفة .

وكل هذه المعارك الطاحنة ، والصراعات الهائلة ، كانت خلال سنتين اثنتين ، هما مدة خلافة أبى بكر ، التى رغم قصرها تحول فيها أبو بكر ـ وهو اللين الخلق ، الرقيق الطبع ـ الى أسد هصور ، يزأر فى المدينة ، فترتعد أعتى القلوب فى الجزيرة العربية ، وتزلزل كل العروش الشامخة خارجها ، وكان من آثار صرامته وعنفه فى حماية الاسلام حينئذ ما حدث من خلاف بينه وبين عمر بن الخطاب حول قيادة خالد بن الوليد ، فقد رأى عمر أن خالدا لم يلتزم مثالية السلوك الاسلامى فى بعض حروبه حينئذ ـ فى تفاصيل معروفة ـ فطلب من أبى بكر أن يعزل خالدا عن القيادة ، فقال أبو بكر مصمما : والله لا أشيم (لا أغمد) سيفا سله الله على أعدائه ، وكان النبى قد سمى خالدا سيف الله ، ثم حينما اشتدت قوة الروم على المسلمين ، قال أبو بكر : والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد ، وقد أنساهم خالد حقا وساوس الشيطان الذى ملأهم غرورا وتعاليا .

وهكذا قضى أبو بكر فى الخلافة نحو سنتين ، كانتا كأنهما دهر طويل عريض ، ومع أن كيان الدولة الاسلامية انتقض وانهار بعد وفاة النبى ، الا أن أبا بكر بمواقفه التى انفرد بها استطاع أن يعيد بناءها ، فترك دولة راسخة فى الداخل ، وعلى وشك أن تطوى عروش الأكاسرة والقياصرة فى الخارج .

٤ ـ وكذلك استطاع أبو بكر الخليفة فى مسلكه ومعيشته وزهده أن يحافظ على النموذج الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة لقادة الأمة ، ونسوق من ذلك ناحيتين :

(أ) احداهما التعفف عن المال العام ، حتى انه حين تولى الخلافة أبى أن يمد يده الى بيت المال ليعول نفسه منه ، وظل يذهب كل يوم الى السوق يزاول التجارة ليكتسب منها ما يقوت به نفسه وعياله ، ورأى المسلمون فى هذا خسارة جسيمة على المصلحة العامة ، حيث ان شئون الدولة وخصوصا فى تلك الحقبة الرهيبة كانت أحوج الى كل لحظة من وقته ، فمازالوا به حتى اقتنع بأن يتفرغ لشئون الخلافة فى مقابل أن يقدروا له نفقة من بيت المال ، وكانت هذه النفقة كنفقة أى فقير ، مع أن أبا بكر منذ الجاهلية كان من أشهر تجار قريش ، ومن سادتها المعدودين ، وكان ينتظر من مثله أن يعيش حياة الترف والبذخ ، أو اللين والرفاهية على الأقل ، ولكنه كان ـ وخصوصا فى خلافته ـ مثالا للزهد والتقشف ، وقد حدث فى خلافته أن جاء ذو الكلاع الحميرى ، وهو أحد ملوك اليمن ذوى العراقة والمجد ، وهو يرسم فى خياله صورة لملك الملوك خليفة المسلمين الذى دانت الدنيا لسلطانه ، فلبس أفخر أنواع الديباج والحرير ، وجعل على رأسه قلنسوة محلاة بأثمن الجواهر ، وذهب ليلقى خليفة المسلمين وهو فى عرشه ، فاذا خليفة المسلمين أبو بكر جالس على حصى المسجد ، وعليه ثوب خشن من صوف ، لا يزيد عن ثوب أى فقير من عامة الناس ، فخجل ذو الكلاع ، وذهب فالقى عنه كل ما كان يلبس ، ولبس مثل أبى بكر ، ثم لبس ملوك اليمن جميعا مثل هذا .

وموقف أى صاحب سلطة من المال العام مقياس من أهم المقاييس لأمانته وصلاحيته لمنصبه .

وقد بلغ من تحرج أبى بكر من المال العام أن أوصى ورثته عند موته بأن يردوا الى بيت المال كل ما أخذه منه ، وقد فعلوا .

(ب) التشبث بأقصى ما يملك بتطبيق تشريع الله ، وتتبع سلوك النبى صلى الله عليه وسلم فى كل صغيرة وكبيرة ، وقد حقق ذلك فى أكمل

صورة وأوفاها ، وأهم ما فى هذا من عبرة أن النموذج التطبيقى تكرر بعد النبى ، حتى لا يدعى مدع من قادة الأمة أن تطبيق شريعة الاسلام كاملة ليس فى مستطاع أحد غير النبى ، وقد كانت أولى اللبنات فى الأساس الذى بنى أبو بكر سلطته عليه ، أن صفته الأولى أو الوحيـــدة أن يطبق شريعة الله ، فان لم يوفق فى ذلك ، فليس من حقه أن يلى أمر المسلمين ، ومن حقهم أن يخلعوا طاعته ، فقد خطب المسلمين عقب توليه الخلافة ، فكان من أول ما قال (انى وليت عليكم ولست بخيركم ، أطيعونى ما أطعت الله ، فان عصيت فلا طاعة لى عليكم) ٠

وثمرة هذا الموقف كله أن التشريع حينئذ يكون هو السلطة الحقيقية ، وصاحب السلطان ليس الا منفذا ومطبقا للتشريع ، ومن المعروف أن أهم الفروق بين الأمم المتحضرة ، والأمم المتخلفـــة ، أن الأمم المتحضرة يكون القانون فيها هو الحاكم ، والأمم المتخلفة يكون السلطان فيها هو الحاكم ٠

ومن هذا يتضح أن الاسلام يريد للأمة الاسلامية أن تكون فى أعلى درجة من الحضارة ٠

وأما عن التاريخ الشخصى لأبى بكر :

فهو عبد الله وكنيته أبو بكر ، وأبوه عثمـــان بن عامر ، وكنيتـه أبو قحافة ، ولقب بعتيق ، ولكن اللقب الذى اشتهر به هو الصديق ، اما لأنه كان من أشهر الناس بالصدق ، واما لأنه كان دائما أسرع الناس وأشدهم تصديقا للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكلتا الصفتين فيه ٠ وهو من بنى تيم ، حى من أحياء قريش ، وأمه أيضا من بنى تيم ٠

ولد بعد مولد النبى بنحو سنتين ، ومن المعروف أن النبى ولد عام الفيل ٠

وكان قبل الاسلام وبعده من أشهر تجار مكة ، ومن سادتهم البارزين، وكانت التجارة تدر عليه مالا كثيرا ، ولكنه كان ينفقه فى سبيل الله ، ومما عرف عنه أنه كان يشترى العبيد الذين يعذبون فى الاسلام ، ويعتقهم لوجه الله ، ومنهم بلال ، وظل كذلك فى خبرته بالتجارة ، وانفاقه فى سبيل الله بغير حدود ، ولكن شهرته بأنه ألصق الناس بالنبى وأقربهم اليه ، وبمواقفه فى الاسلام غطت على كل شىء فى حياته ٠

وصلته بالنبى قديمة قبل الاسلام ، فلم يعرف صديق للنبى قبل الاسلام الا هو ، فهو صديق (العمر) للنبى صلى الله عليه وسلم طوال حياته ، والمسلمون جميعا كانوا يعرفون هذا ، وكان النبى يغضب غضبا شديدا ممن يؤذى أبا بكر ٠

وتوفى أبو بكر بعد النبى بنحو سنتين ، فى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الثانية سنة ثلاث عشرة للهجرة ، بعد مرض استمر أسبوعين ، ودفن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم .

القدوة الثالثة

عمر بن الخطاب

وأيضا ليس الهدف من هذا الحديث سرد تاريخ عمر رضى الله عنه ، فالكتب والبحوث حافلة به ، وانما نريد الالمام بالجانب الذى يربطه بالهيكل العام للاسلام فى السياق الذى نحن بصدده ، وهو القدوة فى الجانب التطبيقى .

فالرسول كان القدوة الكاملة للاسلام عقيدة وشريعة وسلوكا ، من حيث التطبيق العملى الكامل فى صورته المثلى ، ليكون فى جانب من جوانب وضعه أنه حجة على الناس فى أن الاسلام ليس تشريعا نظريا فحسب ، وانما هو تشريع عملى ، يمكن تطبيقه تطبيقا كاملا .

ثم جاء أبو بكر ليحقق ـ فيما يحقق ـ الفكرة نفسها فى خلافته ، مضافا اليها أنه ليس نبيا ، وانما هو ـ من حيث السلطة ـ أحد المسلمين، ليكون أيضا حجة لله على الناس ـ وخصوصا القادة ـ أن تطبيق التشريع الاسلامى عمليا لا يحتاج الى أنبياء .

ثم جاء عمر ليحقق فيما يحقق أيضا الفكرة نفسها فى خلافته ، مضافا اليها أن الدولة اتسعت وترامت أطرافها ، وضمت العرب والعجم وأجناسا وشعوبا من كل لون ، وفى كل وجه من وجوه الأرض ، ليكون زيادة فى حجة الله على الناس ـ وخصوصا القادة ـ أن تطبيق الاسلام عمليا فى أكمل صوره ، ليس وقفا على النبى وحده ، ولا على شخص قد يدعى مدع أنه ليس ككل الناس وهو أبو بكر ، أو أن ما استطاعه أبو بكر لا يستطيعه أحد غيره .

فجاء الله بعمر ، وكان مما كان مما يعرفه المسلمون وغير المسلمين عنه ، من حزم وعزم وعدل وزهد ، حتى استطاع رغم ترامى أطراف الدولة وتعدد شعوب أبنائها فى عهده أن يبقيها على النموذج الاسلامى الكامل الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذه بعض أمثلة مما تميز به عمر .

١ ـ كان لديه طبيعة الاستعداد لاستخدام عقله الكبير فى الاجتهاد والتصرف فى اطار التشريع الاسلامى ، بينما كان شعار أبى بكر : كيف أصنع شيئا لم يفعله رسول الله ؟ ولكن عمر كان يقدر ضرورة أن الأحوال تتغير ، وأن هذا التغير يستوجب اتخاذ موقف دينى يناسب كل شىء طارىء ، وكان من أشهر مواقفه فى هذا موقفه من جمع القرآن ، وكان ذلك فى خلافة أبى بكر ، فقد وجد عمر أن حفاظ القرآن أخذوا يتناقصون بالاستشهاد فى حروب الردة ، وهو يدرك أن المسلمين أمامهم حروب طويلة عديدة داخل الجزيرة وخارجها ، وكان القرآن مكتوبا متفرقا كما نزل على النبى ، فرأى عمر ضرورة أن يجمع القرآن كله فى مصـــحف واحد ، باشراف الباقين من حفظة القرآن وكانوا يسمون القراء ، وفزع أبو بكر من هذه الفكرة قائلا : كيف أفعل ما لم يفعله رسول الله ، ولكن عمر مازال يقنعه حتى اقتنع ، وجمع القرآن بجهد كبير من القراء وكان هذا أعظم عمل دينى بعـــد وفاة النبى ، حيث أن أخطر شىء فى الاسلام على الاطلاق أن يوجد خلاف حول نص القرآن ، وجمع القرآن حينئذ أغلق هذا الباب ، ورغم أنه تم فى خلافة أبى بكر ، الا أن الفضل الأكبر فيه كان لعمر .

وكان عمر يكره أن يسأل أحد عن حكم شىء لم يحدث بعد ، وكان يضرب من يسأل من هذا القبيل ، ولكنه كان يتصدى للفتوى والحـكم فى كل حادثة طارئة مستعينا بمن يأنس فيهم العلم والاجتهاد ، وخصوصا على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عباس .

وكان من آثار هذه الميزة فى عمر أنه أرسى قواعد القضاء ، وجعله عملا ومهنة قائمة بذاتها وعين للأمصار قضاة ، ورسم لهم منهج القضاء وما ينبغى أن يكون عليـــه القاضى فى خلقـــه وعدله وفكره وأســـلوب استنباطه ، وخصوصا فى رسالته الى أبى موسى الأشعرى التى تعد حتى اليوم أفضل نموذج لخلق القاضى ومنهجه فى الفهم والتطبيق .

٢ ـ التنظيم الادارى بعد أن بلغت الدولة مبلغها من الاتساع ، فقد كانت في حاجة الى التنظيم الادارى، وليست للعرب حينئذ خبرة قط بالادارة لأنهم لم تكن لهم حكومة أو ادارة قبل الاسلام ، ولكن عمر بعبقريته وبأسلوب الشورى استطاع أن ينظم هذه الدولة المترامية الأطراف بنظام ادارى متكامل ، ولم يكن يتردد فى اقتباس أى نظام من أى شـــعب سابق فى الحضارة حينما يرى فى هذا النظام صلاحا ، ومن ذلك الديوان ، وهو السجلات ، فقد أراد عمر أن يفرض لكل مسلم عطاء يتناسب مع وضعه فى الاسلام ، ولم يكن ممكنا احصاؤهم شفاهة فى كل مرة يوزع

فيها العطاء ، فقيل له ان الروم لديهم دواوين تسجل فيها الأسماء ، فأمر عمر بأن يصنعوا مثلها .

ولكن من روائع عمر فى تطبيقه الاسلام نصا وروحا أنه استحدث ضوابط لمن يوليهم الامارة والسلطة حتى لا يستغلوا سلطانهم فى المساس بالمال العام ، فكل من يثبت عليه أى استغلال كان يحاسبه ثم يعزله ، ومن لا يثبت عليه استغلال ، ولكن توجد أى شبهة فى زيادة ملكيته بعد توليه السلطة كان يقاسمه ماله ، فتعود ملكيته الى أقل مما كانت عليه قبل السلطة ، وكان له مفتشون ماليون على الولاة ، منهم محمد بن مسلمة الذى قاسم عمرو بن العاص والى مصر ماله ذات مرة ، فغضب عمرو ، محتجا بأنه واسع الثراء فى أسرته منذ الجاهلية ، وكان مما قاله ، لقد كان أبى يرفل فى الحرير بينما لم يكن الخطاب يملك الا حماره ، فكيف يقاسمنى عمر مالى ؟ فقال له محمد بن مسلمة : أما والله انه لخير منك ، وأما أبوك وأبوه ففى النار ، وقد قاسمه ماله حتى نعله أخذ واحدة منها ، فكان كل ولاة عمر يرتعشون منه رعبا مهما بعدت بينهم وبينه الشقة ، وليس الرعب فيما يتعلق بالمال فقط ، وانما فى كل ما يقتضيه خلق الحاكم المسلم فى نفسه وعمله وسلطته ، حتى انه كان على كل والٍ ألا يجعل لداره بابا حتى لا يكون بينه وبين المسلمين حائل فى ليل أو نهار ، سواء من ذوى الحاجة أو المظالم وبهذا يصبح ولاته صورة مصغرة منه هو .

وكان يشعر بأن أى تقصير من أحد ولاته هو مسئول عنه أمام الله .

وبلغ من احساسه بثقل المسئولية وتشعبها وخطورتها أنه كان يتجول معظم الليل فى طرقات المدينة يتفقد أحوال الناس حتى فى هذا الوقت ، فان سمع طفلا يبكى بكاء غير عادى لا يتركه الا اذا اطمأن لعله يكون جائعا ، أو فى حال يمكن أن يقدم له فيها عونا ، وما أكثر ما وجد فى تجواله هذا من أحوال مختلفة يحتاج أصحابها الى مساعدة فيخف الى عونهم ، ولم تكن المدينة وحدها تنال منه هذا الاهتمام ، بل ان كل بقعة تحت سلطانه كان يشعر نحوها هذا الشعور ، ومن أقواله المأثورة ، والله لو عثرت بغلة بالعراق لخشيت أن يحاسب الله عليها عمر ان لم يمهد لها طريقها ، وأخباره فى كل ذلك وغيره أكثر وأشهر من أن ينوه بها .

٣ ـ ومن أبرز صفات عمر فى خلافته الزهد والتواضع ، ولم يكن هذا فى موقف أو مواقف معينة ، وانما ألزم نفسه هاتين الصفتين ، وعلى وجه أخص فى خلافته ، ليحافظ على استمرار النموذج الاسلامى

للحاكم المسلم ، هذا النموذج الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم فى أكمل صوره ، ثم استطاع أبو بكر أن يحافظ عليه كاملا ، وكذلك فعل عمر ، وعمر نفسه يتحدث بأنه يريد المحافظة على هذا النموذج ، ومن ذلك أن جماعة من أهله وصحبه أشفقوا عليه من التزامه أخشن الطعام وأردأه ، فقالوا له لو أكلت طعاما طيبا كان أقوى لك على الحق ، قال : كلكم يرى هذا الرأى ؟ قالوا : نعم : قال : أعلم أنكم تنصحون ، ولكنى تركت صاحبى ـ يعنى النبى وأبا بكر ـ على جادة ، فان تركت جادتهما (طريقهما) لم أدركهما فى المنزل ، يعنى فى الآخرة ٠

فقد التزم عمر طوال خلافته ألا يزيد طعامه عن طعام فقراء المسلمين ، مهما بلغت خشونة هذا الطعام ، وكثيرا ما كان يقضى الأسابيع والشهور لا يتجاوز الخبز الجاف والزيت ، حتى يبدو عليه الضر ، ويغبر لونه ، مع تيسر كل ألوان الطعام له ، وكذلك كان ملبسه لا يتجاوز قط ملابس الفقراء وعامة الناس ، بل كثيرا ما ينزل عنهم ، وكان هذا هو شعاره الذى يحرص عليه حينما يعرض عليه طعام أو ملبس يزيد أى درجة عما تعوده من خشونة وتقشف يسأل : أكل الناس يأكل هذا ؟ أو يلبس هذا ؟ فان أجاب من يثق فيهم بنعم قبله ، والا رفضه ، وأحيانا يرفض ما هو فى متناول كل الناس اذا وجد فيه أى شىء من رفاهية أو تنعم ، قائلا : أخشى أن تعجل لى طيباتى ، اشارة الى ما يصوره القرآن مما يقال لبعض الناس فى جهنم من قوله تعالى (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) (١) ٠

وكما كان النبى صلى الله عليه وسلم يلزم أهل بيته هذا الشظف من العيش مع تيسر كل أسباب الرفاهية لديه ، وكما كان أبو بكر أيضا يفعل ، كذلك حافظ عمر على هذا النهج ، فجعل بين أهل بيته ومال المسلمين سدا منيعا ، ومن أمثلة ذلك أن عامل عمر على بيت المال كنس بيت المال ذات مرة فوجد فى التراب درهما فأعطاه لطفل من أولاد عمر ، وانصرف العامل الى بيته ، فما هى الا أن دعاه عمر ، فجاء فاذا الدرهم فى يد عمر ، وبعد أن أشبعه لوما قال : هل أردت أن تخاصمنى أمة محمد فى هذا الدرهم يوم القيامة ؟ ٠

ويروى أن عمر بينما كان يمشى فى احدى طرقات المدينة رأى صبية هزيلة بادية الضر ، حتى لتوشك أن تسقط من هزالها ، فقال

(١) سورة الأحقاف ٢٠ ٠

عمر متألما لحالها : يا بؤس هذه ، من يعرفها منكم ؟ قال ابنه عبد الله ابن عمر : انها ابنتى ، قال : ويحك ، وما صيرها الى هذه الحال ؟ قال : منعك ما عندك ، مشيرا الى تضييق عمر عليهم فى العطاء والمعيشة ، قال عمر : والله مالك عندى غير سهمك فى المسلمين ، وسعك أو أعجزك ، هذا كتاب الله بينى وبينكم .

وأما عن تواضعه ، فمن المعروف أن عمر نشأ منذ شبابه شخصية قوية عظيمة ، وكانت هذه المقومات فى شخصيته تبعث فيمن حوله فيما تبعث احساسا بالرهبة ، وهذا الاحساس هو الذى دفع بعض المسلمين أن يخوفوا أبا بكر من قوة عمر وشدته على الناس عندما أراد أن يستخلفه ، ولكن أبا بكر كان أعرف الناس بعمر ، فاذا عمر بعد توليه الخلافة يكون من أكبر همه أن يصارع هذا الجانب الذى يثير الرهبة فى شخصيته ، وموضع الصراع في نفسه خوفه من أن تكون قوة شخصيته حائلا لدى بعض الضعفاء أو عامة الناس بينهم وبين الحق ، أن يطلبوه منه ، و يرشدوه اليه ، أو يحذروه من أى خطأ ، ولذلك كان أول ما أعلنه للنـــاس عقب توليه الخلافة (أطيعونى ما أطعت الله ، فان رأيتم فى اعوجاجا فقومونى) فقام رجل من عامة الناس يقول له : والله لو رأينا فيـــك اعوجاجا لقومناك بسيوفنا ، فقال عمر وهو بادى الرضا : الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه .

وبطبيعة الحال كل انســـان ناجح يراوده شـــعور الرضـــا عن نفسه ، ولكن عمر مع توافر كل أسباب الرضا عن النفس لديه كان يعد هذا الشعور عدوا له ، فما ان يخالجه شـــعور بالرضـــا عن النفس حتى ينطلق مقرعا موبخا نفسه بصوت مسموع فى كثير من الأحيان ، مذكرا اياها بأنه لم يكن الا راعيا للابل ، وأحيانا لا يحسن الرعى فيوســعه أبوه ضربا ، وبأنه مهما فعل فلن يوفى ضخامة المسئولية الملقـــاة على عاتقه ، والتى ينتظره حساب عسير عليها يوم القيامة ، وكان مما يسمعه الناس من توبيخه نفسه أحيانا : بخ بخ : غرى غيرى .

ولا شك أنه كان من أشق المعاناة النفسية التى بلغ عمر فيها قمة التوفيق والنجاح أن يوازن بين قوته التى طبع عليها ، والتى يحتاج اليها فى ضبط شئون الأمة ، وبين اللين والتواضع الذى يضطره اليهما الحرص على العدل ، وتمكين كل امرىء مهما صغر شأنه أن يدافع عن حقوقه حتى يصل اليها .

ومن أمثلة رضوخ عمر وتواضعه للحق حينما يبدو فى أى موقف ، ومن أى أحد ، هذه القصة المشهورة حينما كان يخطب فأخذ ينهى الناس عن المغالاة فى المهور ، فقالت امرأة فى آخر المسجد : كيف تقول هذا والله يقول

(.. وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا) فقال عمر على الفور : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وأفتى ذات مرة فى أمر ، فقال أحد الحاضرين : بل الحكم كذا وكذا ، وعلم عمر أنه الحق فقال مصغرا نفسه : كل الناس أعلم من عمر ، هذا مع أنه كان من أدق المسلمين على الاطلاق فهما للاسلام ، واستنباطا للأحكام ، وفقها فى القضاء وفى الفتيا ، بالاضافة الى مواهبه وعبقريته المعروفة فى الادارة والسياسة والمواهب العديدة الأخرى .

وخلاصة كل ذلك أنه استطاع المحافظة على النموذج الذى تركه النبى صلى الله عليه وسلم ، وتركه أبو بكر ، رغم صعوبة الظروف المستحدثة وتشعبها .

وأما تاريخه الشخصى ، فهو عمر بن الخطاب بن نفيل ، من بنى عدى ، حى من قريش ، وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومى ، ابنة عم خالد بن الوليد ، ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة .

ونشأ بين قريش فى الجاهلية موضع تقديرهم واعجابهم ، فكان سيدا بارزا فى قريش ، وقد أسندوا اليه السفارة ، فكان سفيرهم والمتحدث باسمهم فى أى موقف عام خارج قريش ، سواء فى مفاوضة أو معاهدة أو تحكيم أو منافرة .

ومن وضوح منزلته وتأثيره فى قومه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا ربه أن يعز الاسلام بأحد العمرين ، عمر بن الخطاب ، وعمرو بن هشام (أبو جهل) فاستجاب الله دعاءه بعمر بن الخطاب .

وقضى عمر فى الخلافة نحو عشر سنين .

واغتيل عمر رضى الله عنه نتيجة لمؤامرة تجمع فى خيوطها كل أعداء الاسلام ، وكان رأس المؤامرة الهرمزان أحد قادة الفرس ، أسره المسلمون فى فتوح فارس بقيادة أبى موسى الأشعرى فى موقعة (تستر) فأوثقوه وأرسلوه الى الخليفة عمر فبقى فى المدينة ، ثم انضم اليه رءوس من اليهود ، وغيرهم ، واستخدموا فى تنفيذها عبدا مجوسيا يسمى أبا لؤلؤة ، فطعن عمر فى صلاة الفجر ست طعنات فى خاصرته وكتفه ، وأخذ يطعن كل من يعترضه حتى طعن ثلاثة عشر من المسلمين ، مات منهم سبعة أو تسعة ، ثم طعن نفسه ومات ، وبقى عمر جريحا ثلاثة أيام ، ثم توفى فى يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، وكان فى مرضه قد استأذن عائشة أن يدفن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر ، حيث ان هذه الحجرة هى أصلا حجرة عائشة فى بيت النبى .

الجهاد فى الاسلام

يمكن تلخيص أهم ما فى موقف الاسلام من الجهاد فيما يلى :

١ ـ فلسفة الجهاد وحكمته من وجهة نظر الاسلام لا تنبع من الواجب الفردى ، وانما تنبع من تشريع الأمة ، بمعنى أن الجهاد لا ينظر اليه من حيث الحكمة فى تشريعه على أنه عبادة فردية كالصلاة والصوم ، وانما هو مرتبط بكيان الأمة ، فقد أراد الله للاسلام أن يكون أمة تمثل الاسلام ، وهذا القيد وهو أن تمثل الاسلام هو صلب الهدف من ايجـــاد الأمة الاسلامية ، وبدونه لا قيمة لهذه الأمة من الناحية الدينية ، وذلك أنه ـ كما سبقت الاشارة الى ذلك ـ ليس من هدف الاسلام قط ، ولا من هدف أى دين سماوى أنزله الله أن يكره الناس على الدخول فيه ، لأن الله لو كان يريد ذلك لأوجده دون حاجة الى أى جهد من أحد ، كما يتكرر هذا المعنى كثيرا فى القرآن الكريم ، وأنما الهدف أن يكون الحق واضحا للناس جميعا من جهة ، وأن يتسير لهم الدخول فيه من جهة أخرى ·

(أ) فأما وضوح الحق ـ وهو الاسلام الذى اختاره الله ليكون دينه الأخير والوحيد للناس ـ فقد تكفل به القرآن الكريم ، وكذلـك السنة النبوية ، ففيهما ، كـل أسس الاسـلام وفروعـه ، بصـورة واضحـة لا لبس فيها ولا غموض ، والهدف حينئذ محصور فى أن وضوح الحـق حجة على الناس عند الحساب يوم القيامة ، أما فى الدنيا فهو حر فى أن يؤمن أو أن يكفر بعد ظهور الحق له ·

(ب) وأما تيسر دخول الناس فى الدين ، فمن المعروف أن كـل رسالات الأنبياء السابقين على الاطلاق ووجهت بالرفـــض والعـــداوة والاضطاد من الغالبية العظمى من الناس ، وكذلك كان الاسلام فى بدء أمره ، والله يريد أن تكون الحجة له على عبـــاده كاملة ، كما جاء هذا

صريحا فى القرآن ، ولون اصحاب الدين ضعفاء مضطهـــدين لا ييسر للراغبين فى هذا الدين أن يدخلوا فيه ، فكثير من الناس حينئذ يكـون راغبا فى الدين ، ولكن الخوف من الاضطهاد يمنعه ، فلا تكون لله حجة عليه ، لأن من مبادىء الله سبحانه أنه لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولذلك أراد الله فى ختام الأديان وهو الاسلام أن تكون حجته على العباد كاملة ، فأمر بايجاد أمة ودولة تقوم على الاسلام ، ولابد أن تكون قوية ، ليتاح كل فرد أو جماعة أو شعب أن يدخل فى هذا الدين ومعه قوة تحميه هى قوة الأمة الاسلامية ، وقد عبر القرآن الكريم عن أن وجود القوة يتيح بيسر لكل الناس الدخول فى الدين ، فى قوله تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا) (١) .

فايجاد الأمة القوية التى تحافظ على بقاء الحق واضحا وظاهرا لكل الناس من جهة ، وتيسر لكل راغب فى دخول الدين أن يدخـله ، وتستطيع أن تحميه ، ذلك هدف جوهرى من أسس أهداف الاســلام ، والقرآن حافل بالآيات التى تؤيد هذه المعانى ، ومن أروعها فى هذا قوله تعالى (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) (٢) ومضمون الآية أن الرسول ــ وهو عنوان الاســلام والمسلمين وقدوتهم ــ لا بد أن تكون له قوة تستطيع أن تجير وأن تحمى ، ثم لا تكره مشركا على الاسلام ، بل تحميه حتى يسمع الحق وهو كلام الله ، ثم تحميه أيضا حتى يعود الى مأمنه ، ثم تتركه ليفكر بكامل حريته : ايؤمن أم لا ؟ فكلا الأمرين ليس هدفا للاسلام أو لأى دين ، وانما الهدف أن هذا المشرك حينئذ لزمته الحجة ، لاجتماع الأمرين لديه ، وضوح الحق له ، ووجود القوة التى تحمى دخوله فى هذا الحق .

ولا يتحقق وجود القوة الحقيقية الا بوجود دولة ، لأن ما دون ذلك من قوة جماعة أو فرد أمر غير ثابت ولا دائم من جهة ، ومن جهة أخرى فهى مهددة بوجود قوى أكبر وأقوى منها ، هى قوة دول الكفر ، فلكى تكون للاسلام قوة ثابته ودائمة ، فلا بد من وجود أمة ودولة اسلامية قوية .

وحين توجد هذه الدولة الاسلامية فلا بد أن تكون فى صراع مـع القوى الأخرى ، كشأن الحياة فى الصراع والتنافس ، وشأنها فى محاربة الشر للخير ، والالحاد للايمان ، فما لم تكن هى الأقوى فلن يتحقق الهدف منها ، وهو حماية الدين وأبنائه .

---

(١) سورة النصر .

(٢) سورة التوبة ٦ .

ومن هنا كان واجب الجهاد فى سبيل الله ، حيث يجب على المسلمين ان يجاهدوا للمحافظة على قوة هذه الأمة ، وعلى دفع أى خطر أو عدوان يهدد قوتها فضلا عن أن ينال منها ٠

٢ ـ وجوب الجهاد يأخذ فى الاسلام صورتين ، فأحيانا يكون فرض عين على كل فرد قادر ، وأحيانا يكون فرض كفاية ، اذا قام به البعض وحققوا الغاية منه سقط الوجوب عن الجميع ، واذا لم يؤده أحد أثم جميع المسلمين ، وذلك فى أهم أحواله كما يلى ٠

(أ) يكون الجهاد فرض عين على كل فرد قادر اذا وقع عدوان من عدو غير مسلم على أرض اسلامية ، والتخلف حينئذ عن هذا الواجب من كبائر الاثم ، وقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم جاءوا تائبين ، فلم يقبل النبى توبتهم حتى يقضى الله فيهم ، فربطوا أنفسهم فى أعمدة المسجد ، وقد اعتزلهم المسلمون ، حتى نزل القرآن بقبول توبتهم فى قوله تعالى (وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا) (١) هذه القصة توحى بأن التهرب عن أداء واجب الجهاد من أكبر الكبائر فى الاسلام ، وكذلك الفرار من القتال من أكبر الكبائر ، وفى القرآن الكريم (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (٢) والمعنى أن الفرار من المعركة الا لتنفيذ خطة مرسومة جزاؤه غضب الله ومصيره جهنم فى الآخرة ٠

ويكون هذا الوجوب العينى بطبيعة الحال اذا احتاج الوضع اشتراك الجميع ، أما اذا كانت هناك قوة من الجند تكفى لأداء هذا الواجب ، فالواجب محصور اذن فيهم ٠

(ب) يكون الجهاد فرض كفاية اذا كان خطر العدو الخارجى يسيرا ، ولا يحتاج الى جهاد كل المسلمين ، فحينئذ اذا أدى بعض المسلمين هذا الواجب سقطت المسئولية عن الجميع ، فاذا لم يؤده أحد كان جميع المسلمين آثمين ٠

ومن أحوال الجهاد الأخرى أيضا ما يأتى :

(أ) يجب أن تكون للمسلمين قوة دائمة مهما كان السلم مستقرا ، لأنه لا يحمى مجد الأمم الا القوة ، وكل شىء بدون قوة تحميه موضع

(١) سورة التوبة ١١٨ ٠ (٢) سورة الأنفال ١٦ ٠

الطمع والتهديد من الآخرين ، وقد أمر الله سبحانه بأن تكون هذه القوة موجودة دائما ومستعدة ، في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم) (١) فالأمر صريح باعداد القوة في كل صورها اعدادا دائما ، ليس للقتال المباشر ، وانما لاثارة الرهبة في نفوس الأعداء (ترهبون به) وتكون النتيجة تحاشي القتال ، لأن العدو سيتحاشى القتال اذا وجد لدى المسلمين قوة ، وختام الآية يشير الى الوسيلة لاعداد هذه القوة ، وهي التضحية بالمال .

(ب) من الواضح في القرآن الكريم أن الجهاد ليس بالقتال فحسب ، بل بالمال أيضا ولا فرق بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال الا في مدى أهمية أحدهما حينئذ ، فاذا اقتضى الحال الجهاد بالنفس فهو أولى ، واذا اقتضى الجهاد بالمال فهو أولى ، ومن الملحوظ أن القرآن في أغلب الأحيان يقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، مثل (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) (٢) لأن المال دائما هو وسيلة الاعداد لأي صورة من صور القوة ، وبدون المال يتعثر أي جهد ، ولكن هذا يلفت النظر الى أن وجوب الجهاد ليس بالنفس فقط ، وانما يكون بالنفس وبالمال للقادر عليهما ، وبأحدهما اذا عجز عن الآخر ، أو لم يكن الوضع محتاجا الى هذا الآخر ، وما دام التخلف عن الجهاد بالنفس من الكبائر ، فمن باب أولى أن يكون التخلف عن الجهاد بالمال كذلك ، لأن التضحية بالنفس أشد من التضحية بالمال .

(ج) لا شك أن الجهاد أعلى منزلة ، وأعظم عبادة ، وأسمى قربى الى الله في الاسلام ، لأنه ان كان جهادا بالنفس فهو تضحية بالحياة ذاتها ، وان كان جهادا بالمال فهو تضحية بأحب ما يملك الناس وهو المال ، والقرآن الكريم حافل بتمجيد الجهاد ، وتعظيم قدر الشهداء ، ومن ذلك قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) (٣) وكذلك الأحاديث النبوية حافلة بتعظيم كل ما يتصل بالجهاد ، ومن ذلك الحديث الشريف ذروة سنام الاسلام الجهاد لا يناله الا أفضلهم) وعن الحراسة في سبيل الله ، وهي صورة من صور الجهاد (عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله) .

---

(١) سورة الأنفال ٦٠ .
(٢) سورة التوبة ٤١ .
(٣) سورة النساء ٩٥ .

(د) الجهاد سواء أكان بالنفس أم بالمال لا يسمى جهادا قط الا اذ قصد به رفعة الاسلام أو اعزاز المسلمين ، دون أن يكون للشخص أو لأى جهة غير وجه الله مصلحة فى هذا الجهاد ، ولذلك يقترن الجهـــاد دائما بتعبير (فى سبيل الله) وسبيل الله فى الجهاد هو قصد اعلاء كلمة الله وتحقيق العزة للمسلمين ، لأن عزة الاسلام والمسلمين واجب أمر الله به كثيرا فى القرآن الكريم ، وأداء الواجب الدينى عبادة ، أما اذا قصد بالجهاد أى قصد غير هذا فليس بجهاد ، بل قد يتحول الى اثم يعاقب عليه ، وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل حميـة ، والرجـل يقاتل عن أهله ، والرجل يقاتل ليعرف مكانه أى لينال شهرة ، فأيهم فى سبيل الله ؟ قال : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) .

المواقع الحربية التى حدثت فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم كانت النموذج الأمثل للحروب الاسلامية ، ومع تعدد هذه المواقع الا أنها جميعا كان من الواضح فيها أمران :

١ ـ أحدهما أنها كانت الوسيلة الوحيدة لايجاد الأمة الاسلامية وارساء قواعدها ، فبدون هذه المواقع التى كللت بالنصر كانت الغالبية العظمى من عامة الناس ستظل فى حذر أو ترقب ، غير مجترئة على الدخول فى هذا الدين الجديد ، وقد عبر القرآن فى سورة النصر ، عن أن نصر المسلمين كان سببا مباشرا فى دخول الناس فى دين الله أفواجا ، وتلا ذلك بطبيعة الحال وجود الأمة الاسلامية القوية ٠

٢ ـ والأمر الآخر أن هذه المواقع على تعددها كانت تطبيقا عمليا وتركيزا مكررا لتثبيت معنى أن يكون القتال (فى سبيل الله وليس فى سبيل أى مصلحة خاصة ، وأنه حينما يكون القتال (فى سبيل الله) خالصا له ، فان الله كفيل بتحقيق النصر مهما انعدمت الأسباب المادية أو المألوفة للنصر ، وعلى العكس من ذلك حينما تدخل فى القتال أى معان أخرى غير وجه الله ، فان الله حينئذ يكل المسلمين الى أنفسهم ، فيتعجبون من امتناع النصر عليهم ، مع توافر أسبابه لديهم ، وهذا المعنى كان واضحا فى كل المواقع الحربية فى حياة النبى ٠

ومن أمثلة ذلك :

موقعة بدر

كانت نتيجة موقعة بدر مذهلة للعرب جميعا ، وللمسلمين أنفسهم ، فلم يكن أحد يتوقع أن تنتصر جماعة ضعيفة فقيرة ، هم المسلمون ، ولم

يكن عددهم يتجاوز أربعـــة عشر وثلاثمائة مقاتل ، كثير منهم بالمقاييس الحربية لا يصلح للقتال لأسباب مختلفة ، بالاضافة الى عوامل نفسيـة تجعلهم في موقف الخوف أو الحذر الشديد ، بينما أعداؤهم جيش متكامل يناهز الألف مقاتل من الذين جاءوا وهم مستعدون للقتال والتحدى ، بل من الذين اختيروا اختيارا ، وحالتهم النفسية فى قمة الثقة والاستعداد ٠

ومع ذلك كانت نتيجة المعركة قلبا لكل المـــوازين حينئذ ، حيث انتصرت القلة الضعيفة ليس نصرا فحسب ، بل نصرا مدويا ، فقـد قتلوا من عدوهم سبعين كان معظمهم من السادة والفرسان البارزين ، وأسروا سبعين آخرين ٠

والشيء العادى لا يسأل عن سببه ، وانما يثور التساؤل حول ما ليس عاديا ، وهذه النتيجة غير عادية ، فكيف حدثت ؟ وفى أى اجابة عن هذا التساؤل لا بد أن يكون من أوضحها أن المسلمين جاءوا حينئذ ونفوسهم متجردة من أى مطمع ، فلم يكن هناك أمل قط فى أى مطمع ، لا فى مغنم ، ولا فى مفخرة ، ولا فى انتصار كالذى حدث ، وانما كان كـل أملهم أن يخرجوا من حصار الضعف الى الحبو فى أولى درجات القوة ، ولكن الشيء الذى يملأ كل النفوس هو طاعة الله ورسوله ، والاستعداد لبذل النفس فى سبيل الله ، فكان موقف المسلمين اسلاميا كاملا ٠

وحينئذ يتحقق وعد الله (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقـوى عزيز) (١) وتتحقق النتيجة غير المتوقعة ، لأن النصر حينئـــذ ليس بمقاييس المادة والحساب البشرى ، وانما بقوة ومقاييس غير بشرية تعلن أن الحرب حينما تكون لله ، فلا بد أن يكون الله هو المنتصر ٠

ولم يقتل من المسلمين يومئذ غير ستة من المهـــاجرين من قريش وثمانية من الأنصار ٠

موقعة أحد

حينما انتصر المسلمون فى بدر هذا النصر المروع المدوى بدأ كثيرون يأخذهم هذا البريق فيدخلون الاسلام ، وبعضهم يسيطر عليه الشعور بأن المسلمين لن ينهزموا بعد ذلك أبدا ، بل لا بد أن يكونوا بعد ذلك أكثر عددا وأقوى قوة ، وبالتالى سيكونون أكبر انتصار ٠

---

(١) سورة الحج ٤٠ ٠

وجاء العام التالى وهو العام الثالث للهجرة ، فجاءت قريش بجيش يبلغ ثلاثة آلاف ليثأروا لهزيمتهم فى بدر ، وتشاور المسلمون ، وكان رأى النبى أن يبقى المسلمون فى المدينة ، ويتركوا عدوهم يدخل عليهم فيحاصروه فى دروبها ويحيطوا به ، ولكن الذين دخلوا الاسلام حديثا ، والذين لم يشهدوا موقعة بدر أرادوا أن يعلنوا عن أنفسهم ، وأن تكون لهم مفاخر كالذين شهدوا بدرا ، فأصروا على الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، ويسجل رواة السيرة هذا المعنى (وعامة من أشار على النبى بالخروج رجال لم يشهدوا بدرا ، قد علموا الذى سبق لأصحاب بدر من الفضيلة) (١) يعنى أنهم أرادوا منافسة الذين فازوا بالفضل من أهل بدر • ونزل النبى على رأى الغالبية كارها •

وكان عدد المسلمين يومئذ نحو ألف ، رجع بعض منهم كانوا من المنافقين ، ومع أن المسلمين كانوا حينئذ أكثر عددا من يوم بدر ، وأقوى ثقة فى النصر ، وأحسن حالا فى كل وجه ، الا أنهم فى موقفهم الدينى كانوا أضعف من بدر ، فكثير منهم كبعض الذين أشار اليهم رواة السيرة كانوا يريدون فخرا ، وبعض غيرهم يريدون مغنما ، كالذين خالفوا أمر الرسول حين وضعهم فى مؤخرة المسلمين لحراستهم فلما رأوا بوادر النصر للمسلمين نسوا أمر الرسول وأسرعوا لجمع الغنائم ، وهكذا لم يكن وجه الموقعة خالصا لله ، ولم تكن القلوب كلها متجهة الى الله وحده ، ولا الى عزة الاسلام وحده •

فكانت النتيجة أيضا غير المتوقعة ، فالمسلمون كانوا موقنين بالنصر ، ولكنهم هزموا هزيمة مرة ، حيث قتل منهم نحو سبعين ، بينما لم يقتل من المشركين الا نحو ستة عشر رجلا ، وكان أسوأ للمسلمين من هزيمتهم يومئذ أنهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، وفر معظمهم متراجعا عن موقفه ، حتى أحاط المشركون بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصابوه ببعض الجراح ، فقد شج فى وجهه ، وكسرت سنه الرباعية ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، وبلغ عمق كل حلقة فى وجنته أن أبا عبيدة حين نزع الحلقة الأولى بفيه كسرت سن من أسنانه ، وكذلك حينما نزع الثانية كسرت سن أخرى •

فلم ينتصر المسلمون حينئذ لأنهم لم يجعلوها موقعة دينية خالصة كما كانت فى بدر ، وانما داخلوها ببعض الأهواء ، وبعض المطامع ، وبعض الوهن فى الايمان ، فتركهم الله لأنفسهم بمقاييسهم البشرية ، وكانت المقاييس البشرية تقتضى نصر أعدائهم وقد انتصر أعداؤهم •

---

(١) سيرة ابن كثير ٣/٢٥ •

موقعة الأحزاب

وتتوالى العبر من الله فى المواقع ، فقد كانت هزيمة المسلمين فى أحد خيرا لهم ، حيث أخذ المنافقون الذين تقنعوا بقناع الاسلام طمعا اخذوا يظهرون ويتراجعون الى حقيقتهم ، وآخذ المسلمون يتحاشون الغرور والفخر ، ويوقنون بالحقيقة ، وهى أن النصر ليس بالمقاييس المادية ، وانما هو من عند الله يمنحه لمن يستحقه ، وأحق الناس به من يجاهد لاعلاء دين الله وكلمته دون أن يكون له أو لغيره فى ذلك نفع أو هدف خاص .

ومن جهة أخرى أسكر النصر قريشا ، ولعلهم لاموا أنفسهم بعد رجوعهم على أنهم كانوا يستطيعون القضاء على المسلمين فى أحد ولم يفعلوا وانما اكتفوا بأخذ ثأرهم مما فعله المسلمون بهم فى بدر ، فأرادوا أن يعيدوا الكرة للقضاء على المسلمين ، وهلل اليهود لهذه الفكرة ، فأخذوا يجمعون الجموع من القبائل للقضاء على المسلمين فى المدينة ، وجاءت حشود الأحزاب وجموعهم لتحيط بالمدينة احاطة رهيبة تنذر بالدمار ، وكان من اليسير عليهم بالمقاييس البشرية أن يقضوا على كل قوة للمسلمين .

وأحس المسلمون بهذا الخطر ، بل امتلأت نفوسهم وقلوبهم هلعا وجزعا من تصور القضاء على دينهم الذى تنحصر فيه كل آمالهم وحياتهم ، وكان القرآن أروع تصوير لما يدور حينئذ فى نفوس وألسنة كل الأطراف من المسلمين والمنافقين واليهود والمشركين ، فى وصف طويل من سورة سميت باسم الموقف ، وهى سورة الأحزاب ، وكان من هذا الوصف فيما يتعلق بالمسلمين وبالمنافقين (اذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا) (١) فقد زاغت أبصار المسلمين من الخوف ، وبلغت قلوبهم الحناجر من الهلع على الاسلام ، ومعنى ذلك بوضوح أنهم لم يكن لديهم حينئذ أمل قط فى أى نصر ، أو أى مخرج من هذا المأزق القاتل لا محالة .

ولكن مما لا شك فيه أن هذا الهلع كله لم يكن خوفا على أشخاصهم ، وهم الذين يذهبون فى كل موقعة ليقدموا أرواحهم بأنفسهم لله عن سعادة وطيب نفس ، وانما كان هلعهم الشديد على الاسلام نفسه ، وهذا الشعور نفسه أسمى شعور يحمله المؤمن .

---

(١) سورة الأحزاب ٩ ـ ٢٧ .

فموقف المسلمين اذن خلا حينئذ من كل شيء الا من التوجه الى الله ، وحينئذ يستحقون وعد الله (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) ونصر الله لا يحتاج الى حساب مادى بشرى ، فاذا الله سبحانه ينصر المؤمنين حتى دون أن يكونوا طرفا في معركة ، أو أن يدخلوا حربا ، فيلقى الله في قلوب الأحزاب الخوف ، ويرسل عليهم أعاصير تحيل نهارهم ليلا ، وتبدأ الفتن والوساوس فيما بينهم ، حتى ظن كل فريق منهم أن الفريق الآخر يتآمر عليه ويمكر به ، فانصرفوا خائبين خائفين ، ونال اليهود بعد ذلك جزاء خيانتهم وتآمرهم فدمرهم المسلمون تدميرا · وكان من وصف الله لهذه النتيجة فى القرآن (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا) (١) ·

واذا موقف المسلمين يتحول فجأة من هلع تبلغ فيه القلوب الحناجر الى عزة لم يبلغوها قبل ذلك قط ، وشعور بنصر لا يحلم به أى منتصر فى أى موقعة ·

صلح الحديبية

يتلخص موقف صلح الحديبية فى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى فى منامه أنه يدخل مع المسلمين الى البيت الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين شعورهم آمنين فى صورة مناسك الحج والعمرة ، وأخبر أصحابه بذلك ، فخرج ومعه المسلمون ، والمسلمون واثقون من دخولهم مكة حينئذ ، وقد صمموا على ذلك ، ولكن لله حكمة غير تصميم المسلمين ، فقد جاء وفد قريش الى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل مكة ليفاوضوا فى رجوعه هذا العام ، ثم يعود فى العام القادم ليدخل مكة آمنا مع أصحابه ، ومع شروط أخرى كانت من الناحية السياسية أعظم نصر للمسلمين ، لأنه أول اعتراف من عدوهم بكيانهم وقوتهم وحقوقهم ، وقد وافق النبى ، لان المصلحة فى هذا الصلح أعظم بكثير من دخول المسلمين مكة محاربين أو غير محاربين ، فهاج المسلمون وماجوا واستنكروا أن يرجعوا بعد تصميمهم ، وبعد رؤيا النبى ، ولم يعرف من المسلمين أحد كان مع رأى النبى فى بدء أمره الا أبو بكر ، الذى أخذ يحاور عمر وغيره قائلا : وهل قال النبى اننا سندخل هذا العام ؟

---

(١) سورة الأحزاب ٢٥ ـ ٢٧ ·

وانتهى الموقف باقرار الصلح ، وعودة المسلمين فى رأيهم فاشلين فى تحقيق هدفهم ، ولكن الله سمى هذا الصلح فتحا مبينا ، وأنزل فيه سورة من القرآن هى سورة الفتح ، وكان حقا كذلك ٠

ولكن العبرة أن الله يريد للمؤمنين أن يضعوا لأنفسهم مع الله حدودا ، وأن يوقنوا بأن كل شىء بيد الله ، لا بأيديهم ولا بأيدى غيرهم ، وأن الله حينما يريد أمرا فليس بحاجة الى مقاييس أو أسس ، ونتيجة هذا أنهم يجب أن يفوضوا الأمر الى الله ورسوله بعد أن يقدموا ما يملكونه من جهد واخلاص ٠

فتح مكة

كان فتح مكة أيضا حدثا مذهلا للعرب وللمسلمين ، فمكة فى موضع العاصمة للعرب جميعا ، وأصبحت حينئذ عاصمة الشرك وحصنه ، وسقوط العاصمة فى أى حرب سقوط لقوة أصحابها ، ويندر فى التاريخ كله أن تقوم قائمة قريبة لأمة سقطت عاصمتها ، لذلك كان حلم سيطرة الاسلام على مكة حلما بعيد المنال ، وكان المسلمون مستعدين لبذل كل ما يلكون من أنفس وأموال لتحقيق هذا الحلم البعيد ، الذى زاده بعدا أنهم لم يستطيعوا دخولها حتى معتمرين فى صلح الحديبية ، وأن رفض قريش يومئذ دخولهم كان كافيا لمنعهم ، فكيف لو واجهتهم قريش بالحرب لمنع دخولهم ؟ ودخولهم حينئذ دخول مقاتل ، وليس معتمر ، وهذا أدعى لمقاومة قريش وغضبهم ٠

وقد حشد المسلمون عشرة آلاف مقاتل وتوجهوا بقيادة النبى صلى الله عليه وسلم نفسه الى مكة ، واذا حكمة الله تغمرهم بما لم يخطر لهم على خيال ، فاذا هم يقتحمون مكة مسيطرين عليها دون جهد يذكر ، ودون حرب حقيقية ، حتى ان كثيرا من الفقهاء يعدون مكة فتحت سلما وليس حربا ٠

ولا شك أن هذه النتيجة لم تكن بأى حساب مادى أو بشرى متوقعة ، فقريش لم تفقد قوتها ، ولم يحدث فى موازين القوة المادية ما يوهن عزمها أو يدفعها الى اليأس ، ولا زال نفوذها فى القبائل قائما ، ولو أرادت حشد جموع من القبائل لمؤازرتها لاستطاعت ، وأقربها قبائل هوازن فى الطائف وما حولها قرب مكة ، وهى من أقوى قبائل العرب ، وأشدها عداء للاسلام يومئذ ٠

ولكن الله وحده ، ودون جهد المسلمين ، يجعل قريشا تستسلم ، وتسلم مكة بجلالها للنبى صلى الله عليه وسلم ، لعل المسلمين وغيرهم يزدادون يقينا بحكمة الله وقدرته ونفاذ سننه ٠

ووقف النبى صلى الله عليه وسلم براحلته فى قلب مكة التى أصبحت هى ومن فيها فى قبضة يده ليقول قولته المشهورة لأهل مكة الذين ظلوا أكثر من عشرين سنة يناصبونه العداء : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبـوا فأنتم الطلقاء ، يعنى المحررين من الأسر والعبودية التى كانوا حينئذ فيها بمنطق الحرب فى أن يصبح الأسير عبدا ٠

وكان هذا فى السنة الثامنة للهجرة ٠

موقعة هوازن

عقب فتح مكة بنحو عشرين يوما اتجه النبى صلى الله عليه وسلم بالمسلمين لاخضاع قبائل ثقيف وهوازن ، وقد أحدث فتح مكة دويـا هائلا فى القبائل ، فسارعت الى الدخول فى الاسلام أفواجا ، حتى قفز جيش المسلمين فى هذه الأسابيع الثلاثة من عشرة آلاف فى فتح مكة الى نحو ثلاثين ألفا متجهين الى هوازن ٠

ونظر المسلمون الى عددهم هـــذا الهائل ، فامتلأت نفوسهم سعادة ويقينا بأنهم لن ينهزموا بعد ذلك أبدا ، وتردد هذا القول على ألسنتهم ، حتى كان أبو بكر الصديق ممن قال : لن نهزم بعد اليوم من قلة ٠

ولكن الله يعيد لهم الدرس الذى نسوه فى أحد ، فاذا هم على عددهم هذا الهائل يهزمون هزيمة منكرة ، وأسوأ ما فيها أيضا أن يفروا ، وأن يذهلهم الفرار عن النبى صلى الله عليه وسلم فينسوا مكانه ، ويتركوه ، حتى وجد نفسه بين الاعداء ، وكان لأى قائد أو بشر عادى حينئذ أن ينجو بنفسه فى أى صورة غير ملوم ، ولكن الرسول القدوة العظمى ما كان له ذلك ، فاذا هو على بغلته البيضاء شامخ صامد ، بل لم يعرف عنه الشعور بالعزة كما عرف فى هذا الموقف ، واذا هو يرتجز قائلا : (أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب) وأخذ فى هذا الموقف يدير المعركة وليس حوله الا بضعة نفر من المسلمين ، فطلب من العباس عمه ــ وكان جهير الصوت ــ أن ينادى على المسلمين ، فلم يستجب عدد كبير ، فأمره أن ينادى كل قبيلة باسمها ، حتى نادى : يا معشر الأنصار رسول الله

يناديكم ، فاذا هم يسرعون الى النبى وهم يحنـــون اليه ـ كما تصف الروايات ـ حنين الابل الى أولادها ، ثم تجمع حولهم المسلمون ، وأعادوا تنظيم الصفوف ٠

ونصر الله المسلمين نصرا ساحقا بعد أن لقنهم الدرس الأخير فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ٠

وقد كانت العبرة فى هذا الدرس أشد العبر وضوحا ، فى أن نصر الله مقرون دائما باخلاص الجهاد لوجه الله وحده ، وفى كل موقف فى تاريخ الاسلام على الاطلاق كان المسلمون بهذه الصورة من الاخلاص كان نصر الله حليفهم ٠

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد	٥
أهداف الاسلام	٩
العقيدة الاسلامية	١١
مقدسات الاسلام	١١
مصادر التشريع الاسلامى	١٤
التشريع الاسلامى	
الجانب الفردى	١٥
العبادات ـ الصلاة ـ الغسل والوضوء ـ الصوم ـ الزكاة الحج	١٥
الجانب الاجتماعى	
الزواج	٢١
التحريم الدائم ـ التحريم الموؤقت شروط الزواج ـ العلاقة الزوجية ـ حقوق الزوج ـ حقوق الزوجة ـ الميراث	٣٢
المجتمع المحلى	٤١
أسس التضامن الاجتماعى	٤١
أسس التضامن الأمنى	٤٢
أسس التضامن الاقتصادى	٤٥
المجتمع العام (الأمة)	٤٩
السلطة	٥٠
العلاقات الدينية	٥٢
موقف الاسلام من الدين	٥٦
العلاقات السياسية فى السلم ـ فى الحرب	٥٩
من التشريع الحضارى فى الاسلام	٦٣
صيانة الكيان الاجتماعى	٦٥
العلم	٦٦
العمل	٦٧
الوحدة والتضامن	٦٨
التعاون والتكامل	٦٩
القوة	٧٠
العقوبات	٧٣
أهداف العقوبات	٧٥
القصاص	٧٨
حق القصاص وحكمته	٧٩
وسائل الاثبات	٨١
تضييق نطاق الجريمة	٨٣
التنفيذ ووسائل العقاب	٨٤
الحدود	٨٩
العقاب	٩٥
حد الزنا	٩٧
وسائل الاثبات	٩٦
حد القذف	٩٩
الملاعنة	١٠٠
حد السرقة	١٠١
حد الخمر	١٠٢
حد الافساد فى الأرض	١٠٤
العقاب	١٠٦
التعزير	١٠٩
صفات المسلم	١١١
الجانب النفسى الروحى	١١١
ثبات العقيدة	١١٢
الشعور بالأمن	١١٨
الشعور بالحرية والاستقلال	١٢٠
عدم اليأس	١٢٣
الاتزان والاعتدال	١٢٥
فى العادة ـ فى السلوك فى المشاعر والانفعالات	
حب الخير	١٣٢
الجانب الخلقى	١٣٣
الصدق ـ التسامح ـ القوة ـ	
أهداف القوة فى الاسلام	١٣٦
التواضع	١٣٨
السخاء	١٤٠
التعاون	١٤٢

الموضوع	الصفحة	الصفحة	الصفحة
حسن الخلق	١٤٥	الجن	١٩٣
لين الجانب ـ الأمانة ـ الحيـاء ـ		الشياطين	١٩٦
عفة اللسان	١٤٩	القيامة	٢٠٠
السلوك المهذب	١٥١	البعث والحشر	٢٠٣
آداب الزيارة ـ آداب الطعـام ـ		الجنة	٢٠٥
آداب اللقاء والمجالسة ـ حسـن	١٥٦	جهنم	٢٠٦
اللقاء ـ حسن المجالسة		القدوة الاسلامية	٢٠٩
الآداب العامة	١٥٨	القدوة العظمى	٢١١
حقوق الانسان فى الاسلام	١٦١	الجانب الاجتماعى	٢١٣
المساواة العامة	١٦١	جانب القيادة	٢١٤
الكرامة الآدمية	١٦٢	الشورى	٢١٥
حرية العقيدة	١٦٣	الأمانة	٢١٦
الأمن على النفس والعرض والمال	١٦٤	القيادة السياسية	٢١٩
الحقوق المالية	١٦٩	القدوة الثانية	٢٢١
المشاركة فى الأمور العامة	١٧٢	أبو بكر الصديق	٢٢٢
المرأة	١٧٣	القدوة الثالثة عمر	٢٣٠
الأمور المحرمة	١٧٧	الجهاد فى الاسلام	٢٣٧
فى الدين	١٧٨	حروب النبى (بدر)	٢٤٢
فى المجتمع	١٧٩	موقعة أحد	٢٤٣
فى المعيشة	١٨٠	موقعة الأحزاب	٢٤٥
فى الشراب	١٨٢	صلح الحديبية	٢٤٦
الغيبيات	١٨٩	فتح مكة	٢٤٧
الملائكة	١٩١	موقعة هوازن	٢٤٨

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٨/١٦٨٢

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٦٧١ ـ ٨